رواية

أحمد الشيخ

الناس في كفر عسكر

أولاد عوف

مختارات الكرمة

HAZEM MASSAOD
HM
E-Books

الناس في
كفـر عسكـر

أحمد الشيخ

الناس في كفر عسكر

أولاد عوف

لمزيد من المعلومات عن الكرمة للنشر والتوزيع:
www.facebook.com/alkarmabooks
حقوق النشر © أحمد الشيخ ١٩٧٩
الحقوق الفكرية للمؤلف محفوظة
جميع الحقوق محفوظة. لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب بأي طريقة من دون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر.
الشيخ، أحمد
الناس في كفر عسكر: أولاد عوف: رواية / أحمد الشيخ - القاهرة: الكرمة للنشر والتوزيع، ٢٠١٤.
٢٤٨ ص؛ ٢٠ سم.
تدمك: 9789776467057
١ - القصص العربية.
أ - العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٥٥٠١ / ٢٠١٤
١ ٣ ٥ ٧ ٩ ١٠ ٨ ٦ ٤ ٢

صورة الغلاف نسخة ملونة رقميًّا لصورة بالأبيض والأسود من تصوير ستوديو ((كلاسيك)) في نهاية سبعينيات القرن العشرين. الصورة إهداء من مجموعة ((فوتو مصر)) التي بدأتها هالة القوصي للتوثيق والتأريخ للتصوير في مصر في القرن التاسع عشر والعشرين:
www.facebook.com/fotomasr

إهداء

لمصر المستقبل، والناس.

ولروح أمي الراقدة في مدفن ضيق وسط مدافن قرية في أحضان الدلتا.. نمشي له مسافة في الأرض المزروعة، ونفكر في الموت، نقرأ لها الفاتحة ونشكو لروحها همومنا والزمن الصعب، نرتاح، نتجدد، ويزيد في قلوبنا الإيمان، نفكر في المستقبل، ونصدق ((نيتشه)) وكلامه عن العود الأبدي، ونصدق أوراق البردي، ونصوص الأهرامات.. نتأكد أن بلدنا قديمة وخالدة، موجودة وحاضرة وصاحية في عيون الناس.

تنويه

الزمان الهابط والزمان الصاعد، أو قل الزمان المتتابع والزمان المتراجع، عندما يلتقيان في بؤرة، ربما حول موقف أو ذكرى أو شخص.. دوامات يصعب الإمساك الأكيد بمسارها المرعوش برغبة الامتزاج.. البدايات والنهايات في لحظة الانهزام، رنين الأنات وصدى الصوت الحي متشابكان مع الشحوب الخافت لأنفاس ذوَّبها الفراغ لكنها ما زالت في الأذهان تحيا، وكأنها تتبادل مع الزمن الدوَّار غير الثابت رغبة البقاء المستحيل، كان العبء فوق الطاقة، مغامرة تتطلب الجسارة، والرغبة – إن كان للرغبة وزن - في الاستمرار.. هبوطًا وصعودًا يتقابلان في الزمان الفائت.

والأرض.. الحرب.. الموت.. بؤر امتزاج.

أحمد الشيخ

الفهرس

حسن عوف
صالح عوف
مختارات الكرمة

حسن عوف

(١٨٩٨ - ١٩٧١)

((ركب دماغه ولم يطاوعني فراح مني وخلَّف لي في القلب حسرة)).

وكان القمر بدرًا.. لبدنا أنا وعبد الحميد خلف الباب الكبير.. كتمنا أنفاسنا ونحن نتسمَّع صوته المعهود.. كنت خائفًا والشومة في يدي، وفي بالي أنه لن يفلت هذه المرَّة.. ضغط عبد الحميد على كتفي وكأنه ينبهني أو يشجعني.. سمعت خطواته الجسورة ترج الأرض في عنفوان وجلبة وكأنه فحل جاموس.. كتمت أنفاسي فلم أعد أسمع غير نحنحاته تشرخ صمت الليل وفراغ الدار.. عند الباب الموارب تحسست بالأذنين أنفاسه المطمئنة تعبر العتبة.. تلقفه عبد الحميد في صدره وأحاطه بذراعيه.. عبد الحميد كان عفيًّا.. ارتبكت أنفاسه لوهلة قبل أن يتساءل مداريًا رعبه بشيء من الاستهانة والكبر:

- مين؟

((سوف ترى)).. قلتها لنفسي وأنا ألمحه رغم العتمة من خلال انعكاس ضوء الشعاع القمري الذي يرسم خطًّا مائلًا عبر عتبة الباب الموارب ويغطي طرف جلبابه أيضًا.. لانت الشومة في يدي وكادت أن تفلت وطرف الجلباب يقاوم.. ارتبكت لحظة وأنا أواجه ما كنت أتخيله وأتمناه.. عتل عبد الحميد تحت ثقل المقاومة فحركت الشومة لأحميه وهويت بها على سلسلة ظهره.

صرخ في ذعر المأخوذ هذه المرَّة وهو يجاهد أن يبدو صوته مطمئنًّا واثقًا:

- مين؟

((ما أهمية أن تعرف؟)). ناولته الأخرى والتي تلتها.. لم ينطق بكلمة وكأنه يكيدني ويؤكد بالصمت ضعفي.. طنت في أذني رغم سكوته أصداء كلماته التي يعايرني بها ويذلني: ((يا أصفر يا أبو علة)).. طوحت الشومة وأتيت بها من خلف ظهري كما كان يفعل، ونزلت بها على دماغه، أنَّ في استكانة وسقط الشموخ المقيت.. مرَّة أخرى طوحت الشومة ونزلت بها على الدماغ ثم الكتف، جعَّر في خفوت مخزٍ لأنه قالها:

- جاي.

((قلها يا رجل.. قلها مرَّة أخرى)).. للمرة الأولى أسمعها منه وكأنها موَّال مقهور بعد ألف غنوة فوز.. فرحت ونزلت الخبطة التالية بعزم أشد.. استغاث هذه المرَّة وكأن الضربة مزقت عن وجهه بُرقع الحياء:

- روحولي يا خلق البلد.

((ما زلت تغني يا رجل؟)). أيقنت من هزيمته، وأحسست بالغيظ لأن صوته ظل واعيًا.. ((ولما سقط شمروخك فوق دماغ الرجل سقط من طوله ولم يقم أبدًا.. ففيمَ العويل؟)).. استجمعت قواي ونزلت بضربة مغلولة، فصرخ عبد الحميد.. انزاح شيء بقوة وارتمى فوق الأرض ودفعتني يد ناحية الباب.. كانت أنفاس عبد الحميد تقترب مني.. بدأتُ الرَّمْح.. كان عبد الحميد خلفي يرمح أيضًا.. كنت خفيفًا وكان ثقيلًا.. طالني عند الكوبري.. توقفت لاهثًا من التعب فلطشني بالكف فوق صدغي فعرفت ما جرى.. كان يمسك رأسه بيده الخالية.. همس متماسكًا:

- بطحتني يا أعمى يا ابن الكلب.

وسرنا.. سألت عبد الحميد عارفًا جواب السؤال إن كان الرجل قد مات.. مط بوزه ولم يتكلم.. تحسس رأسه ودفعني من ذراعي وسرنا في اتجاه البندر.. الصمت بيننا كان معجونًا بالرهبة، والشعاع القمري يفضح الخطوات المتسللة.. ((ملعون أبوك يا قمر)).. أحسست بالتعب والرغبة

في القعود أو حتى الارتماء على الأرض راضيًا بما يجري لي حتى لو جاء الرجل وذبحني دون أن أراه.. قلت أزحزح الخوف والرهبة:
- أنا تعبت.
شدني عبد الحميد من كوعي وظل ساكتًا يفكر.. رأيت الدم ينزف في بطء متلصصًا تحت طاقيته ويشق لنفسه طريقًا ضيقًا متحاشيًا بروز أنفه.. أخرجت منديلي وجففت خط الدم وعبد الحميد ساكت.. ربطت رأسه بالمنديل وغطيته بالطاقية.. سألته:
- الخبطة بتوجع يا عبد الحميد؟
لكنه لم يرد.
- عمره قالها المفتري؟
لم يتكلم.. كان الدم ينشع من خلال المنديل إلى الجبهة.. غسلت منديله في بحر الساحل ومسحت الدم.. لم يكن عندي ما يقال أو كان عندي الكثير، فاحترت عن أي الأمور أتكلم فكان صمت، إلا وقع خطواتنا على أرض السكة الزراعية.. رحت أسترجع صوت صراخه المستغيث وأحس نوعًا من النشوة غير المكتملة.. احترت كيف أجره للكلام.. قلت:
- خلِّي برهومة ينفعه.
سكت أيضًا، فأحسست بالخيبة.. قلت لنفسي: يكتب الأرض لبرهومة ونطلع من المولد بلا حمص، الخنزير.. همس عبد الحميد بحلقه.. حسبته يرغب في الكلام.. سألته بسرعة:
- حرام ولَّا حلال؟
قال وكأنه يسد حلقي بالكلمة:
- اخرس.
- أنا خايف يرمح ورانا.
قلتها دون وعي.. كان مرسومًا في دماغي بعوده المفرود الفحل، ونظراته الحادة المهيبة، وصوته القاطع الغليظ، وشمروخه الذي أخافني كلما رأيته في قبضته وكأنه سوف يخبطني به فوق أم رأسي.. ورغم أنه كان ينزل فوق رؤوس أخرى في المعركة فيسحقها، وأنه قالها لي مرَّة وهو ينظر إليَّ بعينين ساكتتين وكأنه يمنحني هدية العمر في لحظة قيلولة صافية: ((ولما أكون زعلان والشمروخ في إيدي يا وله اتاوى من قُصادي)).. لكنني كنت أحس أحيانًا أن شمروخه سقط بالفعل فوق دماغي ربما أكثر من مرَّة.. سقط فوقي لا أدري أين ولا متى، لكنه بالقطع طالني مرَّة.. لا أشك في أنه طالني به مرَّة.. وكان حتمًا أن أرتعش لما أراه.. أما كيف ومتى سقط فوق دماغي، لا أعرف بالقطع.
همهم عبد الحميد بكلمة فحسبته يحادثني بعد طول صمته.. قلت مستفسرًا في لهفة غريق لنسمة هواء:
- بتقول إيه؟
- اخرس.
وخرست.. كنت أخشاه لما يغضب.. أبي نفسه كان يعمل حسابه لما يغضب.. خوفي منه كان ممزوجًا بالحب والإعزاز.. كان شهمًا وحليمًا، أما أبي فكان غشيمًا وتصعب معاشرته، لو طالنا لدفننا أحياء وعاد إلى الكَفْر بعد أن يغسل يديه من دمنا إذا عصيناه ويرجع لمبروكة يفرحها بخبرنا

وكأنه فتح عكا.. أحسست بمغص في بطني وأنا أتصوره يرمح في أثرنا ويطولنا، قلت في محاولة للهرب من الفكرة التي حومت حولي وعششت في دماغي وكأنني أستجير:
- كان بيستجير زي الحُرمة.. مش كده؟
- اسكت.
وسكت مرة أخرى.. ولم يعد غير صوت خطواتنا يتردد دويًّا مرتبكًا.. قلت لنفسي لأطمئن: ((خبطة واحدة فتحت دماغ عبد الحميد وجعلته كالدائخ)).. ((وبدأت أحصي الضربات التي أصابته.. لا شك أنني أصبحت رجلًا ما دمت قد جعلته يستجير)).. نظرت إلى وجه عبد الحميد.. كان خيط الدم قد بان هذه المرَّة أكثر اتساعًا.. شطفت المنديل في المصرف ومسحت الدم وسرنا.. كان وجه عبد الحميد غائبًا في أمور لا أعرفها.
- إنت زعلان مني؟
سألته فكف عن المشي ورفع يده وحط راحته على كتفي ونظر إليَّ.. حاولت أن أفهم ما يرغب قوله فلم أفلح.. هز دماغه الجريح وزام يأسًا من إفهامي بالنظرة شيئًا.. كانت بيوت البندر قد بانت من بعيد نقاط ضوء بعيدة شاحبة، لكنها توحي بالونس، وتبسط على القلب المغلوب بقية الطريق الساكت غير المطروق.. قلت لنفسي إنه قد هان الأمر، وإن الفرار أصبح ميسورًا ولو إلى حين، غير أنني كنت أجهل ما سوف تأتي به الأيام.

* * *

لم يبقَ شيء.. العود الذي انحنى والوحدة.. والنظر الكليل والوحدة.. العري والوحدة.. وصمت الأيام المُرَّة والمشوار الممدود بطول العمر.. خاليًا إلا من وهج وحيد خبا وخلَّف العتمة.. والجرح الغويط وفراغ اليد وبقية اعتزاز يجعلني أتأبى على الطلب.. ((قال عطية: صالح ابنك، فخذ منه بالمعروف أو بحكم المحكمة)).. قلت: أبدًا.. صالح وقف أمامي في المحكمة مرَّة.. ظل يرقبني كأنه يقيسني وقالها: إنت فتني وهربت.. والقاضي لما سأله كان يكذب: اشتريت ودفعت.. فضحكت في سري.. كنت عارفًا أن العقد باطل والختم مسروق، وسيد راح وخلَّف في القلب حسرة.. وحتى لو زحفت إلى عتبات الموت بمركبة الجوع لن أفعل.. والولد الصغير جاء حاملًا وجه سيد فجعلني أبكي.. قلت له يستحيل أرجع.. وسيد راح في شربة ماء.. قلت له ألف مرة: كن في حالك والتفت لمصالحك فلم يطاوعني.. ركب دماغه وظل يذهب.. وفي المرَّة الأخيرة كان يضحك.. ويحدثني عن صحتي قائلًا إنها أحسن.. ولما قلت له: حُسن الختام.. قال: أبدًا.. وعاود الضحك قائلًا: ستعيش بعدي.. وانقبض قلبي ساعتها ولم أضحك.. كنت في كل مرَّة أعتبرها نكتة لكنني هذه المرَّة لم أستطع، وساد وجوم قطعه سيد بابتسامة قائلًا: حتى لو مت قبلك خذها ببساطة.. ولم أشاركه الضحك.. جعلت أمتص دخان الجوزة متفكرًا كيف يحلو له ذلك الهزر العجيب.. وحدثته عن الأيام التي فاتت.. عن رغبتي في أن أراه مرتاحًا.. حدثته عن أملي في أن يختار لنفسه بنتًا ويخلف أولادًا، ولو عشت أفرح، ولو مت أكون مطمئنًا.. واستمر أيامًا ثلاثة قبل أن يحمل حقيبته ويضع كفه فوق كتفي ويسألني إن كنت محتاجًا لشيء فأهز الدماغ نفيًا.. ويضحك بالعينين والشفتين وكل التقاطيع والأنفاس.. يتحول إلى ضحكة فأعرف أنه ينوي على قول شيء يعرف أنه لا يرضيني.. قال: مسافر.. سألته: مصر؟ قال: الكَفْر.. وكنت غاضبًا لكنه نظر إليَّ في شبه لوم رقيق لأنني ما زلت أعترض.. وقلت له: مع السلامة.. ومشى.. كان القلب مهمومًا ومحزونًا وكأنه يفارقني للمرَّة الأولى.. وفي الليل لم أنم، وحاصرني قلق مبهم، وسألت روحي عن السر فلم

أعرف، ولما نمت قرب الفجر رأيته في المنام.. من دمي وكدي علمتك يا سيد وجعلتك محترمًا عنهم.. قلت لك يا سيد كل ما كان وجرى.. عن شوق كنت أحكي لما تسأل.. وكانت هي السبب في الأول وفي الآخر.. وأنا من يومها لم أعرف الراحة ولا أنت عرفتها.. ودخت في البلاد قبلك وبعدك.. سواح في بلاد الخلق سعيًا وراء اللقمة ورغبة الخروج بك من الدنيا.. وكنت أخشى أن تصادف ما صادفته أنا فبعت الدنيا والدين واشتريتك وعلمتك.. قلنا تروح المدارس حتى لو استغنينا عن الرغيف والهدمة.. ولما كبرت قلت لروحي هانت ووصلنا بر الأمان.. وتروح هكذا فطيسًا وتتركني لأمواج الأيام السود تهد ما تبقَّى من جهدي.. تدوخني دواماتها قبل أن أخلص من شماتة العيون فيك.

* * *

وركبنا القطار أنا وعبد الحميد.. كانت السكة طويلة.. قال عبد الحميد الذي كان دماغه مربوطًا بشاش أبيض إنه يعرف عنوان الشيخ سعد عوف في الغورية.. كنت أطل من شباك القطار فرحان وأقول لنفسي إنه هناك خلف هذه السحابات المتراكمة مكان نظيف ومشرق اسمه ((مصر)) وأرغب في الوصول إليها بسرعة.. عبد الحميد كان مهتمًّا بجرحه، يتحسسه من آن لآخر وكأنه يذكرني بغلطتي.. والشوارع كانت نظيفة عن شوارع المركز، والناس منهم أفندية يضعون الطرابيش فوق الرؤوس دون مناديل كما يفعل الخواجة ((بولس)) الصرَّاف لما يأتي، ومنهم أولاد يلبسون الجلابيب المقلمة ولها ياقات، وشفت الإنجليز لأول مرَّة بوجوههم الحمراء وبناطيلهم القصيرة والبنادق على أكتافهم أو في أيديهم.. والبيوت كانت عالية.. وفرحت لأنني سأعيش فيها.. مصر أم الدنيا.. ((قالوها في الكَفْر واشتقت لرؤيتها واكتفيت بسماع ما يقال عنها.. مصر)).. ورأيت الشيخ سعد.. وقال لعبد الحميد إنني أصبحت رجلًا فضحك.. وراح عبد الحميد مع الشيخ سعد وجاور في الأزهر بعد أيام، وأنا أخذني الشيخ سعد إلى بيت كبير له بوابة حديدية وقالوا لي: اقعد هنا على الدكة واحرس الباب ولما يدخل غريب اسأله عن السبب.. وعرفت الست الكبيرة وبنتها نهاد، وشافني الرجل الكبير، وكلهم لهم وجوه حمراء كأنهم إنجليز.. وألبسوني قفطانًا أبيض وطربوشًا وحزموني بحزام أحمر.. وعرفت الأسطى محمد الطباخ بوجهه شديد السمرة وكأنه عبد حبشي، والدكة كانت توجع مؤخرتي لما يطول القُعاد فأقوم وأتمشى عند السور.. وأظل أنتظر من يأتي ليدخل لكن الدار كانت لا تهم الناس فلا يرغبون في الدخول، وقلت إنه لو حدث وتركت الدكة يومًا فلن يدخلها نفر.. واكتفيت بالنظر للناس، وأحيانًا تسألني نهاد إن كان أحدهم سأل عنها فأقول لها: أبدًا.. وكانت بنتًا ظريفة وحلوة، وجهها كاللبن الحليب، وصوتها ناعم.. وزهيرة كانت تخدمهم وتشتري الأشياء من السوق، وتقف تحكي عن البك الكبير والست الكبيرة وتقول إنهم ((تراكوه)).. وأسألها: كيف؟ فتضحك وتدخل.. ولما غابت زهيرة جاء عم محمد وأخذني وعرفني مكان السوق وجعلني أشتري الطلبات: اللحم والدجاج والسمك والخضر والفواكه.. وقال خذ صينية الأكواب النظيفة ودر بالماء حول السفرة وانتظر من يطلب ففعلت.. ((ملعون أبوك يا أبي.. جعلتني أخدم على آخر الزمان)).. وعلى رأي المثل.. أيام تيجي على ولاد الأصول تتذل.. قالها واحد من أهل الكَفْر لا أذكره.. لو كنت يا ولد ظللت حافظًا للقرآن مثل عبد الحميد لجاورت في الأزهر مثله ووضعت على رأسك بدل الطربوش عمامة وهان الأمر.. وجاء الشيخ سعد مرَّة ووجدته أمامي وناداني وكلَّمني عن وصول أبي من الكَفْر، فسقط الطبق الصيني من يدي على السجادة فَعاصها، وصرخت الست الكبيرة وشتمتني والشيخ سعد واقف وهو ساكت قالت لي: فلاح

خسيس.. وأنا احتقن دمي ورميت الطربوش ناحيتها.. وقلت: أنت الخسيسة وكل صنفك.. وراحت تقفز كالملدوغة وتلعنني بكلام غير مفهوم.. وأنا خارج كنت أشتمها بدوري والشيخ سعد يحاول تهدئتي وأنا أرد على كل كلمة تقولها.. وذهبت مع الشيخ سعد إلى عبد الحميد في الأزهر، وقلنا لعبد الحميد فقام وأخذني معه وجعلنا نمشي حتى وصل إلى بيت زميل للشيخ سعد، بِتنا عنده حتى سافر الرجل وجاء إلينا الشيخ سعد وتركنا الشيخ سعد وخرج.
عبد الحميد جاور في الأزهر، وأنا ظللت مدة بلا عمل، والشيخ سعد اشتكى مما فعلتُه مع الست التي شتمتني في حضوره.. وكنت أنتظر عبد الحميد كل يوم حتى صلاة العشاء لما يأتي.. ومرَّة وأنا أتسكع في شارع الأزهر طلب مني أحد الأفندية أن أحمل عنه حقيبته الكبيرة لقاء أجرة، فترددت أولًا، ثم طاوعته وحملتها على كتفي حتى بوابة الحديد وأخذت منه ما أعطاني وعدت من نفس السكة.. ولما قلت لعبد الحميد تنهد في حسرة وقال لي: إياك تعملها مرَّة ثانية.. وأنا قلت لنفسي إنه يحرم نفسه من نصف الجراية ويعطيني لآكل ويضعف.. وقلت أشتغل أي شغلانة وأكسب قوتي.. وعرض عليَّ ولد تأجير عربة يد ومشاركته في نقل الخشب من الشادر حتى دكاكين النجارين والورش.. وقلت له: كيف؟ فعرفني وشاركته.. ولما عرف عبد الحميد بعد أيام قال وكأنه يحادث نفسه: شدة وتزول.. وبعد أيام وجد لي شغلانة في محل عطارة عند الحُسين وكانت مريحة.. وجاء إلينا عسكري وطلبنا في قسم الدرب الأحمر، فذهبنا معه ودخلنا عند الضابط فسألنا عن اسمينا، فقلنا له وقال لنا إن أبانا قدم شكوى ضدنا يطلب منا نفقة لأنه معدم، فنظر إليَّ عبد الحميد واستغرب وقال للضابط إن هذا الكلام باطل، وإنه متيسر الحال، وإننا تركناه منذ عام واحد فظل يطاردنا لنعود إلى الكَفْر، وهو يمتلك أرضًا لكنه كتبها لأخ لنا صغير، وإنه طلق أمنا وتزوج امرأة عمي الميت ووضع يده على أرضه أيضًا، وأنا قلت له: ((كتب كل الأرض لابنها وجعلنا نشقى مثل التمِلّية فهربنا)).. ونظر إليَّ الضابط مرتابًا، وطلب منا العودة بعد يومين ليتحقق بنفسه من صحة المسألة.. ولما عدت إليه وحدي قال: روحوا وشوفوا شغلكم فأبوكم كذَّاب وربنا يساعدكم وأنا حفظت الشكوى.. وخرجت وقلت لعبد الحميد لكنه كان مشغولًا بشيء لا أعرفه فلم أعاود الحديث في الأمر أبدًا.. وسمعت أن الإنجليز حبسوا سعد زغلول فتظاهر الناس.. كل يوم أراهم يتظاهرون والبوليس يطاردهم ويفرقهم.. وفات الناس على دكان العطارة يهتفون: ((يحيا سعد.. يحيا سعد)).. وبعد ساعة قالوا إن الإنجليز ضربوا المجاورين بالنار عند باب الأزهر، فرحت أتفرج، فوجدت الإنجليز يطاردون الناس والميدان خال تقريبًا، وسرت في أول شارع الأزهر فوجدت عبد الحميد مرميًّا والدم ينزف من جنبه، وأسرعت ناحيته فمنعوني، لكنني نفذت إليه وأنا أنادي عليه، فضربني أحدهم بمؤخرة البندقية في رأسي وداس بنعل حذائه فوقي.. وكنت فوق صدر عبد الحميد الجريح وهو يتألم ويكتم الدم براحة يده والدم يغطيها، واستمر الإنجليزي يضربني وأتألم ولا أفكر في ترك عبد الحميد ولو مت.. وتساند عبد الحميد على كوعه وأمسك بيده الخالية كوع الإنجليزي وشده بقوة فوقع على الأرض، وجاء آخر وضرب عبد الحميد برصاصة في دماغه فارتمى على الأرض رمية الموت وعيناه تحملقان في اتجاه السماء والدم ينزف في سرعة ويغطي الوجه ويتسلل عبر العنق إلى الأرض ويصل إلى الصدر، والناس تجري من حولنا وأنا أصرخ وأصرخ وعبد الحميد ساكت سكتة العجز.. والإنجليزي الأول قام ونفض قميصه، وظل يضربني بمؤخرة البندقية فوق ظهري ورقبتي ورأسي وأنا مستميت فوق صدر عبد الحميد لا أود أن أصدق وأتمنى لو كان ما أراه مجرد كابوس طويل

ينتهي بطلوع النهار.. وكنت أتوجع من الألم وأحتضن أخي الذي كف عن التنفس وسكن تمامًا، وكان الناس يهتفون في الشارع ولكن في خفوت، وكنت أسمع أصواتهم المطرودة تصرخ: ((يحيا سعد.. عاشت مصر.. عاشت مصر))... ولم أستطع النطق.. لو كنت نطقت لقلت شيئًا.
وبعد مدة تركوا الميدان، وجاء بعض المجاورين وحملوه مع آخر ودخلوا الجامع وهم يهتفون أيضًا.. وخرجوا بعد الصلاة بعبد الحميد وزميله، وكان الشيخ سعد ممسكًا بي من ذراعي وهو يهذي بكلام كثير: ((ربنا على الظالم.. العدل يا عادل.. يا منتقم يا قوي يا الله))... وساروا بعبد الحميد محمولًا بدمه لم يجف وأنا خلفهم وهم يكبرون ويقرأون الفاتحة بصوت كدوي النحل.. وهم يجهزونه للدفن أبعدوني عنه.. ودموع الناس في عيونهم كانت تجعلهم أشباحًا بلا تقاطيع مميزة.. وثوبي الغارق في الدم يجف، ولم أكن أعرف دمي من دم عبد الحميد.. كان الدم مزيجًا مخلوطًا.. ودفنوا عبد الحميد في الدرَّاسة وبت ليلتها وحيدًا في حالي والهم راكز على قلبي.

* * *

وخبرك يا سيد نزل عليَّ هم موت لا يحتمل بعد أن نفذ السهم.. وكان صعبًا عليَّ أن أصدق، صالح بعث الخبر: ((احضر لوفاة سيد))... ولا أدري متى ولا كيف وصلت الكَفْر.. أخذوني من يدي وسندوني وقالوا كلامًا كثيرًا لم أسمعه.. كنت أسأل عنك وكأنك في دار أيهم تطلبني، وكأنني واثق أنك سوف ترد على ما أسألك عنه.. وقالوا دفناه العصر وأنا لم أصدق، قلت لهم هاتوه، لكنهم مصمصوا الشفاه حسرة أو سخرية أو شماتة.. قلت لهم هاتوه فسكتوا.. ورحت أسعى بكل طاقتي ناحية المدافن.. مدافن جماعة عوف حيث يرقد جدي الكبير وجد جدي وأبي وبرهومة وأعمامي.. وقلت للرماد الذي حطوك فوقه أن يكون رفيقًا بك.. أن يحنو عليك.. أن يكون لك الأب والأم والإخوة والأخوات والصحاب.. أن ينير ما حولك بحق جدنا الحسين.. والبعض وقف جواري مهونًا عليَّ أمرًا لا يهون: ((البقية في حياتك)) حياتي أنا التي لها بقية؟ ((شد حيلك)) انهد الحيل وانقضى الأمر! ((ربنا يعوض عليك)) بماذا؟ بمن؟ ((حسك في الدنيا)) خافت وهزيل وغير مسموع! ((فيك البركة)) الخراب والوحدة وبركة اليأس والضياع والحسرة.. وصالح كان واقفًا قصادي.. يبكي.. ((هل هزك الخبر يا صالح أم أنها الأصول تؤديها أمام الناس حتى ينفض السامر.. والتقاطيع المهمومة بفعل ماذا يا صالح؟ هل تعاركت مع أحد وجئت تشيع سيد بهذا الوجه الغاضب))... والدمعة الغريبة في عينيه تذكرني بدمعة أبي يوم راح عبد الحميد.. ((لم أفهم جماعة الحاج عوف أبدًا، الرجال الفحول قساة الملامح يبكون أحيانًا))... قلت لصالح الذي اقترب مني: سيد مات.. فاستدار وابتعد.. ((ابتعدت ضيقًا مني أم لتخفي انهزامك عني؟)). ومجموعة الصبية الصغار يلتفون حولي ويقولون كل بدوره في حماس حزين كلنا أولادك يا عم حسن.. سيد كان أخونا الكبير.. ((وكان حبيبي وأخي وأبي ودنياي وولدي، وحده يا أولادي كان يساوي الدنيا فلما راح لم تعد هناك دنيا)).

((قلت لي يا سيد في الليلة الأخيرة إنك تبحث في الكَفْر عن شيء تحبه وأنا لم أفهم ولن أفهم سوى أنك ضعت من يدي ولن يعود صوتك مطمئن النبرات الواثق.. ولن أرى وجهك الباسم حتى في لحظات الضيق.. بسمة الاطمئنان إلى شيء كبير فوق طاقة التصور.. شيء غير مفهوم يجعلك مرتاحًا إليه فيرتاح الوجه والتقاطيع رغم غلاف الهم.. شيء تحت الجلد يتوهج مهما غطته الأحزان، ليس هو الأمل في الدنيا وحده ولا الحلم والتمني ولا حتى انتظار الفرج.. أبدًا لم تكلمني عما يجعلك هكذا.. ترى كنت تعشق؟ وكيف فاتني أن أسألك عنها.. ((قال صالح: نرتاح في

الدار)).. ((راحتي في الموت)).. قلت: أسافر.. سكت وهمس: أوصلك.. قلت: وحدي.. سرت وحدي.. خرجت من الكَفْر بالليل.. لم أركب للبندر.. سرت في نفس الطريق القديم الذي عبرناه أنا وعبد الحميد في بدايات العمر الشاب.. وأنت كنت كائنًا لم يتخلق بعد.. كنت يومها أقول لنفسي: لن أعود إلى الكَفْر أبدًا.. اليوم أقول لنفسي: حتمًا سأعود.. من أجلك يا سيد وليس من أجل صالح.. أنت فعلتها يا سيد بالموت لما عجزت عن فعلها بالحياة.. حققت مرامك ونفذت رأيك.. سوف أداوم على المجيء إلى الكَفْر لتراني ولا أراك.. من أجل ما كنت تأتي من أجله سوف آتي، لو عرفت لماذا أو لمن على وجه التحديد كانت تتحرك نواياك وتأتي.. لصالح؟ صالح يا سيد؟ أهو صالح؟ ربما كانت شوق؟ هل هي شوق تلك التي جعلتك تعارضني بهذه الحدة.. وتصر على المجيء بعلمي وغير علمي.. هل هم مجموعة التلاميذ الصغار المتحمسين والذين ترتسم على وجوههم أحزان الرجال الكبار.. ((ولم يكن هناك بدر.. كانت عتمة وسكون مقبض)).. نارك يا سيد لا تبرد.. لو مت تبرد.. ربما في عتمة القبر ورطوبة أرضه تنطفئ النار أو تبرد.. لو امتزج بدني بتراب بدنك يهدأ.. نارك لن تبرد.. نار عبد الحميد بردت.. ما عشت لأسمع أنك انتهيت.. نار عبد الحميد ظلت في نفسي قطعة تتوهج من آن لآخر.. ولما عشت معي بردت من حرارة الصهد القديم وقلت لنفسي: هو أخوك وعوضك عن عبد الحميد.. لكن أن تضيع.. تضيع حقًّا.. كابوس ثقيل يكتم الأنفاس ويدوخ الدماغ أم هي حقيقة؟ هكذا يا سيد ظللت تذهب إلى الكَفْر لتداوي جرحًا قديمًا حتى تحولت أنت نفسك إلى جرح فسيح يصعب لملمته.. جرح بطولك وعرضك يتمدد في قبر معتم ويلتف في رأسي ويصرخ في كفنه الأخضر.. يظل ينبح ما عشت من أيام.. ((يا رب.. هل تأتي به وتصوره على ما كانه.. إشراقة العينين وصدق اللسان وتسكته)).. ولكل أجل كتاب.. وكتابك يا سيد جاء أجله.. لماذا يا رب بعثته لتكويني بناره؟ لم أطلبه منك لتمنحه ثم تحجبه؟ كان لا يرضيني لو تحكم الشيطان في سيد.. كنت ألومه.. ألعنه، وأنا أعرف مدى ضلاله وقسوته كنت ألعنه ولا أخشاه.. أما أنت يا رب، أنا ذاهب إلى نار جهنم راضيًا ما دمت لا أرضى.. هل هو الكفر والضلال ألا نستسلم لموت من نُحب؟ أنا لن أرضى أو أسامح.. هل تسمعيني يا عتمة الأيام السود.. لن أسامح.. وأنا حر فلن أسامح.. النار المحمية أهون من نار القلب المجروح بنار الابن)).

* * *

وانشقت عنه الأرض فانتصب قبالتي كأنه زرع شيطاني جاء بعد فوات الأوان.. شمروخه منصوب بجانبه بنفس طوله وغضب الوجه القادر لحظة الظفر.. كان الشيخ سعد في الجامع وكنت وحدي.. حاولت الفرار لكنه ركن الشمروخ إلى الجدار وظل واقفًا عند الباب يسده.. كان وجهه الغاضب ينضح غلًّا.. ((عبد الحميد راح في لمح البصر يا رجل فماذا تريد مني؟)).. أيقنت أنني انتهيت وخطواته تزحف نحوي وتنقله فأراه يتضخم.. ((ما زلت عاجزًا عن فهمك يا رجل.. وهذا الذي يلمع في عينيك؟ هل عرفت ما جرى أم جئت تقتل؟)).. تأكدت من أن ما أراه في عينيه قطرات دمع غريب على التقاطيع الصارمة التي لم تهتز مرَّة.. نسيت خوفي وهو يضع راحته فوق كتفي أولًا قبل أن يأخذني في صدره.. ((هي المرَّة الأولى يا رجل.. كنت تنتظر موت عبد الحميد ليحن عليَّ قلبك؟)).. قالت بصوت متوتر غير متآلف النبرات:

- عبد الحميد راح فين يا حسن؟

بكيت.. كان صوته مشروخًا ومهمومًا، لم يكن يسأل.. كان ينعي.. كنت في صدره وأحسه.. يجاهد أن يصلب طوله.. دفنت وجهي في صدره فكان يتنهد حسرة ويضغط رأسي نحوه وكأنه يربطني إليه بعنف الخائف.. كنت مغمومًا وكأن عبد الحميد يموت في هذه اللحظة.. رأيته يجفف الدمع براحته خلسة ولكنه يفشل في التخفي.. قال بصوت ممزق جاهد كثيرًا في لملمته:
- بطَّل عياط يا حسن.. هيَّ الرِّجالة بتعيط؟
قالها ونهنه كبنت بكر مضروبة.. ((ليلة سوداء.. فات شهر وأنا كدت أنسى، الليلة ندفن عبد الحميد سويًّا مرَّة أخرى فتمالك نفسك)).. سألني عما حدث فاحترق قلبي، ربما عبد الحميد وربما جرح رأسي، ربما دموعه وانهزام قلبه.. كان الجرح في الرأس ينبح والرجل يخبو وعبد الحميد يذوي وأنا أستذكر ما جرى وكأنه يجري.. قعدنا نتباكى.. نستعيد عبد الحميد، وكأنه غاب وسوف يأتي في الصبح يحكي.. ((الآن عرفت أنه كان زينة الشباب بعد أن داس الغرباء فوق دمه بالنعال النجسة؟ وأنت هناك تنصب طفل مبروكة هيكلًا معبودًا تمنحه الحنان والرعاية وتكتب له الأرض ولا تؤخر له طلبًا؟ وكان شهمًا.. أعرف.. وأنت كنت تعرف لكنك بعته معي واشتريت مبروكة وجئت اليوم تندب؟)).. سألني عن أحوالي فلم أنطق.. سكت أيضًا.. جاء الشيخ سعد فسلم وجلس وراح يحكي بدوره عن الإنجليز والمظاهرات وحماس عبد الحميد وأبي ساكت.. ((راحت نخوتك وجبروتك يا سيد الرجال؟ ما عدت تجسر على السؤال عن قاتل ابنك؟ وأنا الذي حسبتك مستعدًّا لمعاركة ذباب وجهك وتقتل من يحك لك على منخارك؟ جئتنا تعزي بالدموع كالحرمة؟)).. قال أبي وهو يلتفت ناحيتي:
- الفجر شقشق.. قوم نروح.
وقام.. أمسك شمروخه.. حيرني اليقين في كلماته.. ((واثق أنت من نفسك معي كأنني بين يديك لعبة؟)).. كان وجه الإنجليزي الذي قتل عبد الحميد حاضرًا في دماغي وأبي يقول ما يقوله وكأنه أمر لا يرد.. ((دعني أحاول على الأقل ما دمت تعجز)).. فكرت في الفرار من الرجل، قلت له إنني لا أريد السفر بسبب أمر يهمني فعله فلم يهتم.. سأل الشيخ سعد عن أشيائي ولمها بنفسه وحطها في سبت وأخذني من يدي كما كان يفعل منذ سنوات.. ولما حاولت الإفلات أسكتني بنظرة حازمة فحملت السَبت عنه وخرجت من الحجرة.. ودعت الشيخ سعد قائلًا له: ارجع، حاسبًا أنه في الإمكان أن أرجع.. سرت صامتًا بجواره.. ركبنا قطارًا مزدحمًا.. نظرت من النافذة وفكرت في القفز منها فأغلقها أبي.. ولما سار القطار فتحها وسهَّم لحظة يفكر.. فكرت في أن أرمي روحي وأخلص.. نظر إليَّ وقام يقفل النافذة وقال في مرارة، مرارة في الحلق تحملها النبرات وترشها على سمعي:
- ما عادليش غيرك يا حسن.. كفاية اللي كان.. برهومة لسه عيِّل ما وقفش على حيله يا ابني.. إللي انكسر يتصلَّح.
نظرت إلى خطوط الهم المحفورة في تقاطيع الرجل فهالني أنها غاصت وغاصت في اللحم ونفذت إلى داخل التقاطيع.. ((غريبة عليك الهموم.. غريبة)).. أحببته أو صعب عليَّ حاله.. وددت لو أنني ارتميت في حضنه أواسيه وأبكي من أجله.. تماسكت وسرعان ما عدت أكرهه بنفس الحدة القديمة ولا أعرف لذلك سببًا.

* * *

وسيد لما قلت له عما جرى لعبد الحميد ظل يسألني عن كل التفاصيل فأحكي.. قال كلامًا لم أسمعه أبدًا.. ((في الكَفْر قالوا: ربنا اختاره.. قِسمته.. ولكل أجل كتاب، وأشياء أخرى تجعل اللهيب يخبو.. أما أنت يا سيد فقد جعلته يتأجج)).. قال سيد: ضحى من أجل بلده.. أحسست بالزهو والرغبة في الفخر بما كان.. قال سيد: أخذت بثأره.. ((أبدًا يا سيد.. ما قال لي أحدهم هذا.. أخفيت الأمر وكأنه عورة.. لم أفتح قلبي في هذا الموضوع لغيرك بعد إسماعيل.. يا حسرتي على الأيام التي عشتها مرعوبًا وخائفًا أتخفى.. لو كنت أعرف ما عرفته اليوم ما كنت كففت عن الفعل والحركة)).. ولأول مرَّة أحس معنى البلد والدفاع والحماس بعد أن شاب العمر والقلب أيضًا.. أنت جئت يا سيد تعرفني بما كنت أجهله.. صحيح كنت أعرف أنهم جاءوا من بلادهم وعاشوا هنا يأكلون خبزنا.. لكنني كنت أحسبهم كجماعة شلبي.. ما كنت أعرف كل ما تقوله يا سيد.. إن قتلهم رجولة، وإن دم عبد الحميد لم يضع أبدًا.. لو عاد الزمن.. هل يعود؟ لو عاد وجعلني أرى قاتلك.. من قتلك؟ عبد الحميد قتله عسكري إنجليزي عند الأزهر.. وأنت قتلوك في سكة كَفْر عسكر.. لو كان الإنجليز هنا لقلت إنهم فعلوها، لكنهم خرجوا وأنت كنت تمشي وحيدًا في ليل أسود لا تهتف لأحد وربما لا ترى على الإطلاق وجه قاتلك.. ربما رأيته وتعرفه ولكنك لم تبح باسمه.. أنا لا أعرفه يا سيد ولا أحد قال إنه يعرفه.. عزيزة عليك كانت بلدنا.. عزيزة عليك كانت.. من يحبها مثلك.. غضبتي الوحيدة عليك غفرتها.. ولما جاء صالح يطلب مني العودة إلى الكَفْر لم أوافق.. راح يكلمني ويضاحكني بينما أمتص دخان الجوزة وأهز الرأس متفكرًا، وعلامة يفهم منها عدم الموافقة.. قلبي كان معك.. لكنك جئت معه في الشهر التالي وقلت لي ارجع وأنا شتمتك.. خرجت غاضبًا مني مع صالح.. وحتى لما عدت كنت غاضبًا عليك.. وأنت تقولها: صالح مظلوم، كنت أمسك نفسي عن لعنك مرَّة أخرى.. وأعجب حاسبًا أن صالح ضحك عليك... ((لا يعرف عن صالح إلا طوله وعرضه وابتسامته الساهية)).. وصالح قالها لي في مرَّة تالية وكأنه يعايرني مقدمًا:

- سيد قال لي آخدك عندي.

واشتعل في الرأس دبور مسعور.. ظل يطن ويطن.. ((وهل يحملني على دماغه؟ أهي الفلوس التي يدفعها كل شهر تجعله يصر على عودتي للكَفْر خلاصًا مني؟ أهذه آخرة تربيتي فيه وتعبي؟ كل مرَّة كان يقول ما عنده لكن في هذا الموضوع يكذب.. الكَفْر أحسن لي.. تعرف أنت الأحسن لي على آخر الزمان؟)).. هل أنسى ما كان من صالح لما خرجت من الكَفْر بالليل وهو جالس مكانه لا يتحرك.. جربت هذه اللعبة يا سيد ولما جئتني وحاولت أن تجعلني أنسى وأضحك مرَّة أخرى لم أهتز.. لم أضحك من قلبي.. كانت هناك نقطة سوداء لم تستطع تبديد السواد عنها.. الهم كان في ركن القلب راسخًا تصعب زحزحته بألف نكتة.. اليوم زالت الجفوة.. سامحتك.. ربما كنت بدأت أسامحك قبلًا لكنني كلما تذكرت ما حصل أعود ويتعكر دمي وأوشك أن أكرهك؟ وجاء صالح مرَّة.. طويلًا وعريضًا وشاربه يغطي وجهه ويداه خاليتان.. ابنه الصغير كان معه.. قال للولد سلم على سيدك والولد سلم وباس يدي.. والجيران سألوني عنه فصهينت.. سألني عن سيد وإن كان جاء هذا الشهر.. فقلت: لا.. جلسنا في صمت.. لم يكن بيننا ما نتكلم عنه.. كلمت الولد وسألته إن كان في المدرسة من باب الكلام في أي موضوع.. قام وقعد ومد يده ناحيتي بجنيه.. ((تحسبني أستجدي يا ابن صالحة؟ وفره على روحك يا غشيم)).. قلت له إن معي فلوسًا كثيرة، وإن سيد يبعث إليَّ بالبوستة وإنني مبسوط.. لم يكن معي ما يكفي.. ((هل كنت أنظر جنيهك؟ يا

فرحتي بمنظرك وأنت تهز طولك وعرضك وتدفع الجنيه.. أين كنت أيام المرض والجوع.. اليوم تدفع لأنك تحسبها.. هناك من يستطيع رد الجميل)).. حاول إضحاكي بموضوع قديم مداريًا خجله من نفسه.. نظرت إلى وجهه وجعلته يخجل أكثر.. كان ثقيلًا على القلب كصخرة.. بات الليلة وعملت الواجب.. تصرفت.. ((الجنيه الذي جئت تدفعه لا يشتري فرخة يا تيس)).. وفي الصباح جاء سيد.. كأنه على موعد معه.. أخذني على جانب يسألني عن الأحوال المالية ويعطيني.. أحسست بالفارق.. الفلوس لا تهم.. ما كانت تهمني يومًا، ولا قيمة لها.. سيد كان يحس بي ويفهم.. رغم وجود صالح كانت الليلة حلوة.. كنت أنظر إليه بينما يتفرج على قماش الجلباب الصوف الذي أتى به سيد من أجلي.. أقرأ في عينيه حسرة وغلًّا.. ربما محاولة النظر باستهانة.. ((أنت لم تعرف صالح أبدًا يا سيد.. نفخة كذابة وحس ميت ودم ثقيل لكنك تحتمله)).

قال صالح وهو يخرج ساحبًا ابنه معه:

- مش عايز حاجة من الكَفْر يابا؟

قلت لنفسي: يا دمك.. عزومة مراكبية.. كلام فض مجالس؟ الخسيس خسيس.. تربية الحريم لم تفلح أبدًا.. الرجل ابن الرجل يفهم ويحس والنطع يعمل فيها أعمى وأطرش وأخرس.

قلت له: تشكر.

وراح سيد يوصله.. وكنت أسترجع مع كلامه وجه أمه الأزرق.

* * *

ورجعت الكَفْر مغصوبًا ومغلوبًا على أمري.. وكل ما يقابلني أحد يسألني عما حدث لعبد الحميد فأحس بوخزة في جنبي وأجاهد ألا أحكي.. وأمي لما رحت لها سألتني فأمسكت لساني حتى لا يحترق قلبها أكثر.. كانت تلبس السواد وتبكي وتلعن أبي لأنه شتتنا في البلاد البعيدة ليرضي مبروكة.. قالت لي: لا تخرج من الكَفْر يا حسن.. ((الغربة تتوه الأصول يا ابني)).. ولو احتجت شيئًا أطلبه منها.. وأنا قلت لروحي نار الكَفْر ولا جنة مصر.. ((والأرض فرت من أيدينا، وكما قالوا: موت وخراب ديار.. ومهما كانت الأرض مكتوبة لبرهومة فأنا أشتغل في أرضنا والشغل فيها لا يعد معيرة وقلة قيمة في نظر الناس مثل الشغل عند الأغراب.. وما أدراني ببرهومة لما يكبر يتحكم في الغيط والدار أو يجعلني شريكه؟ يخلق من ظهر العالم فاسد ومن ظهر الفاسد عالم)).. قالت أمي: لا تحمل للدنيا همًّا.. ما كنت أحتاجه كانت تدبره.. اللقمة الحلوة تحضرها وتبعث لي أتعشى عندها.. وأبي عاملني بشكل آخر، بالحسنى، فكدت أنسى بمرور الأيام ما فعله.. ((يا قلبي الذي يصدق ويحن في كل مرَّة ولا يحمل الأسية)).. ((إن كبر ابنك خاويه)) قالها أبي مرَّة فقلت رجع لعقله.. وكلما تذكرت عبد الحميد أزداد كراهية لمصر وأود لو رجعت مرَّة واحدة وصادفت الإنجليزي وقتلته.. كلما أحسست بالدم يجري في عروقي وعزمي يشتد أرغب في قتله، وأعود بعدها فليس لي هناك عيش.. مصر للأفندية وأصحاب الدكاكين والأكابر.. هناك جربت الجوع والحاجة والتسكع بحثًا عن شغلانة.. وبرهومة بدأ يكبر ويتعلق بي فأحبه.. ومبروكة نفسها بدأت تتحاشى العِراك معي كما كانت تفعل في الماضي وكأنها أحست برجولتي.. والقلب ينسى. وطلبوني للجهادية.. راح أبي ودفع البدل وجاء مبسوطًا.. أعطاني مقطع قماش كشمير، وقال: فصله وخلي لي وش صديري.. فرحت به.. قال: نكمل الفرحة وننسى الحزن.. سكت.. تتزوج، قالها أبي فارتعش قلبي بالفرحة، قلت: رأيك.. قال: خذ صالحة.. سكت.. كانت صالحة في القاعة.. ((صالحة يا رجل لا أقبل ريحتها.. لا أريدها.. أكبر مني.. أنت رجعتني ومبروكة تحايلني من

أجلها إذن؟ ترقبينني بعينيك السوداوين الضيقتين وأنت تصبين الشاي، وماذا يحدث لو رفضت أن آخذ بنتك يا مبروكة.. تبدئين الحرب كما كان يجري؟)).. قلت: ربنا يسهل.. قال: تأخذها.. بنت عمك ولحمك تلمه.. وأنا لم أتكلم.. قال: الصبيان في سنك خلفوا.. زيتنا في دقيقنا.. نكتب ونجهز لما نبيع القطن.. ((صالحة يا رجل؟ لحمي)).. لحمي العجوز؟ طمعان أنت في الأرض التي وضعت عليها يدك.. قالت مبروكة: نكتب لك فدانين وصالحة لها فدانين.. تعمروا الدار.. سكت.. شدني أبي وخرج من القاعة، قال: كفانا مناكفة.. تأخذها يعني تأخذها ليس فيها عيب.. قلت: كبيرة عني.. قال: بنت عمك ونظر إليَّ في تحفز الراغب في الضرب لو نطقت.. نفس النظرة القديمة التي كانت تخوفني منه.. يقولون كل شيء في الدنيا بالخناق إلا الزواج بالاتفاق.. أين الاتفاق يا رجل.. لا أريد.. تذلني باللقمة أنت ومبروكة؟

قال: هيه؟ قلت: طيب.. أمرك.. وسكتنا.

ولما باع القطن راح طنطا واشترى النحاس والكسوة، والخبر شاع في الكَفْر.. ((مبروك عليك))..

يقولونها فأحس بالسخرية في النبرات والتقاطيع وأسكت.. كانت زفة كبيرة ومندرة الحاج عوف الكبيرة مرصوصة برجال الكَفْر.. كنت أرتدي جلبابي الجديد.. مر تختراون ونقرزان يطبل ولفوا بأكواب الشراب.. وسمعت الزغاريد.. وكانوا يحطبون في الشارع ويرقصون عند باب المندرة وأراهم من الشباك المفتوح.. أبي فوق حصانه يلعب البرجاس.. شمروخه الطويل يحذرني بحركاته.. ((ارقص واهتز يا شورة النسوان.. ارقص فالكل يضحك على خيبتك الثقيلة)).. وجاء المأذون فنزل أبي ودخل المندرة وكأنه يكتم بطوله وعرضه على أنفاسي.. وجلسنا بعد أن قمنا لهم حتى جلسوا.. وضعت يدي في يد أبي بعد أن أخذ الوكالة من صالحة.. غطى المأذون يدينا بمنديل أبيض جديد أخرجه أبي وسط التهليل والهياص.. ((هللوا فاللعبة جديدة ومسلية.. والذبيحة في يد الجزار)).. كان عبد الحميد في دماغي.. ((كنت تكرهها يا عبد الحميد وتقول إنها بومة)).. قال أبي زوجتك موكلتي البكر الرشيدة صالحة علي عوف.. أمرني المأذون أن أقبل وقبلت.. وفرقعت زغرودة ودخلت الغازية وسط التهليل والهرج وراحت تتلوى وفي بطنها ثعبان مرعوش ناعم..

قال أبي: اطلع واحملها للمندرة القبلية.. أنزلتها من التختروان المحطوط عند باب الدار.. حملتها وسط الزحام ومشيت ناحية المندرة.. كانوا يهللون حولي.. دخلت أم مشحوت ((الماشطة)) وكانت تتثنى وتتكلم بالعين والحاجب.. أمرتني بعمل شيء مخجل.. نظرت إليها وإلى وجه صالحة فلم أجرؤ.. ((وكنت يا صالحة أكره سخفك حتى قبل أن تدخلوا دارنا وتخرج أمي)).. لفت أم مشحوت رباطًا فوق إصبعها وفعلت بينما تضحك، ورأيت الدم يتدفق.. ((وكان دمك يا عبد الحميد يتدفق بغزارة من الرأس نظيفًا وصافيًا غير هذا الدم الأزرق تحتها)).. وصرخت صالحة فانطلقت الزغاريد وكأنها تعايرني بسقطتي معها، ودق الكفوف على باب المندرة المسكوك بعد خروج أم مشحوت بقطعة القماش الملطخة بالدم والبنات تغني: ((قولوا لابوها إن كان جعان يتعشى.. وإن كان شبعان يحطوا...)) و((يا عروستنا يا لوز مقشر تعالي)).. وكلام كتير تاه مني قالوه.. كانت صالحة تجلس على طرف السرير الحديد وكأنها عفريت مصور.. خلعت المداس وطلعت وتمددت إلى جوار الحائط وهزتني تطلب مني أن أقوم لأتعشى، فقلت: لا.. لكنها شالت صينية العشاء الكبيرة وحطتها فوق الطبلية ورصت عليها الأكل واستمرت تلح عليَّ بأن أقوم حتى قمت غصبًا..

كنت جائعًا ونفسي مصدودة عن زاد الدنيا.. أزاحت أمامي ذكر البط المحمر والحمام المحشي، وقالت: كل.. كانت تضحك وكنت أحسبها سوف تخجل من نفسها بعدما ما عملته فيها أم مشحوت،

لكنها من يومها كانت مفتوحة العينين ولا تعرف الكسوف أبدًا.. ((كنت تكرهها يا عبد الحميد وتقول إنها تشبه البومة)).. واستمرت تتكلم وتتمايل في جلستها وكأنها غازية.. وكبس عليَّ النوم فقمت أنام وأنا أحس عدم رضاها عن ذلك.. وفي الفجر وجدتها مرمية بثقلها فوق صدري فأزحتها عني.. قالت وعيناها القارحتان تلمعان في نهم ولد مفجوع:

- اصحى.

وقمت أغسل وجهي من ماء الإبريق النحاس الذي أمسكته وصبته على يدي.. وخبطت أمها مبروكة وفتحت لها صالحة، وقالت مبروكة بفرح:

- صباحية مباركة يا صالحة، عقبال البكاري.

وأنا ظللت ساكتًا، ولما دخل أبي قمت واقفًا له، فقال: اقعد يا عريس.. وقعد هو أولًا.. وتوافد الناس ودفعوا لصالحة ((الصباحية))، وناولت هي البنات مناديل رأس ملونة، والرجال طواقي ومناديل يد.. واحتفظت هي بالفلوس.. ودارت الأيام كساقية تئن.. ولم يكتبوا لي أرضًا كما قالوا، فقلت لأبي مرَّة وأجابني أنه ينوي لما أخلف له ولدًا يفرح به.. وقالت مبروكة في نفس الليلة:

- شد حيلك وهات لنا خِلفة.

وقلت لنفسي لا شك أنه قال لها.. وقالت صالحة بعد أن تربست الباب بالترباس: اقلع الغيار أغسله لك.. فطاوعتها.. كل ليلة لما أعود من الغيط تسك المندرة بالترباس وتأتي ناحيتي ونطلع السرير وتقترب مني فأشم رائحة فمها النتنة.. دائمًا رائحتها نتنة كالقبر.. الأيام رغم شقاء النهار أحلى من الليالي.. وهي لم تنام تخلع سروالها مدعية أنه يضايقها.. وتظل تعابثني ونتضاحك وأحيانًا تطلب بلا لف ولا دوران.. وكلما حاولت الرضا عنها أعجز.. كلما رتبت في دماغي كلامًا عن رائحة فمها أنساه، وهي أبدًا لا تحس.. ولما أغلب منها أعرف ما تريده وأعطيه لها لتهمد.. وأنام..

وجاء أبي مرَّة وخبط ظهري بكفه الغليظة قائلًا:

- ما تجمد يا سبع الليل.

وقالت مبروكة لأبي وهي تناوله خنصر الشاي:

- إللي يختشي من بنت عمه يبقى إيه يا خويا؟

أحسست أنها تقصدني فاغتظت من صالحة.. كل ليلة أخاف من عدم تلبية رغبتها لأنها تقول لأمها، وأمها تكلم أبي، وأبي ربما يضربني بشمروخه في لحظة غيظ، فأطاوع.

وفي الكَفْر كان الرجال والصبيان يقولون لي: صحتك يوم في النازل ويوم في الطالع، ثم يتغامزون.. ((أعرف أنكم تتحدثون عن الفرع الخائب من جماعة الحاج مصطفى.. عبد الحميد قال لي مرَّة إن أبي جعلنا لبانة في أفواه الناس)).. ((وحتى جدي مصطفى ظل في أذهانهم كريمًا وأصيلًا، محبوبًا، على خلاف أبي الذي يخافونه أكثر مما يحترمونه)).. كان عبد الحميد يُفهمني ما يعنيه الناس بالكلمات، لكنني كنت أصغر من أن أفهم أيامها.

قالوا في الكَفْر إن مولد ((السيد)) عَمران.. قلت لأبي آخذ برهومة وأفرجه على المولد وكانت مبروكة تجلس فأومأت بالموافقة.. ((في كل شيء تنظر إليها تستجديها الرأي؟)).. أعطاني أبي ريالًا.. واتفقت مع جماعة من ناس الكَفْر وأولاد العم، وركبنا ورحنا إلى طنطا نتفرج على الناس والذكر والزفة.. وأخذوني عند الساري وظللنا نتجول.. هناك نصبوا سامرًا وكانوا يحطبون.. كانت معي عصا.. أولاد الكَفْر قالوا العب يا حسن.. نزلت ولاعبت شابًّا لا أعرفه فبان لهم فني.. هللوا لي لما لاعبت آخر.. وخرجت أتفرج على الرجال الكبار.. وشدني رجل وقال: لاعبني..

خفت من منظره، لكنهم شجعوني وفي نبراتهم نغمة الوعيد بالسخرية مني.. نزلت ألعب وأضحكت على الرجل السامر كله.. ونزل رجل آخر يشبه أبي، فقلت لا ألعب.. فقال لي: أنا ملك السامر وإذا كسبتني تكون ملكًا.. وأغراني أن أكون ملكًا.. نزلت إليه ولاعبته وعجزت عن لمسه وعجز هو أيضًا.. كان مبسوطًا مني وكأنه أب يرى ابنه عفيًّا.. ومرَّة وجدت ظهره خاليًا فلمسته وهو يضحك.. هاص الناس وهاص هو معهم، ووجدت الرأس خاليًا فلمسته أيضًا، وتحمس الرجل بعد أن كان مستهينًا بلمساتي لكنه ارتبك لما عجز عن لمسي.. وبدأت أتسلى عليه وسط التهليل والهرج ولقب الملك الذي أحرزته.. ووقف الرجل فوقفت.. وجاء وسلم عليَّ وسألني عن بلدي، فقلت له: كَفْر عسكر.. وقال مبسوطًا: أنا من كَفْر الشرفا يا ملك.. كنت فرحان بنفسي ورجال الكَفْر قالوا: فكرتنا بعبد الحميد لما كان يلاعب في السامر ويكسب الملك.. وكلموني عن عرق الصبا الذي يلبد في داخلي ويمتد إلى ذراعي فيجعله قادرًا وسريعًا كسبع.. وسرنا وسط البلد نتفرج على ناس طنطا.. ورسمت على يدي سبعًا يحمل سيفًا بالوشم الأخضر.. كانت الإبر تكوي والدم الأزرق يتكون خطوطًا نحيلة ويتسلل في بطء على ظهر اليد كحبات عرق تنبت فوق الجبهة في عز بؤونة.. كنت أبتسم فرحان لصبيان البلد، وبرهومة فرحان بي هو أيضًا، يتكلم مع الأولاد بجسارة كأنه يستمد قوته مني، و((كنت أنا يا برهومة في مثل سنك لما أجيء مع عبد الحميد وأراه يكسب وهو يلاعب ملوك الزمن الفائت أفرح كما تفرح.. لكنه لم يكن هناك ما يعكر الصفو فلا دار بيننا ولا غيط)).. وسرنا في سكة الكَفْر والشبان يهللون حولي وكأنني تُوجت بالفعل ملكًا.. وعند بوابة الحاج عوف فاتني الأغراب واستمر أولاد العم وبرهومة في يدي يتراقص بخطواته الصبية.. وعبرت الدرب ودخلت الدار وحدي وبرهومة في يدي، فرأيت صالحة تجلس متكورة بجوار أمها، ولما شافتني قامت وتبعتني واتجه برهومة إلى أمه.. وكان المصباح في المندرة يرسل ضوءًا شاحبًا فعالجته ليزداد الضوء.. وسألتني صالحة بعد أن سكت الباب: لماذا تأخرت هذا الوقت كله وجعلتهم يقلقون على برهومة، فلم أجاوب.. سألتني عن بقية الفلوس فقلت لأتخلص منها: صرفتها.. صرخت في وجهي وكأنها ندابة: يا خرابي.. اقتربت مني تتدلل، فقلت وأنا أزيحها بيدي: ابعدي عني.. لكنها اغتاظت مني وشدتني من طوق جلبابي، فغاصت أظافرها في لحم رقبتي، فالتفت إليها وناولتها بظهر يدي المرسوم عليها سبع فوق بوزها.. سال خيط دم وراحت تصرخ فلم أهتم وجلست فوق الحصير.. ودخلت مبروكة وسألتها عما جرى فرمحت ناحيتها وقالت إنني كسرت أسنانها.. قالت مبروكة: تنكسر رقبتك على صدرك يا عِرَّة.. شتمتها.. قالت هي لمبروكة دون حياء إنها عيشة مهببة ولا تساوي، وأضافت لتدلل بأنني أغيب عنها مهما أغيب وأدخل بوزي شبرين، ولما أنام أعطيها ظهري طوال الليل وكأنني غبيط.. ونضح العرق على جبيني.. أحسست برودته لما مرت عليه نسمة هواء.. خجلت أن أدافع عن نفسي في هذا الموضوع.. ودخل المندرة ناس ووقف في الشارع ناس من الأهالي.. وجاء أبي فشق لنفسه طريقًا بينهم وساد صمت تقطعه دمدمات التوقع.. وأنا نظرت إلى يده فلم أجد شمروخه فظللت واقفًا في مكاني.. ولما أصبح قبالتي تمامًا قالت مبروكة متظاهرة بأنها تكلم صالحة:

- لا ضرب ولا خبط.. نفوت له الدار ونطلع.

وسأل أبي عن الحكاية فلم يسمع جوابًا.. وكأنما حسب حساب الأرض التي يضع عليها يده.. ولا أدري من أين طلع شمروخه وانتصب في يده كمارد أسود.. من جنب الجدار أم أنه كان يحمله في يده الأخرى ويداريه خلفه.. المهم أن الشمروخ بان وساد صمت ثقيل وكأنه عمر بطوله..

وتحركت يده ناحيتي بالضربة.. ورغم سرعتي في تحاشي الضربة طالني طرفه.. طال ذراعي فلم أعد أحسه.. وكاد أن يخبطني مرَّة أخرى فظهر عمي إبراهيم خلفه وأمسك الشمروخ ومنعه من الحركة واحتمل ما قاله أبي.. وسقط ذراعي بجانبي وعلى ظهر راحته سبع له شوارب طويلة وسيف لونه أخضر.. كان الدم ينزف.. لم يكن حتى ينزف، كان يتقافز في خط صاعد ويميل ناحية الجدار فيعوصه.. ولما أزاح أحدهم كم الجلباب ليرى الجرح تطايرت نقاط الدم وكادت أن تصل إلى السقف ونزلت على الأرض رذاذ مطر خفيف دافئ.. ((ضربت عرق الصبا يا رجل فقطعته دون أن تعرف حتى لأي الأسباب تضرب؟)). قالوا له: قتلته يا عم عبد القادر ((قتلتني يا شورة النسوان من أجل صالحة؟)).

ولولا أنني كنت واقفًا لصدقتهم.. كتموا الدم بحفان بن مصحون وربطوا ذراعي بقماش أسود.. وأنا ساكت.. وجاءت أمي لا أدري من أين.. سمعت صوتها يجلجل في الشارع.. يقترب ويدخل الدار.. وكانت تشتم أبي بجسارة وحماس جاءها لا أدري من أين.. قالت: عملتها يا خنزير.. مَوِّت عبد الحميد في الغربة وحسن أيضًا؟ وأنا أحسست بنفسي غير قادر حتى على سماع رده عليها.. لم أستطع حتى الاستمرار في الوقوف مكاني.. وقعت على الأرض ولم أعد أحس بروحي أبدًا.. كل ما جرى أنني كنت أسمع دويًّا متداخلًا لأصوات لا أستطيع تمييزها أو معرفة أصحابها.. وكنت في رقدتي أرى عبد الحميد وأتشكى وأجعله يبكي.

* * *

والحكومة لم تعرف شيئًا عن القاتل.. ((قال الضابط: قيدنا الحادث ضد مجهول وحفظنا القضية)).. وأنا كنت أحسب أن الحكومة لا تخفى عليها خافية، وبعثوا لي نقودًا في شيك، فقلت يدفعون ثمنًا لدمك يا سيد؟ قلت للموظف وأنا أعيد إليه الشيك إنني لا أطلب إلا معرفة القاتل ولا أبيع دم ابني.. ابتسم في إشفاق وقال مهدئًا:

- مش اختصاصنا يا حاج.. دي مكافأة ابنك عن خدمته.. وانت حر فيها.. إنما يستحيل ترجع الخزينة.

وأنا قلت لنفسي: ((لو كانت الوزارة لا تعرف مَن قتل ابني فمن يعرف ومن المسؤول لأسأله؟)).

والليل يومها كان ثقيلًا.. كنت مطحونًا تحت قادوس الكلمات التي تنعي.. وكلما صادفت زميلًا لك ولو قديمًا يسألني عنك فأحس أن الناس ما نسيتك أبدًا.. ربما أنسأك.. أبدًا.. حتى لو نسيك الناس ما نسيتك أبدًا.. ما تبقى من العمر قليل.. فلأحتمل.. ولو طال العمل حتى سأظل أذكر.. ((كان سلومة وصالح وسعيد وشعبان حولي في الجبانة، وجعلت أدق بالكفين المجنونين جدران المدفن وكأنني أوقظك من نوم ثقيل ولا أسمع غير صدى خبطاتي ولا ترد.. والأصوات كانت تهمهم وتحاول إعادتي إلى الوعي فلا أعي، كان يحيرني أن تروح هكذا على غير توقع وبلا مقدمات.. الإنجليز قتلوا عبد الحميد قبالتي وعرفت على الأقل وجه قاتله، أما أنت فقاتلك مجهول الهوية وقضيتك محفوظة لعدم توافر الأدلة)).. إيه يا سيد.. العمر عدَّى والقبر في الكَفْر ينتظر لكن الموت يتلكأ.. ومن يومها تبدل الحال يا سيد - السمع طاش، والنظر طاش، والعقل طاش.

يوم الأربعين رحت وحدي إلى المدفن.. والبنت التي شفتها تلبس السواد لم أعرفها.. سألت نفسي إن كانت من ناس الكَفْر أم أنها غريبة.. أنا الغريب هنا ما عدت أعرف ناس الكَفْر حتى.. ((ترى جئتِ من أجل سيد أو من أجل غيره؟)).. وقالت لي: البقية في حياتك يا عم حسن.. ((تعرفينني وأنا لا أعرفك يا شابة؟)).. ولم أعرف كيف أسألها عن اسمها لأتأكد أنها من جماعتنا أو من

الأهالي.. لم أسألها رغم أنها عزتني فيك يا سيد.. نبراتها كانت صادقة وحزينة.. وأنا كنت أبكي.. قالت شد حيلك.. بوفاء قالت.. وكلما أوشك على سؤالها عن اسمها أتوقف.. ((يمكن حورية من الجنة جاءت تؤنسك في وحدتك وتسليك وأنت في العتمة.. ما دام المدفن لا يُزار.. عائلة الحاج عوف جاءت ونسيت الأصول، وعائلة شلبي كبرت على زيارة القبور مهما كانت قيمة الأموات)).

في السكة لم تخرج البنت من دماغي.. ظللت أعصره وأقول لنفسي إنني عرفتها ربما قبل أن يكون العمر نفسه.. وفي لحظة ومض شعاع وعي خاطف فاستعدت التقاطيع وعرفت أنها بنت شوق.. نفس الملامح وحتى النبرات.. ((جئتِ إذن من أجله يا سعاد؟ عرفت الآن اسمكِ.. الموت جمعنا لما عجزت عن ذلك الحياة)).

* * *

وقال لي واحد من ((التملِّية)) إنه طهق من ناس الكَفْر، وإنه ذاهب إلى البراري في ضم الأرز.. قلت له لما يأتي المقاول يطلب أنفارًا قل لي، وسألني لماذا فصهينت.. وجاء المقاول قبل أن يطيب الجرح لكنني كلمته وخرجت مع الأنفار من الكَفْر خلسة.. فت لهم الجمل بما حمل ورحت البراري.. كانت العيشة مرارًا والأجرة قرشين.. نظل منذ الفجر نحش بالمناجل أعواد الأرز وكأننا نحش معها أعمارنا.. الناموس يمتص الدم ويسمن ويتكاثر.. وننام في قاعة معتمة ومشحونة كأنها زريبة مواشي.. ومرة رآني الخولي أريح ذراعي فضربني كفًّا وشتمني.. قال له أحد أنفار الكَفْر عن أصلي، فقال الرجل باستهانة: أصلك فعلك يا روح أمك.. ((أيام بنشرب عسل وأيام بنشرب خل، وأيام نبات على السرير وأيام نبات في الطل.. صدقت يا عم إبراهيم، لكن هل شربت الخل أو نمت في الطل حقًّا)).. كنت أسمعها للمرَّة الأولى: أصلك فعلك.. وقال النفر ليبعد عن نفسه شبهة الدفاع عني: معلوم.. من يومها لم أعول على الأصل أو أحطه في حسابي.. وقلتها لكل من يجهلها: أصلك فعلك.. راحت أيام اللمة في مندرة الحاج عوف الكبيرة.. وجدي مصطفى يجلس في صدرها بطلعته المهيبة.. وأبي وأعمامي يتكورون على الدكك وكأنهم تماثيل مطوية أخذ منها الجد كل الشموخ والمهابة وتركها منكمشة على روحها.. ونحن صغار وكثار نجلس على الأرض بين أقدام آبائنا نسمعه يحكي عن أصلنا الممتد حتى سيدنا الحسين.. وتنتفخ صدورنا الصغيرة ونكبر ونوشك أن نطول رُكب آبائنا الجالسين على الدكك.. ولما نمشي في الكَفْر ندب الأرض غير هيابين ولا الشياطين الزرق مثلما يفعل أعمامنا في غيبة الجد مصطفى.. نتسابق في قطع فروع التوت والسنط والليمون نعملها عِصيًّا رفيعة في طول قاماتنا ونمشي في دروب الكَفْر نفرقع ونضرب أولاد شلبي بدون أسباب سوى رغبتنا في الضرب.. وما دمت أشتغل مع الأنفار فأنا نفر.. وسيدنا الحسين النائم في قبره في مصر قريبًا من المكان الذي قتلوا فيه عبد الحميد نفض يده من أمر نسله الذي لا يحصي له عددًا.

ويحكي جدي مصطفى عن جماعة شلبي بسخرياته المعهودة.. كيف جاءوا إلى الكَفْر وتسللوا بمسكنة نفرًا نفرًا، دون أن نعرف عن أصلهم أصلًا.. يتاجرون في الملح والدخان والتمر وأحيانًا القماش.. وأشياء أخرى كثيرة يحملها الواحد منهم في خُرجه الذي على ظهره كالحمار.. ويحكي كيف أن جدهم لما اشترى حمارًا وحط عليه خرجه راحت جماعتنا تتندر عليه شهرًا وتسخر.. ويتفرجون عليه ويقولون له: ربنا فرجها عليك.. ولما تزايدوا فتح الرجل دكانًا جعله مخزنًا لكل الأصناف التي نشتريها من البندر.. وقاطعوه مدة، لكنهم كسلوا عن شراء الطلبات من البندر..

بعدها اشتروا أول فدان من ناس الكَفْر غير جماعتنا.. وعملوا جنينة.. ويظل يحكي حتى يصل بنا إلى ختام حكاياته عنهم، فيسأل عمي إبراهيم وهو أكبرهم سنًّا كيف أنه باع لهم أرضًا من حوضنا.. فيطرق متفكرًا أو آسفًا ثم يقولها: الكريم لا يضام، ثم الحريم، أس البلاوي، الحريم يا ابني، لو تل مال ينتهي، لو قوة ثور تنهد، لو عقل واعي يخف، وكله من الحريم.. ويجلس عمي إبراهيم وكأنه تلميذ شاطر في الكُتاب.. ونحاول أن نعرف المزيد عن الحريم وكيف أنهم أس البلاوي، ما دام يعرف ذلك فكيف رضي لنفسه بمعاشرة الأربعة في آن واحد.. ويتابع هو دون أن يسأله أحد هذه المرَّة بينما الضحكة تملأ شدقيه وكأنه سليمان الحكيم في المصحف الشريف.. يا ريت سيدنا النبي خلاهم تسعة أو حتى عشرة.. الحريم يا أولاد دنيا بحالها لا لها أول ولا آخر.. اللهم صل على سيدنا النبي.. علقهم في رقبته كمسبحته وقال: اعدلوا بينهم.. النبي عليه السلام تزوج إحدى عشرة والمسبحة المباركة ثلاث وثلاثون حبة.. ويا بخت من عنده من العيال سبعة كما سيدنا النبي.. ونحصي عدد من خلفهم جدنا فنجدهم عشرة، فنعجب لأنه زاد على سيدنا النبي.. ولما نخرج من المندرة نلعب نقول لبعضنا إننا لما نكبر نتزوج أربعة مثل جدنا ونبيع الأرض وندخل الدنيا الكبيرة التي يكملنا جدنا عنها.. عبد الحميد وحده كان يعارض ويقول في جرأة رجل عاقل ومتزن:

- يا ولاد دا راجل عجوز وبيخرف.. دي الأرض طالعة من حبابي عينيه.

ونعارض عبد الحميد رغم أنه أكبرنا وحافظ للمصحف.. فيقول مرة أخرى:

- والمصحف الشريف الراجل بيداري حسرته وخيبته وبيضحك عليكم.

والفرع مال يا حاج مصطفى يا عوف والبخت أيضًا.. حفيدك يضم الأرز عند الأغراب بالأجرة وسط التملِّية، وكانوا في غيطك ودوارك مثل المواشي نركبهم لو طلبنا.. والخولي قالها وصدقته: أصلك فعلك.. حتى أبي لما جاء مصر لم يسألني عن قاتل عبد الحميد.. أخذني ورجع كالأرنب.. وكنت أحسبه سوف يأتي بشمروخه ليضرب القاتل ولكنه أتى يخوفني ويرجعني لصالحة.. وقلت لروحي يومها: راحت هيبتنا وقوتنا وأصبحنا كالحريم نبكي على الأموات ونندب.. واغتظت منه لأنه سمع الحكاية ولم ينتفض ممسكًا بشمروخه ويرمح مطالبًا بدم ابنه، وفي الكَفْر عاش ناعمًا مدة من خزيه، لكنه استعاد حماسه معي واندفع يضربني بغل فكسر ذراعي وقطع عرق الصبا.. ((كأنك كلب يا أبي لا تبين شطارتك إلا في كفرك)).. والجرح كان يعل عليَّ ويوجعني بينما أشتغل في عز الحر فألعنه.. أقول لنفسي لما أحس التعب يتسلل إلى أطرافي: مصر أرحم.

* * *

الآن أهبط.. أهبط في جوف الذكريات على مهل.. أستعيد سيد.. أهرب من موته مكذوب المقدمات.. أراه حيًّا قبالتي.. الغداء الأخير بيننا.. حلاوة اللقمة بعد غيبته عني شهرًا.. قال سيد:

- نفسي أدوق البامية بالفراخ.

ذبحت ديكًا ونظفته.. جاء من السوق حاملًا بطيخة وخضارًا.. قال: أساعدك؟ قلت له: ارتاح أنت.. قال: أساعدك.. عصر الطماطم وخرط البصل.. وضع لنفسه في الحلة بصلة مقشرة.. خرج مدة وعاد وكشف الغطاء.. سألني إن كانت البصلة قد استوت.. ((يا ناصح.. تعملها حجة من أجل الحوائج مثل كل مرَّة)).. كنت أعرف نواياه، وقلت وأنا أضحك محاولًا أن أبدو حازمًا وجادًّا: غطي الحلة يا حرامي الفراخ.. قال: أشوف البصلة.. أخرجها مع الحوائج ورأس الديك وهو ينظر إليَّ متصنعًا الخوف.. ((لو كنت أعرف أنك ترضى لأخرجته لك كله تأكله وأراك فأشبع)).. قال:

خذ قطعة كبد.. قلت: كُلها.. أخذ الطبق في يده وراح يدندن بأغنية مرحة.. ((تحب الكبدة وتكتفي بجزء منها وتصر في كل مرَّة على وضع الباقي في فمي خلسة)).. سألني: حلوة؟ قلت وأنا أمضغ ما وضعه بيده في فمي.. الأكل استوى. قال: رائع.. وراح يغرف، قعدنا نأكل.. كان اللحم حلوًا.. دائمًا لما آكل مع هذا الولد أحس طعمًا حلوًا للأكل وقدرة على ابتلاعه.. من غيره لا تنزل اللقمة من الحلق براحتها.. أكلنا وانبسطنا.. راح يحكي بينما يجفف يده المغسولة.. قال: هات السكين.. بدأ يقطع البطيخة ببطء من عند القمة.. يسألني: تراهن.. راهنته.. قال: أعرف أنها حلوة.. كانت حمراء وحلوة.. أكلنا ونحن نحكي.. قال: ندخل السينما؟ أضاف: فيلم فرنسي جديد وعليه زحام في مصر.. قلت: ندخل.. قال في الطريق: أقرأ لك الترجمة حتى لا تتضايق.. ذهبنا.. كان الفيلم عجيبًا وسيد يفسر لي بصوت خافت كل المواقف الصعبة.. لما خرجنا كان يكلمني عن الفارق بين السينما المصرية والسينما الأفرنجية.. قلت: كانت الأفلام العربي في أول الأمر أحسن منها الآن.. قال: فعلًا.. سألته عن السر.. فقال لي: الدجل واللصوصية.. سألني إن كنت مبسوطًا؟ فقلت: جدًّا.. سلم على جماعة من أصحابه في سكة البيت.. لم أفكر في النوم ليلتها.. كنت مرتاحًا معه.. كل ما يقوله يشرح الصدر.. كان يدخن أحيانًا وكل مرَّة يقدم إليَّ سيجارة فأقول له إنني أفضل تدخين المعسل.. وأحط الفحمة على النار ولما تستوي أرص الحجر وأدخن.

((لو يتزوج هذا الولد أرتاح)).. قلت له:

- ما تشوف لك عروسة بنت حلال يا سيد يا ابني.

قال وهو يتعجب:

- ولزومه إيه؟ الجواز في الزمان ده ورطة.

قلت وأنا أداري عجبي:

- يا ابني دا انا راجل كبير ولولا الملامة أعملها.

قال ضاحكًا بسخرية العارف بمغزى ما يقال:

- اعملها ولا يهمك.

((أعملها يا سيد؟ مرة أخرى؟ غايتي أفرح بك أنت)).

كان يبدو صافي الذهن مطمئنًّا.. كنت أحس قلقًا.. لا أعرف كم عمره بالضبط.. فات الثلاثين منذ مدة.. ربما خمس سنوات فاتت.. لكنه بدأ يكبر وشعره يشيب.. ((ربما يذهب إلى الكَفْر باحثًا عن واحدة من هناك.. وبنات مصر هناك بنات، لكنه لدغ من جحرهن مرَّة.. كيف يصبر؟ في أيامي كنت قد خلَّفت وأنا في سنه صالح وسيد وتزوجت بعد أمه)).. قلت متشككًا في صدق ظنوني:

- اوعى تكون ماشي في الخسارة؟

قال ضاحكًا مستهينًا بأفكاري:

- أبدًا.

أضاف وكأنه يبرر نفسه:

- تعرف ماهيتي كام؟ والمهر كام والشقة بكام؟ الزمان ده له طعم تاني.

((لو سمعت كلامي من أول شهر ووفرت مبلغًا كما قلت لك ما قلت هذا الكلام.. ولو كان عندي شيء يباع لبعته وزوجتك.. لكن ما باليد حيلة)).. أحسست الهم فوق صدري ثقيلًا بالعجز عن مساعدته.. تخفف عني الهموم بسمته المطمئنة.. قلت له:

- مش عايز منك حاجة يا سيد.. بس دبر أمورك أنت.

قال متأففًا:
- سيبك من الموضوع ده.. بعدين نتكلم فيه.
وسكتنا مدة.. بدأنا نثرثر.. أحيانًا أحس أن الموضوعات التي يكلمني عنها لم تعد تهمه: أسعار الخشب، أنواع المسامير، نقص الخامات، ماله بهذه الأشياء؟ إنه يفتعل الحديث معي.. كنت أحس هذه المسألة ببطء.. الآن حدث أن أصبح كل منا في وادٍ.. ضاعت مواضيعنا المشتركة.. ((مع من يتكلم بحريته هذا الولد؟)).. قلت دون أن أدري:
- واسمها إيه دي.. إللي.. إللي كنت بتحكي لي عنها.. زمان.. كنت بتحكي عنها زمان؟
كنت أعرف حكايته مع البنت التي كف عن الحديث عنها رغم حماسه القديم لها.. ((ربما ضحكت عليه.. كم سنة فاتت وهو ساكت لا يحكي!)).
قال وهو يخرج علبة السجائر ويتناول واحدة.. يشعلها مجاهدًا نفسه لرسم ضحكة على شفتيه تشي بأنه لا يرضى:
- كل سنة وأنت طيب.
- يا ابني عرَّفني.
قال ممعنًا في رغبة الفرار من الاستمرار في الكلام:
- تعرف الأمريكان؟ نزلوا القمر وحطوا علمهم فوقه.. عرفت أنه يهرب.. تركته يهرب.

* * *

((وأنا لو سعدني زماني لأسكنك يا مصر.. وأبني جنينة ومن جوه الجنينة قصر)).. قالها عمي إبراهيم في لحظة تجلي، وكان يتمدد تحت الجميزة العجوزة في طراوة العصر.. في لحظة تجلي راح فيها يسب الكَفْر وناسه.. ((وأنا رجعت لك يا مصر.. لا أطمع في بناء القصر ولا حتى السكن.. غريب جاء يزور قبر أخ له دفنوه يومًا في جبل الدرَّاسة.. فافتحي للغريب صدرك)).. قابلت الشيخ سعد في الجامع، وقلت له أخباري وأخبار الكَفْر.. سألته عن أخباره وأخبار مصر.. فقال ملخصًا ما يراه: ((سعد زغلول طلعوه الإنجليز ومسك الحكومة.. والمظاهرات خفت والأحوال هدأت لا عراك ولا مشاكل)).. قلت له يبحث لي عن عمل فسكت.. كنت أدور طوال اليوم وأرى في العيون سكونًا وصمتًا.. منهزمًا أو منتصرًا لا أعرف.. سكون ما بعد المعركة التي يدخلها الإنسان لما ينهج ويتوقف مستعيدًا أنفاسه.. ربما ساعتها لا يقيس الواحد إن كان قد فاز أو انهزم.. المهم أنه واقف يستعد مرَّة أخرى أو يقول لنفسه كفى.. وأنا كنت أحسب أن المظاهرات ما زالت والناس تتعارك مع الإنجليز.. إنهم يتمشون اليوم في الشوارع باطمئنان مستتب.. ويتكلمون مع أولاد العرب وكأنهم أولاد عم.. أتفحص وجوههم بينما أصادفهم في مشاوير البحث عن عمل.. وكأنني سوف ألتقي في لحظة بوجه قاتل عبد الحميد وأتعرف عليه.. ((ولو رأيته يا ولد.. تعملها وتتعارك معه وربما يتعارك الناس من أجلك.. أم تتفرج عليه وكأنه لم يقتل؟ أبدًا.. تتعارك وما يجري بعد ذلك يكون)).. كانوا يتشابهون فعجزت عن فرزهم والتعرف على نفر منهم.. نفس العيون الملونة والوجوه الحمراء.. والرطانة غير المفهومة.
وجدت مظاهرة صغيرة يهتف على رأسها ولد أسمر نحيل لكنه متحمس.. الشيخ سعد شغَّلني في مخبزٍ قريبٍ من مسكنه.. وبعد أيام رأيت الولد الأسمر.. هذه المرَّة كنت ممسوكًا بلا سبب.. كنت أحمل قفص العيش الفارغ.. وجدت البوليس المصري يرمح في أثر الناس.. قالوا مظاهرة يفرقونها.. كنت أرى رجال البوليس يضربون من يصادفونه.. اغتظت لأن مصر كانت تضرب

مصر والإنجليزي يأمر.. ظللت واقفًا مكاني تحت البواكي.. جاء عسكري مصري وضربني بالشومة وشدني.. لما حاولت المقاومة قائلًا إنني لم أعمل شيئًا آخر وآخر وانهالوا عليَّ ضربًا.. أخذوني في البوكس مع الجرحى والممسوكين أمثالي.. راحوا بنا للمحافظة.. حطونا في الحجز.
دخلت فجلست.. لما حاولت أن أقول لناس التخشيبة إنني لم أشترك في المظاهرة ضحكوا أولًا.. لما أكدت كاد أحدهم يضربني.. قال: ((دسيسة)).. كدت أتعارك معه.. شفت الولد الأسمر يشق لنفسه مكانًا ويقف.. نظر إليَّ.. سألني بسرعة:
- أنت من الغورية؟
قلت له:
- نعم.
قال:
- شفتك.
كنت قد نسيته.. تذكرته بعد مدة.. قال:
- هي المظاهرات عيب؟
قلت:
- لا.
في الحجز جعنا.. جاءني إسماعيل.. قال بثقة غريبة:
- هات كل اللي معاك.
كان معي ريال حوشته وقرش.. مددت إليه يدي بكل ما معي.. قال:
- لما تخرج تاخد الفلوس دي.
نادى العسكري، أعطاه فلوسًا أخرى وطلب منه أن يشتري أكلًا وسجائر.. أكلنا جميعًا في الحجز.. أصبحت أحب هذا الولد إسماعيل.. فتحت له قلبي.. قلت له حكاية عبد الحميد.. قال: خذ حقك.. سكت.. كان يبدو رئيسًا في الحجز.. ضربونا نفرًا نفرًا في صالة المحافظة.. كل ما يتناول إسماعيل شومة يشتم أكثر.. البوليس المصري والإنجليزي والوزارة.. لما ضربوني ظللت ساكتًا رغم قسوة الضربات.. قال إسماعيل بعد أن ضربونا ورجعونا:
- كلها ساعتين ونخرج.
سألته لماذا كان يشتم.. قال:
- بدل ما أقول آه، ألعن سنسفيل جدودهم وأهو كله صوت طالع من الحلق.
عرفني إسماعيل مكان شغله.. كنت فرحان بمعرفته.. لما رحت للشيخ سعد وعرف الحكاية غضب مني.. قال لي: لا تحشر روحك في المظاهرات مرة أخرى.. حاولت إفهامه فلم يفهم.. أضاف: مرة أخرى ليس بك شأن.. عجبت.. قال محاولًا أن يغير الموضوع: زواجك من صالحة كان غلطة لا يساويها إلا هربك من الكَفْر بعد أن خلَّفت ولدًا.. قلت: هو لا يريد معيشتي معه.. لو كنت أستطيع تأجير سكن لأجرته.. أريحه مني وأرتاح من تكرار وعظه وتخويفي من أبي.. كأنه يعيشني على حسابه.
لما قابلت إسماعيل في القهوة التي يشتغل بها رحب بي وطلب لي شايًا.. قلت له: شف لي سكنًا.. سألني عن السبب.. قلت له كل شيء.. عن الشيخ سعد وأبي وصالحة وشغلانة الفرن.. قال: ما

دمت غير مرتاح معه فت له السكن، تعال اسكن معي.. قال لي: ما دمت تركت البلد طلق البنت تشوف حالها.. قلت له: معقول، أطلقها وعلى رأي المثل ((إيش ياخد الريح من البلاط؟)).
كان سكنه في بيت قديم قريبًا من القلعة ناحية الجبل.. حجرة ضيقة ليس بها غير حصير قديم وبطانية وبعض الأواني غير النظيفة.. قال:
- هي الحتة لو أمان كنا نشتري سرير شركة.. بس مليانة حرامية.
خفت.. قال مهونًا الأمر:
- ولا يهمك.. اشتري لك مطوة زي دي.. لو حد اتعرض لك طلعها.
أفهمني أنه من الممكن أن أشتغل معه في القهوة وأترك المخبز حتى لا يعرف الشيخ سعد عنواني.. قلت كل شيء معقول إلا حكاية السكة.. قلت له وأنا أستعيدها:
- دي السكة مقطوعة فعلًا.
قال مهونًا عليَّ الأمر:
- من بعد القسم وشارع الترماي بس.. خليك جدع أمَّال.
كنت مترددًا لكن معاملة الشيخ سعد كانت تتميز بالفتور.. قال مرة ((بعثت للجماعة والأولاد))، فهمت منه أنه ينوي أخذ امرأته في مصر بعد أن تركها لسنوات طويلة واكتفى بالسفر كل مدة.. ربما ضاق بمعاشرتي وخجل مني لأنه يضطر أن يعرفني بأصحابه على أني قريبه متحاملًا على نفسه من سوء حالي.. قلت لنفسي أسكن هنا وأفوت للشيخ سعد سكنه.. ونقلت سبت الملابس إلى حجرة إسماعيل وكانت السكة ساكتة والظلام يخيف.. اشتريت مطواة كما قال إسماعيل وشلتها في جيبي من باب الاحتياط، وكان إسماعيل يشتغل وردية الصبح وأنا أسهر أحيانًا حتى منتصف الليل، ولما أرجع أجد إسماعيل جالسًا على الحصيرة يدخن الحشيش، وكل مرَّة يقدم إليَّ الجوزة فأدخن، ولما أتوه يضحك عليَّ ويقول: ((فلاح)).. ولم يكن يضايقني شيء أكثر من مشوار العودة في السكة المقطوعة وكل ما أقول لإسماعيل نسكن في مكان آخر يقول إنه مناسب ولا يرضى.
كنت راجعًا من الشغل وأمشي في شارع شيخون في اتجاه القلعة.. وجدت نفرًا يتطوح سكران عند السبيل، فأبطأت خطوتي، ولما حصلني وجدته يكلمني بكلمات غير مفهومة ويشتمني بعربي مكسر.. ((إنجليزي وسكران وترمي بلاك على خلق الله؟)).. لم أرد.. مشيت في حالي.. عاد يتطوح في خطواته ويبتعد عني ثم يقترب.. سبقني بخطوتين.. لو كانت لي سكة غيرها لمشيت منها.. توقفت مدة.. ((ابعد عن الشر وغني له كما يقول المعلم)).. كان واقفًا في مكان معتم وكأنه يقطع سكتي.. سألني عن سر تأخيري حتى هذه الساعة، فهمت كلامه بصعوبة.. قلت له: أشتغل في قهوة في المغربلين تشطب في منتصف الليل.. شتمني واتضح أنه لا يفهم ما أقوله.. وعاد يمشي في اتجاه القلعة.. سبقني بمسافة وأنا بدأت أتسكع حتى لا يراني ويضايقني.. تذكرت المطواة.. اطمأن قلبي.. قلت لنفسي: لو كنت تذكرتها لما كلمني وشتمني وما خفت منه.. كنت أمشي بجوار الجامع في العتمة.. انتصب عبد الحميد قبالتي بوجهه الذي ينضح الدم.. كانت التقاطيع واضحة رغم غطاء الدم الذي ينزف من الجبهة.. ارتعبت.. طنت في أذني كلماته: ((اقتله، اقتله يا حسن وريحني في قبري)).. راح بعيدًا.. لو حصلته وحاولت ربما يقتلني لأنه مسلح وسكران.. تخوفني يا عبد الحميد وأنا جئت مصر أزور قبرك؟ أخاف أعملها.. أبوك لم يعملها.. إسماعيل قال لي المطواة تحميك.. من اللصوص، لكنه لم يذكر الإنجليز السكارى.. عاود عبد الحميد كلامه بصخب أشد: ((اقتله وفك قيدي)).. المطواة.. المطواة.. أخرجتها من جيب

الصديري وفتحتها.. عند منحنى ضيق ومعتم تمامًا كنت أتحسس أنفاسي بأذنيَّ.. كان يدندن بلغة غير مفهومة.. ربما هو قاتلك يا عبد الحميد.. لا يهم.. حتى لو كان غيره، أولاد كلاب.. إسماعيل يكرههم.. حاذيت الرجل تمامًا.. تأخرت خطوة واحدة فأصبحت خلفه.. برق شعاع خاطف.. لم أعرف من أين أتى لكنه أضاء حولي فرأيته.. أشاح بيده وكأنه أفاق لنفسه وأمرني بالابتعاد عنه لكنه كان ساكنًا.. ابتعد عنه يا ولد أحسن لك.. إسماعيل بات في التخشيبة من يومين لأنه تحرش بواحد إنجليزي مثله.. سأقتلك وليس لك دية، ركبني شيطان مخطط بألف لون ولون.. ((السكة مقطوعة والمطواة في يدك وهو سكران ولا يدري.. لو قاوم اجرحه واهرب.. لو كنت أقوى منه خلص عليه ولا من شاف ولا من دري.. من الخلف.. امسكه من الخلف.. اخنقه واضرب)).. كتمت أنفاسي.. لم أعد أسمع غير صوته وحده يدندن مبسوطًا، لم يراع ما يدور خلفه.. ((ليلتك سودة)).. بسرعة أمسكته من رقبته.. جعلتها محبوسة بين الذراع والزند.. مت عليها.. أخرج صوتًا خافتًا لكنه ذاب في الفراغ المعتم.. غرزت المطواة في جنبه.. غاص طرفها في لحمه.. نزعتها وعاودت غرزها.. ونزعتها وغرزتها.. بسرعة، بسرعة وهو يخور كعجل جاموس.. ((جرب يا حلوف طعم الموت.. الموت)).. فشلت محاولاته في حماية نفسه.. بدأت تقل وتنعدم.. كف عن الحركة.. أحسسته ثقيلًا في ذراعي.. كان صامتًا تمامًا.. أنفاسه كفت عن الهمس أو الأنين.. تركته يتهاوى على الأرض.. نزعت المطواة من جنبه ومشيت.. وجدت زقاقًا جانبيًّا فانحرفت ناحيته.. كانت المطواة في يدي غارقة في لزوجة الدم حتى مقبضها وراحتي تستشعر اللزوجة والدفء.. نسمة الهواء تجعل الدم يبرد ويبرد.. لم أعد أطيقه.. ((دمه زفر.. نجس)).. فركت راحتي بالرماد وفركت المطواة أيضًا ووضعتها في جيب الصديري.. سرت متلصصًا.. همس عبد الحميد في أذني هذه المرَّة مرتاحًا.. قال: ((جدع.. ريحتني)).. لم أكن أعرف من أين أصل إلى البيت لكنني وصلت.. شيء ما كان يشدني ويحركني في اتجاهه.. وجدت إسماعيل جالسًا على طرف الحصيرة يدخن الحشيش.. لم يلاحظ بقع الدم التي لاحظتها أنا في الضوء الخافت.. خلعت الجلباب وتاويته في السبت.. جلست أدخن.. ((لو جاءوا ليأخذوني الآن أقتل نفرًا غيره وأكون أخذت حقي وحق عبد الحميد أيضًا ويا دار ما دخلك شر)).

صحاني إسماعيل في الصباح لأفطر.. قال: اشتريت الفول والعيش فقم.. قال وهو ينظر إليَّ: بت عريانًا في البرد.. سكت.. سألني عن سر الدم فوق جلبابي قلت محاولًا خداعه:

- حرامي طلع لي.

غمز بعينه وكأنه رآني أعملها:

- تقصد إنجليزي؟ وفيها إيه؟ دا مات.. ولا يهمك كلب وراح.. فتشته؟

قلت لإسماعيل أستفسر:

- يمسكوني؟

قال بهدوء:

- اركز.. محدش عارفك هنا.. إن كنت خايف زوغ يومين.

سألته:

- أروح فين؟ أصلي غريب.

قال بضيق:

- غريب إيه وبتاع إيه يا جدع أنت؟ كلها بلاد مسلمين.. دا اليهود عايشين فيها.

سكت.. قال بحماس:
- ما تبقاش كمشان كده وخايب.. واتلحلح.. اسمع.. روح إسكندرية، لما تكون بطال اسأل على أكل عيشك هناك.. صاحبي يمكن يلاقي لك شغل.. بس ارجع تاني.. اوعى تقول غريب.. دي مصر واسعة ومساعية كل ملة.. مد يده بجنيه.. قال: خذه وسافر.. قلت: لا.. قال: خذه.. وأضاف: إنما شاطر والله العظيم.. اغطس يومين ولما ترجع آخذ منك الجنيه.
كنت مبسوطًا من كلام إسماعيل، وأحس لأول مرَّة بأنني في بلدي بحق.. ((مصر واسعة)).. وفي الطريق إلى باب الحديد كنت ماشيًا بجلباب إسماعيل المخطط، وكلما رأيت نفرًا منهم أبتعد عنه وأمشي من الناحية الأخرى.. ركبت القطار بلا تذكرة ودفعت الغرامة.. وكلما أبتعد عن مصر أرتاح وأهدأ.. ونزلت إسكندرية وكان معي عنوان صاحبه.

* * *

قال لي ولد فلاح لا أعرفه:
- إزيك يا عم حسن.
قلت له:
- أهلًا وسهلًا.
سألته عن أحوال أبيه.. قال بحماس وفرح:
- بيسلم عليك، سيد كان حدانا من يومين.
((تذهب إلى الكَفْر دون علمي يا سيد.. يا نخلتي التي زرعتها وسقيتها ولما كبرت مالت وظللت على غيري)).. سلمت على الولد وسرت وحدي.. قلت له: لا تذهب إليهم.. لكنه عاندني.. في الشهر الفائت قال لي: لا أذهب.. يضحك عليَّ بكلمتين ناعمتين وينفذ رأيه.. أعرف أخباره من الناس صدفة.. كلامي ما عاد يعجبه أو يرضيه.. كلما تكلمنا في هذا الموضوع يسكت.. في دماغه كلام يحرص على إخفائه.. ينظر إليَّ ولا يتكلم.. يضحك عليَّ بكلمتين فارغتين ويمشي قائلًا إنه مسافر مصر.. ويسافر الكَفْر.. هو حر.. أنا نبهته.. دماغه طاقق. أبدًا.. عقله في رأسه يعرف خلاصه.. هو حر مالي وماله.. يظل شهورًا يتشكى من قلة الفلوس فأمتنع عن أخذها منه.. يحسبني أستجدي.. في المرَّة التالية لن آخذ منه شيئًا.. لو أعطاني أرفض.. تغور فلوسه.. ما زلت بصحتي وأستطيع أن أعيش معتمدًا على نفسي.. العوض على الله في شقائي وتعبي.. يذهب إلى شوق.. مرَّة جاءني مع ولد منفوخ.. قال يعرفني به: شاكر.. أخي.. قلت لنفسي: ابن شوق.. لكنه ثقيل الدم.. قلت لسيد اسأله:
- طالع فيها قوي على إيه؟
قال ضاحكًا:
- غلبان:
((كلهم عندك غلابة.. صالح غلبان.. شاكر غلبان.. لا تعرف عدوك من حبيبك، كبرت وعقلك ما زال صغيرًا)).. قلت له: خلِّي نفسك عزيزة عليك.. ضحك من كلامي.. لو قلت نكتة ما ضحك بهذه الصورة.. دائمًا تضحك.. يحسب نفسه متعلمًا ويفهم.. ماذا علموه في الجامعة.. الهبل وعدم الدراية أو الإدراك.. ومن لا يطاوعني لا يكون ابني من صلبي.. ربما ابن حرام.. ابن حرام جاء وضحك عليَّ وجعلني أربيه وأعلمه وآخرتها لا يسمع الكلام.. هو حر.. مالي به.. أولاد حرام هو وصالح.. يأتي ليطمئن على أحوالي في الشهر يومًا ثم يمشي.. لما طردته جاء بعد شهرين.. ليته

ما جاء.. كنت ارتحت منه.. قلبي حن عليه لكنه لم يفهم.. لو جاء أطرده وأضربه أيضًا.. ليس كبيرًا على شيء.. أنا كبَّرته وعملت له قيمة.. من غيري كان يضيع في الشوارع.. صالح يأتي ويبوس يدي في كل مرَّة.. لم أعمل لصالح شيئًا.. ربته أمه وجده.. أنا ربيت سيد وحرقت دمي لأجله لكنه ينسى.. ابن شوق ليس من جماعتنا.. من جماعة شلبي هو.. صالح من صلب جماعتنا.. لو كان يروح لصالح لهان الأمر.. أخوه.. أما شاكر هذا.. لو يحن قلبي على صالح يومًا.. أسأل نفسي لماذا أرتاح لهذا الولد ولا أطمئن لصالح.. عوضي على الله.. لو أنسى ما فات.. لو أنسى.. هو حر.. يذهب إلى الكَفْر ولا يعرفني.. يكذب عليَّ لما أسأله.. يعرف كيف يضحك على عقلي بكلامه.. مرَّة أخرى لن أصدقه مهما قال.. يكون على حق أحيانًا.. مسألة صالح.. صحيح.. لابد أن أنسى.. قال سيد مرَّة: حاول أن تنسى ما جرى.. افتح قلبك له.. لكن كيف يفتح الواحد منا قلبه المسكوك؟ بالكلام؟ لما يأتي أسأله.. كيف أفتح قلبي المسكوك لصالح.. أحيانًا أحن عليه.. أود لو أزيح جدارًا بيننا لا أراه لكنه يحجبنا.. لما يأتي سيد أسأله.

* * *

ولما نزلت إسكندرية وجدتها غريبة.. إسكندرية أخرى غير التي جئتها مع عبد الحميد.. ربما أنا الذي كبرت لأنني أطل عليها بجسارة غير هيَّاب كما كنت أنظر إليها أول مرَّة.. خوافًا ضربه ولد أسمر خاف حتى عن رد إهانته بالضرب واكتفى بالشتيمة.. اليوم أراها بشكل آخر.. ربما كلام إسماعيل.. لست غريبًا.. سألت عن عنوان الرجل حتى وجدته.. كان يلبس معطفًا صوفيًّا فوق جلباب بلدي.. له وجه ضاحك.. قال: أهلًا وأي خدمة.. أعطيته جواب إسماعيل فرحب بي بحماس وقال وعلى وجهه بسمة ندية كنسمة فجر تشرح الصدر.. أحيانًا يرتاح الواحد منا للناس هكذا ولا يعرف لذلك سببًا.. هذا الرجل له شكل مريح وابتسامة تجعل الواحد مطمئنًا إليه.. قال: أهلًا بك.. نورت إسكندرية.. جلس يحدثني بود وكأنه يعرفني هو أيضًا منذ سنوات طويلة.. سألني عن أحوالي.. عن بلدي.. عن أهلي.. ذكرت له كل شيء، قلت له وأنا أستحضر ما قاله إسماعيل لي عن الشغل:

- ما تشوف لي شغلانة كده آكل منها عيش.

نظر إليَّ وسهَّم وقال ببسمته العريضة:

- أنت ضيفنا.. ترتاح يومين وبعدين تشتغل.

أحسست أن في الجو شيئًا غريبًا.. كانت الفلوس معي لا تكفي أن أرتاح يومًا.. أخذني إلى حجرة بها سرير وقال: ارتاح من السفر.. مر يوم.. قلت له: أشتغل.. قال: ارتاح يومين.. قلت لنفسي: بني آدم ثقيل.. خرجت أبحث عن الشغل.. لما رجعت إليه سألني: أين كنت؟ قلت له: لم أجد شغلًا.. أسافر مصر.. قال:

- يومين كمان لحد المسألة ما تتوه.

((أنت تعرف إذن حكايتي يا رجل.. تفتح لي بيتك.. غيرك يبلغ عني البوليس.. لكن كيف عرفت الحكاية؟ الجواب.. ربما جواب إسماعيل)).

في صباح اليوم التالي عرض عليَّ فلوسًا.. قال: من جنيه لعشرة.. قلت: معي أجرة السفر.. قال: أرني.. لم يكن معي غير قروش قليلة.. قال: خذ ولا تعمل فارقًا.. كلنا في الهواء سواء.. بلدنا والكلاب نجسوها.. وأنت تستحق المساعدة.. أخذت منه.. يتكلم عن بلدنا.. في البدء كنت أحسب أن بلدنا هي الكَفْر.. خارج الكَفْر لم يكن يخصنا في شيء.. فرحت لما ضربنا رجال العزبة.. فرحت

واعتبرت أن بلدنا كسبت العركة.. بلدنا.. أحسست أنها كبيرة كما قال إسماعيل.. كبيرة وفسيحة وممطوطة ولي فيها أصحاب.. إسماعيل في مصر وعبد الكريم في إسكندرية.
قال عبد الكريم:
- يكون أحسن لو اشتغلت في مصنع القزاز شهر أو شهرين.. بعدها ارجع مصر واشتغل مع إسماعيل.
غمز بعينه وهو يذكر كلمة الشغل فعرفت ما يعنيه ((شغل مع الإنجليز يريحهم من هموم الدنيا)).
أخذني عبد الكريم لواحد أفندي.. عينوني في مصنع الزجاج.. ولم يرضَ لي بالسكن بعيدًا عنه.. وكل مدة لما أقبض أحاول أن أعطيه أجرة السكن فيرفض وفي عينيه لوم ويقولها: أنت ضيف والناس لبعضها.. قال مرَّة ونحن نتعشى: إسماعيل بعث يطلبك ويطمئنك على الموضوع.. المسألة نامت.. لكن من رأيي تنتظر شهرًا آخر.. وجاء جواب من إسماعيل قال فيه إنهم رفعوا قضية نفقة وبعثوا الإعلان على القهوة فلم يستلمه أحد.. قلت لو رجعت مصر يكون الإعلان في انتظاري.. الشغل هنا أريح.. عبد الكريم كان لطيفًا ومحببًا.. كلمني كثيرًا عن الإنجليز.. عن سر وجودهم هنا.. عن ضرورة خروجهم، وحدثني بصراحة أن هناك عملية مقاومة لهم تتم سرًّا وأن إسماعيل يشارك فيها.
قال إن الحكومة تطاردهم وكان من الواجب أن تساعدهم.. غضبت من الحكومة والملك قلت له عن عبد الحميد.. فقال: لكنك أخذت بثأره.. باقي ثأر كثير.. ثأر البلد.. قلت له: أنا معكم.. قال: أنت معنا من زمن.
كنت طالعًا على السلم فوجدت عبد الكريم وسط البوليس.. خفت.. رفع حاجبه وكأنه يأمرني بمتابعة الصعود دون أن أبين أنني أعرفه.. ظللت أطلع وعبد الكريم يهبط السلم مع العساكر.. مسكوه.. ربما قتل أحد الإنجليز فجاءوا إليه ومسكوه.. ربما يجيئون ويأخذونني أيضًا.. خفت.. فاتت أيام قبل أن يأتي إليَّ العسكري في المصنع.. سألني إن كنت أنا حسن عوف.. فقلت: أبدًا، أنا حسن عرفة.. قال: دوخنا الملعون.. من مصر لإسكندرية.. ناولته سيجارة وهدأت خاطره.. قلت:
- عمل إيه؟
قال:
- مطلوب منه نفقة.. الإعلان داب.
قلت: منه لله.. ((من عرفهم عنواني.. الشيخ سعد؟ ربما هو لأنه حنبلي ويعملها)).. لعب في عبي فأر منجوس.. قلت للعسكري انتظر لما أنادي زميلي حسن عوف.. جلس العسكري في الاستراحة.. هربت من الباب الخلفي من المصنع.. تركت العسكري ينتظر.. أخذت ملابسي من الشقة.. ((جاءك الموت يا تارك الصلاة.. الحكومة تريدك.. اهرب)).. غلطت لما بعثت لك يا سعد عن أحوالي.. ما كنت أحسبك تعملها.
ونزلت مصر هذه المرَّة مغتاظًا من الشيخ سعد.. قلت لا أعرِّفه مكاني أبدًا.. رحت أسأل عن إسماعيل، فقال صاحب المقهى: بطل من هنا من مدة.. رحت إليه في سكنه فلم أجده.. قالوا شال عزاله ومشي.. رجعت لصاحب المقهى وقلت له: أشتغل.. قال: يفرجها ربنا بعد أسبوعين.. ولما فت عليه مرَّة ثانية قال: تفوت علينا بعد أسبوع.. نزلت من الحجرة التي دفعت إيجارها أبحث عن الشغل لأن النقود خفت وأول الشهر قرب.. عرفت الجوع والخوف لما يتسللان إلى الواحد منا فينكدان عليه عيشته.. قرصني الجوع وطالبتني صاحبة السكن بالأجرة.. فقلت أطلع أبحث عن أي

شغل.. انهد حيلي من البحث.. قلت أذهب إلى المحطة وأبحث عن شيلة أشيلها.. صادفني أفندي فحل وأشار إلى قفة كبيرة على الأرض.. شلتها وسرت خطوتين.. بعدها سقطت.. لفت سيقاني على بعضها وسقطت على الأرض.. وقعت القفة فوقي وتدحرجت.. راح الأفندي يضربني وأنا عاجز عن القيام أو حتى الصراخ.. والناس لما التفوا حولنا يمنعونه قال لهم إنني تسببت في كسر قدرة سمن بلدي.. وحلف لا يتركني أبدًا إلا لما أدفع له ثمنها.. وجاء رجل طيب وعجوز.. أمسك ذقنه وقال له: من أجل شيبتي سامحه.. خجل الأفندي وفك طوق جلبابي الذي كان يمسكه.. سألني الرجل العجوز: لماذا شلت القفة وهي ثقيلة؟ قلت له وأنا لا أعي كيف قلتها:

- جعان.

والتفت الأفندي ناحيتي وقال لي في إشفاق:

- بتقول إيه؟

لم أستطع قولها مرَّة أخرى.. ذابت في حلقي.. في كل حياتي لم أقلها مرَّة أخرى.. أبدًا أبدًا لم أقلها.. طعمها في الحلق مر كالحنظل.. فيها مذلة وانكسار وتسليم.. طعمها مر وغير مبلوع أبدًا.. لم أقلها.. قالها الرجل الطيب للأفندي.. قال الأفندي الفحل وفي عينيه شيء كالدمعة يحاول أن يداريها:

- حقك عليَّ.. ما كنتش أعرف حكايتك.

مد يده ناحيتي يعطيني نقودًا.. لم أرضَ أبدًا.. ناولها للرجل العجوز، وكأنه يهرب من غلطة وقع فيها ويصعب عليه إصلاحها.. قال وهو يحمل القفة على كتفه فوق القميص الأبيض دون أن يهتم:

- خليك معاه يا عم.

والرجل راح واشترى لي أكلًا وقال: كُلْ.. وأنا لولا الجوع ما أكلت أبدًا.. ((لو كان الإنسان بلا معدة.. لو كنا بلا معدة يا رب، ما أحسسنا بكل هذا القهر والمذلة.. لماذا كانت البطون؟ ما دامت نقمة ولعنة وسببًا في الهوان يا رب؟)).. كنت آكل في نهم.. الرجل العجوز يجالسني على الرصيف رغم جلبابه النظيف ويربت على كتفي في إشفاق وحنو.. بعد ما شبعت وهو يتظاهر بأنه يأكل معي، أخذني وقال: نشرب شايًا.. جلسنا في ركن مقهى.. قال:

- باين عليك ابن ناس.

((كلنا يا عم أولاد ناس)).. قال: الدنيا حجر طاحون.. يوم في العالي ويوم في الواطي.. قلت: الجوع كافر.. قال: الأصل في عينيك.. قلت: أصلك فعلك.

سألني عن بلدي فقلت له.. سألني عن أهلي فقلت له.. قال إنه يعرف جماعتنا، يعرف جدي مصطفى بالذات.. وأنه تاجر على باب الله يبيع القماش ويلف بلاد المسلمين.. يعرف ناسها.. وراح يحكي عن نفسه كثيرًا ليؤكد أنه يعرف جدي.

قال:

- تشتغل معايا ورزقي ورزقك على الله؟

قلت لنفسي أجرب.. وسافرنا سويًّا.. حملت على كتفي أثواب القماش ودرنا في البلاد والكفور التي يعرفها.. يعرف ناسها.. ولما فات أسبوعان رجعنا، والرجل أعطاني حسابي وقال: الشغلانة تعب عليك وصحتك ضعيفة.. قلت له: فعلًا، أسافر إسكندرية وأشتغل في المصنع مرَّة ثانية.. قال: أحسن لك لأنك تخجل من الناس ولا تنفع في التجارة أبدًا.. وودعته وذهبت وجمعت ملابسي وعدت إلى باب الحديد ناويًا على السفر إلى الإسكندرية.

عند باب الحديد لمحته.. خبطت بيدي على كتفه في ود.. التفت ناحيتي.. لما رآني أخذني في أحضانه.. لم يصدق عينيه.. تعانقنا.. وضعت السبت على الأرض ونسيته.. كأنه أخي ولدته أمي وغاب عني عمرًا.. قال بحماس:
- دوختني عليك.. رحت لك إسكندرية.
قلت له إنني سألت عنه في السكن والمقهى، فضحك.. قال مداعبًا: شكلك تغير، أصبحت ابن بلد بحق.. بص إلى السبت وقال: إلى أين؟ قلت: إسكندرية، المصنع، كنت أنوي الرجوع لما عجزت عن مقابلتك.. قال كثيرًا عن أحواله.. سألني عن عبد الكريم.. فقلت له.. قال إنهم مسكوا نفرًا آخر.. جلسنا في مقهى قريب وذكرت له ما جرى لي.. قال: حظي كان أحسن.. أضاف متباهيًا وكأنه لا يصدق نفسه.. فتحت محل حلواني وبقى لي مركز.. عملت عملة وطلعت منها بقرشين تمام.. همس: ضابط إنجليزي، وقع في سكتي إياها ولما فتشته وجدت جيبه عمران، وقعت على كنز، وبعثت أطلبك لأن موضوعك نام بعد أن عمل زوبعة كبيرة.
قلت له: فرجه قريب.
سألني عن وجهتي.. فذكرته برغبتي في العودة إلى الإسكندرية لأرجع المصنع.. قال والضحكة الساخرة تملأ عينيه فتدمعان من كثرة الضحك:
- يا ناصح، زمانهم رفدوك يا حلو، مفيش غير الدكان، والمكسب بالنص.. حتنبسط.. قلت إيه؟
قلت في عقلي إنه يضحك عليَّ ويجاملني، لكنه قطع تفكيري وأخذني إلى ميدان العتبة وأراني الدكان.. عجبت لأحوال الدنيا.. قال: تكتب عقد شركة؟ قلت: هو مجنون ليجعل لنفسه شريكًا في الملك.. قلت: أنا مطمئن.. وجلسنا في ركن الدكان وأخذ يحدثني عن نشاطه خلال فترة غيابي.. قال إنه طلبني لأنه رتب عملية في كامب إنجليزي قريب من القلعة، وإنه يحتاجني معه لأن زميله في المنطقة ممسوك مثل عبد الكريم.. ولما قلت له: يمسكونا.. قال باستهانة إن هذا لا يهم في شيء، وحتى لو وقعنا في أيديهم نكون أخذنا حقنا ونفذنا العملية.. أفهمني أنه رتب كل شيء وحسب حسابه.. ولما أخذني ليكتب عقدًا لشركة الدكان قلت له إنه لا لزوم لذلك لأننا أخوان ولو طلب رقبتي أسلمها له.. ورحنا الشقة وقال: حط السبت وخذ راحتك.. وعشنا أيامًا وكنا نكسب كثيرًا ويعطيني كل ليلة نصف المكسب بعد محاسبة العاملين.. شاركني في الحلوة والمُرَّة وكان يعرف الكثير مما أجهله، حتى اللغة الإنجليزية كان يتكلمها وحاول أن يعلمني.. وكان يحكي لي عن أنواع الأسلحة وأسماء الباشوات وأصحاب الأملاك، والباشوات يعرفهم بالواحد، ويتعامل مع الدنيا بجرأة ولا يهتز أبدًا مهما حصل له.. حتى لما كنت أحكي له عن عبد الكريم لما مسكوه لا يهتز أبدًا.. وكلما قلت له عن العملية يقول اصبر وما صبرك إلا بالله.
قال مرة: عندي شغلانة صغيرة أعملها وأرجع لك بعد يومين.. قلت له: أشاركك؟ فأفهمني أنها عملية بسيطة تحتاج لنفر واحد.. وذكرني بضرورة بقائي في الدكان وساب المحل أمانة وغاب أيامًا.. كنت أحتفظ له كل يوم بنصف المكسب كما علمني، وأحس أنه سوف يأتي ويفلت منهم، والغائب حجته معه.. وفعلًا جاء في ليلة ودخل الدكان فلم ألاحظه.. ولما طلب طلبًا عرفته من صوته وهللنا سويًّا وراح يحكي عما حصل ففرحت به وأعطيته الفلوس.. فقال: خليها معك واستعد للعملية الكبيرة بعد يوم أو يومين، وقلت له: اتفقنا وكنت مشتاقًا بكل حماستي للعمل معه في هذه العملية.

وسألني إن كنت أستطيع ضرب النار.. فقلت: أتعلم.. وعلمني كيف أستعمل الطبنجة.. وليلة العملية أعطاني طبنجة واحتفظ لنفسه بواحدة وقال حطها في جيب البالطو.. وانتظرنا حتى منتصف الليل.. كان الطريق مظلمًا وساكنًا ولكنه كان يعرف السكة كأنه مشى فيها عشرات المرَّات.. تسللنا من ناحية الجبل وكنا نرى الكامب مضيئًا من بعيد.. قال إسماعيل: لو أمسكوني اهرب، المهم أن تهرب لأنك لن تستطيع أن تعمل لي شيئًا.. قال إنه عملها مع زميله الممسوك وإنه هرب في عملية مشابهة.. وعرفت أنه سوف يحرق الكامب ويحاول الهرب.. وعرفني بمكان في الجبل أتوارى فيه حتى الصباح.. كل التفاصيل قالها وقال إنه عليَّ أن أطمئن عليه فعمر الشقي طويل.. كنا نضحك.
ومن مكان معتم قال: ارفع السلك.. فرفعته وتسلل هو.. كان عليَّ لو شفت عسكري الخدمة الإنجليزي أن أشغله أو أقتله بحيث لا يصل إلى إسماعيل.. وحتى عسكري الخدمة لم يظهر أبدًا.. واختفى إسماعيل في الظلام فمسكت قلبي بيدي وخفت ثم سمعت صوت طلقة وانفجارات متوالية وتحركت أنوار كشافة في كل اتجاه وكأنها تبحث عن إسماعيل.. وكانت الأنوار تلمع وتلف فتذكرت ما قاله إسماعيل عن ضرورة الهرب.
كان الجبل فسيحًا فاتجهت ناحيته وظللت أجري.. وفي مكان ما وجدتني أرتمي دون أن أفهم إن كان هذا المكان مأمونًا.. أمسكت الطبنجة وانتظرت فلم يأتِ أحد.. وعند الفجر قلت لنفسي لو صادفني واحد منهم أقتله وأهرب.. وكانت السيارات تعبر الطريق الجبلي ولا يلتفت إليَّ أحد.. ووصلت الدكان وانتظرت إسماعيل دون أن يأتي حتى يئست من عودته يومًا.

* * *

كرهت أن أقول للناس إنني خلَّفت ولدين فاسدين.. أولهما يظهر الخوف في عينيه ممزوجًا بالجسارة، الإحساس بقوته الغشيمة والرعب في حدقتي العينين ولا أعرف كيف.. والثاني قلت إنه عاش عمره معي فلا بد أن أفهم كل حركاته وسكناته، لكنني عجزت عن فهمه.. يقولون إنه فسد هناك في مصر وفاتني هنا وغاب.. في كل شهر يبعث خطابًا في البوستة به حوالة.. ((هل خلفتك يا ابن الكلب من أجل حوالات تبعثها في كل شهر.. أنا خلفتك لتكون ذراعي ونور عيني لما يعجز الذراع والبصر)).. يغيب عني شهورًا ولا يأتي.. صالح صار يأتي.. ((يحسبونني طفلًا يضحكون على ذقنه.. لعبة هي يلعبانها معًا)).. لما قلت له: أنا بدأت أحب صالح وأكرهك.. بان في عينيه شيء كأنه الانتصار ففهمت.. يحسبني لا أفهم.. أنا ربيته وعلمته.. لعبة مكشوفة.. يغيب هو ويظهر صالح.. ((حتى صالح تحركه يا سيد.. ولد خبيث.. لعبتك مكشوفة يا سيد أفندي)).. ينسى أن الحب شيء لا يملك الإنسان صنعه أو منعه.. صحيح أشفق على صالح وأضيق بما يعمله سيد.. يقولون إنه دار على حل شعره في مصر.. إنه يلعب على هواه.. هو نفسه قال لي عن بنت يعرفها نسيت اسمها الآن.. لا بد أنه يصرف عليها مكاسبه.. ((كان جدي مصطفى عليه الرحمة يقولها لنا: الحريم.. آه يا فرعنا الخائب لماذا تمتد أطرافك المائلة ناحية سيد؟)).. كان يحكي عنها كثيرًا لكنه كف.. ربما تزوجها دون علمي.. لو صدق هذا الظن أذهب إليه وأكسر رقبته كسرًا.. وهل أنا منعته من الزواج ليخفي عني أخباره؟ شتمته فعلًا، لكنني طوال عمري أشتمه وأضربه أيضًا ولا يفتح عينيه في وجهي.. هذه المرَّة عمل غضبان وغاب عني.. الآن عمل كبيرًا عليَّ ولم يحتملني.. أنا عجوز وما لم يحتملني هو فمن يحتملني؟ قالوا لي ارفع عليهما قضية فأنت كبير.. لكن هل من الممكن أن أعملها أنا؟ أشتكي أولادي؟ مهما حصل منهما لا يصح أن أشتكيهما.. من أجل النفقة أقف أمامهما في المحكمة على آخرة الزمن؟ ما تبقى لي من العمر لا يستحق الشكاية..

لو مت بعدها يلعنونني كل يوم.. ليست النفقة هي غايتي أبدًا.. أريدهما معًا.. أراهما وأحادثهما معًا.. لا يكفي أن يأتي الواحد منهما ويختفي الآخر.. حتى سيد لما كان يأتي وحده كنت أفرح صحيح، إنما لا تكتمل الفرحة أبدًا.. صالح أيضًا له في قلبي مكان لم يفتحه أحد.. ولما يأتي صالح ويغيب سيد أحس بأن هناك شيئًا غير مكتمل ولا مريح في قلبي.. كلاهما ابن حرام.. ولدان فاسدان.. كله من هذا الولد سيد.. هو الذي أتى بصالح فحرك المشاعر النائمة والمدفونة منذ سنوات.. صحاها من نومها الطويل.. ((صالح أيضًا له حق عليك))، قالها سيد مرَّة فأحسست بوخزة في ركن قلبي.. رغم معارضتي أحسست أن في كلامه شيئًا من الحق.. لو أنني أخذته معي.. لو أخذته كما أخذت سيد وربيته ربما كان يرتاح.. لما جاء منذ أسبوعين كان يكلمني محاولًا أن يبدو رجلًا لكنني كنت أراه طفلًا.. أصغر من سيد نفسه.. طفلًا ضخمًا له شوارب كبيرة يتخللها شعر أبيض.. الطفل الكبير كلمني محاولًا أن يبدو رجلًا.. أسائل نفسي إن كنت سعيدًا أو تعيسًا فأعجز عن الجواب.. بعد يومين أذهب إلى الولد سيد في مصر أشوف أحواله وبعدها أرجع.

* * *

وكأنما كان الدكان الذي فاته إسماعيل أمانة في رقبتي وغاب سببًا.. ((سبحانك يا مسبب الأسباب)).. الشيخ سعد كان يأتي بجبته الكشمير وعمامته التي بدأ يهتم بحُسن لفها ويعوجها على جنب.. يجلس متمتمًا – كما يفعل الفقهاء في البلد - بالدعاء لي: ((ربنا يزيدك من نعيمه.. يكفيك شر أولاد الحرام)).. ولما أقول له إن الدكان ليس لي ينظر إليَّ مستنكرًا ويقول: ((ومن شر حاسد إذا حسد)) نافيًا عن نفسه أنه سوف يحسدني، وأقول بينما يأكل قطع الكنافة بعد البسبوسة إن الدكان أمانة، فيعمل ما سبق أن عمله مرارًا.. يخرج من جيبه شلنًا ويحطه على الترابيزة ويقول: خد الحساب.. فأعيد إليه الشلن، وأقول له ليس من الأصول أن تدفع وإنما أقول لك الحقيقة.. يقول هو أنه لولا اطمئنانه أنه يأكل في دكان أخيه الصغير ما أكل دون أن يدفع.. وفي كل مرَّة يأخذ اللفافة التي أحضرها له ويتاويها في جبته ويخرج.. ما كنت أخشاه أن يدلهم على عنواني فيصلني إعلان طلب النفقة عليه.. ولما جاءتني رسالة خفت أستلمها وقلت ربما تكون إعلانًا، فنظر إليَّ الرجل مستغربًا وقال: جواب عادي.. فأخذتها منه وأعطيتها لأفندي كان يجلس في الدكان يأكل، وأفهمني لما قرأها أنها من برهومة يعرفني أنه سوف يصل بعد أسبوع.. كنت أخشى وصول أبي لكن برهومة جاء وحده، ففرحت به ونسيت خوفي منهم لأن عينيه بان فيهما الود.. كان شابًّا باسمًا، له عود ممدود مستقيم لولا شحوب خفيف.. كان يضحك فيتمنى كل من يراه أن يكون أخاه.. قال إن أبي بعثه إليَّ لأوصله إلى حكيم يعالجه من مرض خفيف يحسه، وراح يحكي عن خناقة بين أبي وصالحة لما طالبته بأرضها:

- أبوك قال لها: الأرض لبرهومة واللي يخطي فيها أكسر رقبته بإيدي وأدفنه فيها.

ويشرع في الضحك ويفهمني أنه لا بد من تقسيم الأرض بيننا مهما حصل.. ولما سألته عن قضية النفقة قال إنها تنازلت تحت ضغط أبي وإنها ربما تتزوج ابن عمها أمين.. وصدقت كل ما قاله برهومة.. ولما رحنا للحكيم وصف له العلاج ولم أعرف بعدها عن المرض شيئًا.. وقال لي: ارجع معي.. فقلت له حكاية الدكان وإنه أمانة.. فقال حافظ على الدكان ولما يظهر صاحبك سلمه له وارجع الكَفْر.. وأخذته معي وفرجته على الأماكن التي عرفتها، فكان مبسوطًا وأصر على عودتي للكَفْر ولو ليومين وأرجع.. وطول مدة إقامته معي لا يجعلني أدفع مليمًا في شيء، ويقول

حافظ على فلوس صاحبك يا حسن.. وأنا أقول لنفسي: ((عادت المياه لمجاريها يا برهومة لكن الخوف من أمك)).
قال برهومة: أمك خطبت لك ووصتني بإبلاغك.. وأضاف: تنسى ما جرى وترجع تعيش في أرضك وتربي صالح والدنيا لا تدوم على حال.. وحتى لو عارض الرجل أتنازل لك عن نصيبك ويخبطوا دماغهم في الحيط لأنني أحس الوحدة.. وكنت أصدق ما يقوله.. قلت: الدكان أمانة.. ومن آمنك لا تخونه.. أول ما يرجع صاحبه أسلمه دكانه وفلوسه وأرجع الكَفْر.
ولما نزلنا الكَفْر فتنا على أمي أنا وبرهومة.. رحبت بنا.. وقالت لي إنها شافت لي عروسة حلوة وإنها سوف تعجبني.. سألتها: من؟ قالت: شوق بنت عبد الستار شلبي.. قالت: كانت صغيرة لما خرجتُ من الكَفْر وتلعب في الشارع.
قالت:
- كبرت وأصبحت عروسة.
ثم قالت:
- يا واخد الصغير يا حرامي السوق.
ورحنا لأبي فقابلنا مقابلة حسنة، وسألني عن أحوالي، فقلت له كل شيء فضحك، وقال:
- غلِّبتنا معاك.. إللي كنت خايف منه راح.. صالحة دار عليها أمين ووافقنا.
قلت:
- طيب على خيرة الـله.
قال:
- تغور في ستين داهية.. ما دام الأرض في عبنا خلاص.
ولما قلت له عن حكاية شوق قال: لا مانع خذها.. عبد الستار نزيه وإن كان يبيع أرضه كل يومين فدان.
وأمي راحت هي وخالي محمد وخطبوها، وقالت لي إنهم فرحوا وعزموني أتعشى عندهم.. ولما رحت شفت شوق، كانت حلوة.. وجه مدور كصحن بنور وعود فائر وتقاطيع طفلة وابتسامتها تخطف القلب.. كانت مكسوفة لما دخلت وجلست ساكتة.. لكن أمي أخذتها في حضنها وراحت تلاعبها والبنت تضحك كأنها لا تعرف سبب الزيارة.. وكل مدة تنظر إليَّ في توجس ربما تقول إنني غريب عن الكَفْر لأنني تغيرت ولبست طربوشًا ومعطفًا صوفيًّا وجلبابًا له ياقة خلافًا لمن تراهم في الكَفْر.. قلت لها بشقاوة ابن بلد وكأنني ألاغي بنتًا تشتري من الدكان: دمك خفيف يا شوق.. فاحمرت خدودها بسرعة ورمحت خارج المندرة.. قالت أمها تلومني بفرحة:
- كسفتها.
وقرأت الفاتحة مع أبيها وشرطنا شرطها وقلت لأمها وأنا أخرج من دارهم والفرحة تزغرد في قلبي: خدي بالك منها.
دس في يدي نقودًا فنظرت إليه متعجبًا.. كنت قد نويت على السفر وأفهمت أبي أنني سوف أرجع قريبًا.. قلت له: معي.. قال: خذ، فلوس صاحبك حافظ عليها وسلمها له وارجع.. أخذت ما أعطاه لي وسار معي يوصلني ويسألني عن شوق.. فقلت له.. فبان عليه الانبساط بصورة لم أعهدها فيه.. وبرهومة يغمز لي والدموع توشك أن تطفر من عينيه فأعرف أنه وراء ما حصل من تغير في لهجة أبي: قلبك أبيض يا برهومة.. لكن قلب أمك له لون آخر.. أنت قلتها هناك في مصر:

((كسروا أنفه بحكايتي وعملوه مضغة فبعثك ليصلح الغلطة)).. وصالح كان يمشي معنا في سكة البندر ويقول لي بحماس وهو يتعلق بطرف البالطو:
- اقعد معانا على طول يابا.
وأنا أقول لنفسي إنني سوف أرجع لأجله ولأجل برهومة.. ((وقال أبي سامحني، فعجبت لطلبه.. ولما قلت له سامحتك زفر في ارتياح وكأنني أزحت بالسماح صخرة محطوطة على صدره.. وحكى لي عن كابوس طارده.. ثعبان كبير التف حوله وغرس أسنانه في لحم صدره.. وكان يصرخ ويسمع الصوت يدوي: فوق لروحك يا عبد القادر وراضي ابنك الغريب.. وكان يناديني بعزم صوته ويسمعني بعيدًا بعيدًا، كأنما يأتي الصوت من تحت الأرض، والثعبان يضغط ويضغط وأنفاسه تضيق.. وجاء برهومة معي فخف الضغط عن صدره وانزاح الثعبان وأحس بالراحة)).. وقال أيضًا: إن الخير الذي أصابني كان من أثر دعواته التي طلبها لي في صلاة الفجر.. هو إذن أصبح يصلي؟ وكنت أضحك في سري من كلامه.. وسايرته.. ((طول عمرك يا رجل لا تركعها، ولا ترى حالي أبدًا أو تسمع صوتي ولما يزورك ثعبان في المنام تخاف؟ تخاف وأنت مثل فحل الجاموس.. ربِّ سلط عليه في كل ليلة ثعبانًا يقلق نومه ويخوفه ما دام لا يعرف الخوف دونه.. ثعبان شراقي يلهفه في المنام ويصبح الصبح فيحسن معاملتنا لما أرجع)).

* * *

ولما قامت الحرب خفت على سيد.. قلت: مصر خطر.. لو يأتي أطمئن عليه.. بعد أيام جاء.. صوته مبحوح وعلى وجهه أمارات هَمٍّ لم أرها أبدًا على تقاطيعه.. حكى لي عن النكسة بمرارة.. وعن اليهود والأمريكان.. فسر لي أسبابًا سبقت الحرب لم تخطر ببالي.. ((مالنا بالحرب يا سيد؟ لا نحتمل الحرب يا سيد.. هم أقوى من الإنجليز.. والإنجليز قتلوا عبد الحميد في عز الظهر.. كنت تهتف ضد مَن ومع مَن؟ لو شافك الأمريكان يقتلونك.. لو عرفوك ما فاتوك.. كن في حالك.. ترتاح وتريحني)).. قال: انهزمنا فعلًا لأننا استهترنا بهم ولم نعمل حسابًا سليمًا لشيء.. تواكلنا واندفعنا بحماس نتباهى فانكسرنا.. قلت له: ربك يحلها.. قال: لو أمكن للناس أن يذهبوا أذهب معهم وندافع.. سكت.. ((لو عارضته ما أفادت المعارضة.. في حرب بورسعيد أخذ البندقية وسافر ولا أدري كيف سافر أو كيف عاد ومن أين جاء بالسلاح.. هو أدرى بمصلحته)).. كان يحكي بحماس الواثق من صدق ما يقوله.. كنت أصدقه، للحظة أحسست بالرغبة في مشاركته الحماس.. الذهاب معه حيث يتمنى الذهاب.. الموت في رأيه لا يساوي الخوف منه.. الموت الذي يصفه موت آخر.. موت محبب.. ((حتى الموت لما تحكي عنه يا سيد يكون حبًّا)) من أجل البلد.. لم أحك لك كل شيء.. ما كنا نعمله على أيامنا من أجل البلد.. كنا نواجه الموت مع الأفندية وأولاد مصر.. نهتف ونحمل الذين يتساقطون بيننا.. نحملهم ونظل نهتف.. وعبد الحميد لما سقط حملوه وظلوا يهتفون من قيعان الحناجر وكنت ما زلت صبيًّا خوافًا.. حماسك أكبر منك يا سيد.. أيامنا كنا نعمل ما نعمله ولا نبوح.. أحيانًا أقول لنفسي إنكم تتكلمون كثيرًا.. ترى هل تقول للناس مثل ما تقوله الآن؟ أحسب أن لا شيء يعجبك أحيانًا.. ربما تخاف.. أنا جربت الخوف.. لكنه لم يستمر معي.. اسكت يا سيد.. ربما تسكت أنت أيضًا لما تخرج من هنا وتواجه الدنيا.. أستطيع أن أحارب لكن القدرة هزيلة.. لا يهم الموت.. الكلام الذي أسمعه منك يجعل الدم يفور ويغلي، أنت تجعل من الموت قيمة ومن الحروب ضرورة، من غيرها تفقد الحياة معناها.

ولما سافر سيد لم أكن خائفًا عليه.. حتى لو حارب.. لو قالوا إنه مات ما أحسست بالحزن المُر.. ربما أحزن لكنه يكون حزنًا خفيفًا على القلب يجعلني أتباهى به.. وأنا الذي حسبته عربيدًا ويتسلى ويلعب ويشرب ويحب ويتميع كل يوم أكثر من اليوم الفائت.. حسبته ولدًا تائهًا بلا هدف.. قلت له في سري: ربنا يحميك ويهديك يا سيد.. ونمت.. أسترجع أيام القدرة والحماس وإسماعيل.

* * *

وعرفت طعم الفرح ليلة شوق.. أبي بجلالة قدره كان مبهورًا، يزغدني والضحكة تملأ وجهه المبسوط الذي سرح في عوالم بعيدة..

يقولها:

- والله صبرت ونلت يا وله.. دي تسحر العابد.

وعمي إبراهيم يبربش بعينيه متصنعًا، كأنه يواجه الشمس ويطل إليها فأضحك مع الناس.. يقول لأبي بصوت عالٍ:
- وشرف المصطفى يا عبد القادر يا خويا اللي حدانا ما هم حريم، دول جريد نخل منصوب هياكل.
ويسهِّم أبي ويقول وهو يلتفت لبرهومة في حنو:
- عقبالك يا وله.. دي ليلتك حتبقى ليلة.
ويضحك برهومة وكأنه لا يهتم بما يقوله أبي ويكتفي بفرحة الليلة.. ويتابع أبي ما كان يقوله:
- تبارك الخلَّاق.. تقولش لهطة قشطة.. عقبالك يا برهومة وتكمل الفرحة يا ولاد.
ويمسك عصاه القصيرة ويبدأ الرقص.. ((هكذا أنت دائمًا رغم كل عنفوانك وقسوتك تبدو طفلًا يتراقص في الأفراح كأنما يبحث عن الفرحة بأي شكل)).. والضجيج يرتفع.. أرقب شوق بطرف عيني في ثوبها الأبيض.. يكشفني برهومة ويقول بضحكة: اصبر.. وأنا لم أكن مصدقًا لكل ما يدور حولي.. كأنني أحلم.. رجالنا ورجال شلبي يتسابقون في إظهار الفرحة.. كأنما الكَفْر كله يغني من أجلي أو من أجل شوق أو من أجلنا سويًّا.. مشوار الزفة كان طويلًا من دارهم إلى دارنا.. حبات الملح تتساقط فوقنا والزغاريد والغناء.. وحبات الملبِّس أيضًا تتساقط فيتخاطفها الأطفال.. وأصوات البنات البكر تلعلع بدلال:

كتبوا كتابك يا نقاوة عيني
والطشت فضة والمعالق صيني

ولما وصلنا المندرة جاء عمي إبراهيم وشد امرأته فاستجابت لدعوته وهو يدفعها ويقول:
- هزي طولك يا ولية خلينا نفرح.. دا انتِ ندراها لحسن.
وأبي يدخل الحلقة الضيقة ويتلاعب مع عمي إبراهيم بالعصي في ود، ولما يخرج أبي يبدو عمي إبراهيم محتارًا قبل أن يكتشف امرأته التي يبدأ في ملاعبتها وكأنه قرداتي يلاعب قردًا وسط الضحكات والتهليل وزوجته لا تدري سبب الضجيج ولما تكتشفه تكف عن الرقص فيزداد الضحك.. وشوق تضحك كأنها طفلة تلعب في مولد أو تتفرج على أراجوز مضحك.. وتنظر إليَّ خلسة.. هذا هو الفرح بحق.. الفرح لما يعيش في القلب يجعله خفيفًا يوشك أن يطير.. الفرح لما يشمل كل الناس من حول النفر فلا يحس بوجود شيء ينغص عليه اللحظة، وتسللوا من المندرة وفاتونا معًا.. الوجه بدر والقوام ملفوف والبسمة حيية مرتاحة على الملامح ومتوجسة في سكون.. وبريق العينين ينصب عليَّ وحدي ويحكي فرحة القلب الصغير.. والصوت نغم هادئ خجول خالٍ من الجسارة.. ((لهم حق في صب نظرات الغيرة منكِ يا شوق)).. وأنا آخذها بجواري لم يكن في الدماغ شيء غير الارتياح.. ارتياح لم أجربه أبدًا.. والصباحية لها لون جديد.. لون حلو.. وأنا آخذها معي في العربة المخصوص إلى مصر وكأنني أؤكد لنفسي أنها صارت لي وحدي.. والحجرة كم كانت فسيحة في نظري.. كأنما انتقلت الجدران وأصبحت هي العالم كله.. الدنيا كلها ملكي وطوع يدي.. ((قال جدي مصطفى: الحريم دنيا لا لها أول ولا آخر)).. صحيح.. كان يقصد شوق.. وأنا أهمس لها: نوَّرت مصر.. وهي تطرف برموش عينيها فتغطيهما خجلًا، وأنتظر حتى تفتحهما لأطل إليهما.. ((لن أجعلها تخرج أبدًا من البيت.. حتى لو رجعت الكَفْر فسوف أحجبها عن العيون ولا أدعها تخرج ليراها غيري)).. والأيام الحلوة.. أبدًا.. حتى الساعات كانت تفوت

علينا وأنا تائه.. وساعة الجيب التي اشتريتها كانت تكذبني كلما سألتها عن الوقت الذي فات منا.. وطعم ما كانت تصنعه وتقدمه إليَّ ما زال على طرف اللسان.. أستعيد حلاوته كلما أردت.. حلاوة مخزونة لا تنفد أبدًا.. وأنا أحاول تخويفها لما شفتها تنظر من النافذة فتنكمش مدركة أنني لن أضربها مهما حصل لكنها تتصنع الخوف باطمئنان.. تقول: كنت أنتظرك.. والدكان نسيته.. حتى إسماعيل نسيته.. لا شيء إلا رغبتي في البقاء معها.. أضاحكها وأسليها.. ألاعبها كما كانت تلاعبها أمي.. وفي الدماغ فكرة وحيدة ورغبة وحيدة.. شوق.. حتى لما تنام قبلي أظل سهران ساعة أنظر إليها وأتسمع أنفاسها الخافتة وأقول لنفسي إنني دخلت الجنة.. وأسأل نفسي إن كان من الممكن أن أخرج منها يومًا.. ((وحتى لو جاء إسماعيل وأخذ الدكان فسوف أرجع إلى الكَفْر وأعيش سلطان زماني في أرضنا مع شوق ففيمَ الخوف)).. وكلما أتوانى عن فتح الدكان في الصباح الباكر تصحيني وتدفعني في رقة وتقول: اذهب.. ولما أتكاسل متدللًا وكأنني طفل تقول لي: إن الرزق يفوت على الدكاكين في الصباح الباكر ويغضب من الأبواب المسكوكة.. أسألها: مَن علَّمك هذا؟ تقول: أبي.. وأقول لها: طيب أنزل بشرط أن يكون الغداء حلوًا.. فتسألني إن كانت تعمل شيئًا لا يرضيني.. فأنفي، وأخرج.. ولما أخرج من الشقة أكون فرحان غير عامل حسابًا للشغل أو شقاء اليوم.. كل الأشياء أيامها كانت تتم وأنا مرتاح.. ولما يجيء الظهر أرجع وأخطف لقمة معها وطعم الأيام على طرف اللسان.. وصوتها في طبلتي الأذنين ما زال.. وكأنه صوت لا يعرف الموت أو الغياب.. وما زالت أطراف أصابعي تستعيد نعومتها وطراوتها.. وكل شيء ما زال في الدماغ صاحيًا.. حتى الدموع التي كانت تنسال على خديها دلالًا أو لومًا أو شكاية.. كل شيء ما زال.. أستطيع استعادته متى أشاء.

ومرَّة رجعت البيت ملهوفًا فوجدتها تنتظر.. قلت إنها كل مرة تنام ولما أرجع أصحيها لتحط العشاء ونتعشى.. قامت وغرفت الأكل وحطته ولم تجلس معي لتأكل.. نظرت إليها وقلت لها: كلي معي يا شوق.. قالت: لا.. عجبت وقمت إليها أسألها عن السبب فقالت وشيء كأنه الخجل يرف على وجهها:

- مليش نفس للطبيخ.

وعجبت.. قلت لها:

- كلي حلاوة جبتها معي.

فقالت:

- لا.

سألتها عن السبب.. قالت:

- عايزة فسيخ.

قالتها بسرعة والدم يوشك أن ينضح فوق الجلد الأبيض الصافي.. أخرجت الساعة ونظرت إليها فوجدتها تقترب من منتصف الليل.. ((نصف الليل وتطلب للعشاء فسيخًا.. ربما مجنونة، ربما عقلها خف.. أو.. أو بطنها ثقلت.. تمام.. بطنها ثقلت)).. نظرت إليها مدققًا أستفسر منها عما دار في رأسي فأطرقت.. رفعت ذقنها ونظرت إلى الوجه فغطت برموشها عينيها.. همست لها بود: صحيح؟ أجابت: أكثر من شهرين.. أخذتها في حضني وأنا فرحان بها إلى حد الهوس.. ((تتوحمين يا شوق.. أنت تتوحمين؟)).. آه لو كانت المدينة صاحية مثلنا لدرت أشتري لك طلبك وأقول لكل الناس: ((شوق حملت)).. قلت لها: الصباح رباح يا شوق، من عيني.. وبان عليها الفرح..

وزغردت في القلب فرحة.. ورقصت على الشفاه أغنيات رحت أغنيها بصوت خافت جنب شوق.. وهي تضحك مني فرحى هي الأخرى في محاولة أن تتخلص من كسوفها.. ذلك الكسوف الذي غطى الملامح ولبد على الوجه وتركز في أغوار العينين وامتد لكل البدن.. كانت ليلة.. ودرت في الصبح أبحث عن طلباتها وأشتري بكثرة وأتمنى أن تمضي الأيام بسرعة.. بسرعة.. لأراه أو أراها تلك التي تحركت في بطن شوق.

قلت للشيخ سعد لما جاء:

- ابعت أم علي لشوق.

وسألني عن السبب.. فقلت له وأنا فرحان.. فانبسط وقال أول ما أوصل البيت أبعثها وأضاف: واجب تعرفهم بجواب.. قلت أكتب لهم الجواب وأسجله لهم اليوم.. وكتبت الجواب وسجلته ورحت أشتري خزينًا للبيت وأزود.

دخلت الشقة فوجدت أبي وبرهومة وأمها وأباها.. سلمت عليهم وباركوا لي ودعوا لشوق:

- ربنا يجبرها وينتعها بالسلامة.

وكأننا نصبنا الفرح من جديد.. أبوها قال لها مرَّة:

- ما تجيبي يا بت صيغتك دي أبيعها وأشتري لك بها عجول أسمنهم لاجل العيل اللي في بطنك ما يبقاله رسمال ينفعه.

نظر أبي إليَّ وعيناه تقولان: لا.. وأنا لم أرتح للفكرة.. الخير كثير ولا لزوم لبيع الذهب.. شوق حلوة وربما أشتري لها أكثر.. وهي سألتني بنظرة وفي عينيها رغبة لتنفيذ كلام أبيها.. قلت لها: لا.. قالت:

- لأ ليه؟ دي على ما تدرو السنة يبقى لنا مراح.

فتحت الدولاب وأخرجت الفلوس التي كنت أحتفظ بها لإسماعيل ووضعتها أمامهم فبرقت عينا عبد الستار.. قال:

- حاطط الفلوس في الدولاب؟ دا القرش صياد.. الفلوس تجيب فلوس.. هاتهم يا جدع هاتهم.

قال برهومة:

- لِمْ فلوسك يا حسن ورجعها مكانها.

والتفت إلى عبد الستار وقال:

- لما يرجعوا يبقوا يشتروا اللي همَّ عايزينه يابا عبد الستار.

وسكتنا لحظة.. لكن شوق قطعت الصمت وخلعت الذهب كله وقدمته لأبيها وكأنها تصفعني.. أخذه الرجل وقالت هي:

- إنت حر في فلوسك وأنا حرة في صيغتي.

قلت لها البسي ذهبك فلم تطاوع.. لوت بوزها.. وأنا أحسست بخبطة تقع على دماغي.. وزنَّ دماغي كأنما سكنته خلية نحل.. ((قلت لها خذي الذهب فلم تطاوع.. أبي قال إن عبد الستار يبيع أرضه كل يومين فدان.. ربما يلعب بنا وتكون مشاكل.. مالنا بالمشاكل؟ واجب تسمع الكلام)).

قال أبي وكأنه ضاق بمعارضتها:

- ملكيش حق يا شوق.

لكنها تحمست لفكرة أبيها وردت على أبي بطريقة ساخرة.. كأنها تقول له: كن في حالك ودعنا في حالنا.. وسكت أبي.. للمرَّة الأولى أراه منكسر الخاطر ولم أملك إلا الخروج من الحجرة، فتبعني

برهومة وأبي وخرجنا وقعدنا في القهوة القريبة.. ورحت أدخن الجوزة وأبي يتأفف وإن حاول تهوين الأمر عليَّ.. قلت لنفسي: ((كسرت كلامي وكلام أبي فلا أمان لها)).. قال برهومة وكأنه يشير إلى أمر خفي علينا:
- عبد الستار دكانه فضي وعايز يملاه.
تحمس أبي:
- رزق الهبل ع المجانين.
كانت اللحظة ثقيلة وغبية.. وثرثرنا حول عبد الستار شلبي الذي باع أرضًا ورهن أرضًا ويطمع في خلق الله.. ولما رجعنا كانت شوق غاضبة من خروجنا دون أبيها.. قالت لي:
- بقى تفوتوه وتطلعوا؟ مش مالي عينكم يعني؟
وفضلت السكوت.. وقبل أن يمشي عبد الستار زن على دماغ البنت وأخذ الفلوس أيضًا ولما قلت له يتركهم، عملها نكتة وظل يلاوعني ويقول إنني خائف على الفلوس منه وإنني أخوّنه، وبعدها حط الفلوس أمامي وقال إنه كان يمتحنني وكان يحسب أننا أصبحنا ((واحد)) لا فرق بيننا أبدًا، لكنه لم يخرج الذهب ويرجعه لشوق.. وسافروا.. وكانت شوق غضبانة بصورة غير مفهومة وحاولت أفهمها أن على الواحدة أن تطاوع رجلها ولا تهتم بأبيها، فلم تفهم وراحت تبكي كلما كلمتها وأحيانًا تصرخ ووجهها الغاضب يتهمني.. قلت لها إنني رجل ولست ((شُرَّابة خُرج)) فخاصمتني.. كان خصامنا طويلًا وقاسيًا ومُرًّا.. قلت لها إن كان بسبب الفلوس أبعثها الكَفْر.. قالت إن حالة أبيها متعسرة ويحتاج لمساعدة، وإنني أحتفظ بما أحتفظ به بينما لا أرغب في مساعدته، فقلت أبعث له ما يطلبه.. وبعثت نفرًا من الكَفْر بمبلغ كبير لعبد الستار من أجل إرضاء شوق وأفهمته لا يُعرِّف أبي أبدًا، فسافر بالمبلغ وحسبت أن شوق سوف ترضى وتنسى الخصام.
قال عسكري مصري جاءني الدكان: صاحبك إسماعيل محبوس في القلعة وكلفني أعرفك لتزوره.. قلت له: طيب.. وجلست أفكر.. ((ما عدت أساوي شيئًا يا إسماعيل.. أنت سلمتني الأمانة فخنتها.. صرفت المكاسب ووزعت الباقي، كل ما قلته لك عن الأصل كذبة.. كيف أزورك والجيب خالٍ من نصف حقك؟)).. وقلت لشوق أسافر يومًا وأرجع.. ولما قابلت عبد الستار قال: فلوسك في السوق وانتظر لما أجمعها بعد أسبوع وأبعثها لك.. ورجعت أنتظر.. لكن الأسبوع فات وأسبوع آخر فات دون أن يصلني شيء فجعلت ألوم نفسي لأنني طاوعت شوق وأعطيته فلوس الخلق يتحكم فيها لما أحتاجها.. بعد الأمان جاء الخوف، الخوف من المستقبل.. من مواجهة إسماعيل.. من عبد الستار.. من شوق نفسها.. من نظرة اللوم في عيني إسماعيل.. أنا رجعت مصر لأسلم له الدكان والإيراد وأرجع.. أصبحت لا أسوى مليمًا في نظره.. ((اسود وشي في عينيه لأنني لا أقوى حتى على زيارته في الحبس)).. قلت لها:
- كنت زعلانة لأجل أبوكِ.. آهو ضحك علينا وسوّد وشي.
ولكنها سكتت أولًا قبل أن تدافع عن أبيها:
- بكره يرجعهم لك.. هو خطاف ولَّا نصاب؟
قلت لها لو كنتِ حافظتِ على الذهب كنا بعناه وتصرفنا، فقالت إنني أبحث عن غلطة أمسكها عليها وإنني أكرهها.. ((أكره أن أسلمك رقبتي فتسلمينها لأهلك.. أن أكون ((شُرَّابة خُرج)) في يديك.. أن يعرف أبي تفاصيل الحكاية فيركبه عفريت)).. قلت:
- أراهن أنه ضيع الفلوس.. بقاله شهرين أهه ولا إحم ولا دستور.

وضافت هي بكلامي.. قالت: إن العيشة معي لا تحتمل وإنني أضايقها كل يوم بهذه الحكاية.. ومرَّة رجعت فوجدتها تلم أشياءها فلم أمانع.. قلت تغضب وربما يحس عبد الستار بالخطر فيتصرف في الفلوس وأزور إسماعيل.
وأخذتها الكَفْر.. أوصلتها لدراهم وما حسبته لقيته.. أبوها لم يكن بالكَفْر.. أبي قال إنه طفش فلم أصدقه.. قلت له أنا رجَّعت شوق لتلد في الكَفْر.. قال باقي لها شهرين أو أكثر يا حسن.. قلت ترتاح يومين هنا عند أمها.. وسافرت.. وأخذت في الانتظار لأخبار عبد الستار والفلوس دون أن يصلني شيء.. ونسيت كل شيء إلا إسماعيل.. ومرَّة جاءني جواب من أمي تقول لي إن شوق خلفت ولدًا ففرحت في قلبي لكنني أحمل هم إسماعيل.. ولما جاء عسكري آخر قلت له خذني لصاحبي.. ودخت السبع دوخات حتى وصلت لإسماعيل، قال إنه يحتاج فلوس وإنه بعث إليَّ أكثر من مرسال ولا أسأل.. فلم أعرف كيف أرد عليه.. كان ممقوتًا ومغمومًا رغم محاولاته أن يكون مرحًا.. كدت أبكي من أجله لولا الحياء.. قال: ولا يهمك شوف العسكري وراضيه.. فأعطيت العسكري نصيبه وأخرجت كل ما كان معي ساعتها وأعطيته لإسماعيل فبان على وجهه شيء كالشك أو العجب.. قلت له: لم أعمل حسابي هذه المرَّة وبعد يومين أحضر لك.. قال: أجر لي محامي يا حسن.. وأضاف: حبسوني لمجرد الشبهة.. لم يلاحظني أحد.. مجرد شكوك لوجودي في المنطقة.. أمسكوا خمسة آخرين وأنا لم أعترف.. كلها شهرين وأخرج من هنا.. إنما أكلت كذا علقة ولم أعترف أبدًا.. همس محاولًا السخرية لكن ملامحه فضحت ما كان يحسه من مرارة: هدوا عافيتي أولاد الأبالسة.. ما زلت أذكر الذعر في أغوار العينين.. محاولة السخرية تتحول إلى نبرات مريرة ومطحونة وهشة.. ((أنت رغم السجن تتكلم برجولة.. أنا عيل.. أحس بالعفونة في داخلي ولا أستطيع الهرب.. أحس بالنذالة والخسة)).. وخرجت من القلعة وقطرات العرق تبللني وتجعلني أحس برعشة لم أحس مثلها أبدًا.
رحت لأمي وقلت لها كل حكايتي مع عبد الستار وشوق.. قالت اصبر على البنت يا حسن لأنها صغيرة ولا تدرك.. لا تكن مثل أبيك غشيمًا.. قلت لها: والعمل؟ قالت: رح لها.. قلت لها: روحي أنت لأنها كانت غضبانة وجسي نبضهم وعرفيني.. ولما راحت رجعت وتقاطيعها هادئة.. دائمًا لما يحصل شيء لا يرضيها ترسم الهدوء على تقاطيعها وكأنها لا تهتم أو تقول لمن يراها: شفت كثيرًا فلن تهزني الأشياء البسيطة.. سألتها قالت: منعوها عني.. وقالوا: من جابها لنا يأتي ويأخذها.. واغتظت منهم ولكن أمي هدأت خاطري وقالت: حتى لو ضايقوك.. البنت خلفت ولدًا فلا تخرب بيتك بنفسك وصالحها.. ولم يعجبني كلام أمي.. رحت لأبي.. قال والغل ينضح على رموش عينيه: ناويين على الشر.. لو كانوا يرغبون في الصلح لرجعوها مع أمك.. قلت إن كلام أبي معقول.. كنت أرغب في رؤية الولد.. وأسأل نفسي إن كان حلوًا مثل شوق.. قال أبي: بدأوا بالشر ويرغبون في إذلالنا على آخر الزمان.. نجوم السماء أقرب لهم، وراح يتندر على جماعة شلبي كلها وعلى أبيها الذي لازمه الفقر فطفش من الكَفْر، وتكلم كلامًا كثيرًا عن الأصيل والخسيس وأنا أفكر في الولد.. أكتفي بالنظر إلى وجه أبي وأرى في عيني برهومة عجزًا عن المشاركة في الموضوع يجعله ساكتًا وغير قادر على الكلام.. قال أبي: نبعث لهم لأن كرامتك من كرامتي.. لن أطيق عليك كلمة تجرحك.. أرسلنا النفر فعاد وقال شتموني وقالوا ابعث حسن.. قال أبي وهو يضغط على طرف العصا: لو رحت لهم طلقها أو لا تكون ولدي طول العمر.. أضاف: زودوا العيار وخلوها خل.. عيونهم قارحة ولا يستحون وكأنهم ورثوا الكَفْر عن جدودهم.. وحلف

أن يربيهم ويكسر أنوفهم التي بدأت تشمخ، كنت ألمح في عيني أبي شيئًا كأنه التهور المحبوس.. نوعًا من الذعر والتوجس الغريب.. كان يشع من عينيه شعاع بريق صاخب لا يتهيب لكنه لما يتكلم عنهم ينزاح ويحل مكانه شيء كالتوجس.. شيء جعلني أتيقن أن جماعة شلبي أصبحت شيئًا آخر غير زمان.. أنهم ربما وقفوا على حيلهم، أن جماعتنا أصبحت أقل قوة، ربما بدأت تتهالك وتتهاوى.. لم يعد لنا إذن مركز الصدارة؟ خفت أن أجر أبي إلى العراك معهم، فأخذت برهومة معي وقلت له: نذهب وأمرنا لله بدل المشاكل.. وسرنا دون أن يعرف أبي وجهتنا الحقيقية.. قالت أمها إنني كسرت خاطر البنت.. قلت لها: أشوف الولد.. بدأت المندرة تزدحم بالرجال.. كأنما انتظروا دخولنا وبدأوا يتسللون إلى المندرة.. برهومة راح ينظر إليهم باستهانة وهم يتزايدون ويمسك بالعصا باستهانة فكرتني بنظرات عبد الحميد.. قال عمها: دخلنا بالمعروف ونخرج بالمعروف.. سكت.. قال: فلوسك بدل العفش والمؤخر.. قلت: هاتوا بنتكم أسألها.. قالوا: عملنا حسابها.. ((لو جاءت ربما تقول أرجع من أجل الولد.. لو قالتها أضعها في ننى العين ولا أفوتها ولو كانوا ألف رجل)).. جاءت تحمل سيد على يديها، سألتها وفي نفسي يقين بأن غضبتها راحت: رأيك يا شوق؟ قالت: أخلص.. سمعتها غريبة.. زام الرجال استحسانًا.. قلت أحمي نفسي من نظرات الشماتة: أنا مستعد إنما بشرط، آخذ الولد معي.. قالوا: موافقين.. اقتربت شوق مني بالولد، نفس الخطوات العفية الجسورة والتقاطيع الحلوة يغطيها غضب لا أعرف من أين كان ينبع.. غضب وتحدٍّ غريب على التقاطيع، كأنهم رسموه على وجهها في شهور الغياب.. اقتربت مني أكثر ومدت يديها بالولد.. أخذته.. ((تطلبين الخلاص باللسان والفعل أيضًا يا شوق؟ هانت عليك العشرة حقًّا؟ حتى الولد ترمينه وكأنه لعبة؟ الكلبة في دارنا كانت تنهش لحمنا لو اقتربنا من خلفتها.. طيب يا شوق...)).

قال عمها متسائلًا: خلاص؟ رميت عليها اليمين.. خرجت وقلت لأمها عند باب المندرة: ورقتها تصل بالبوستة.. كان سيد في يدي.. قطعة لحم طرية لكنها دائمة الصخب والحركة.. كأنه أحس بما جرى فاحتج عليه.. برهومة جنبي ينظر إلى الكل في تحفز وكأنه ينوي العراك، أو ربما يقوم بدور الحماية لي.. احترت فلم أعرف إلى أين أتجه.. أخذته إلى أمي فتناولته مني وهي تبسمل.. عرفت الحكاية.. فقالت: حرام عليك.. حاولت إفهامها أنني لم أملك إلا تخليصها.. فقالت: مصير المياه ترجع لمجاريها.. لم أصدق أن المياه سوف ترجع.. كنت مغمومًا ومقهورًا.. حتى خطواتي في دروب الكَفْر ناحية دارنا كانت مهمومة.. أكره حتى نظرات الخلق وأقول إنهم يعرفون ما حصل ويشمتون.. ((عملتها يا عبد الستار؟ لكن شوق ترمي الولد وكأنه غريب عنها.. ربما ليس ابنها؟ ابن من إذن؟ ابنها، ابني كنت أحسبه قادرًا على صلحها.. حسبتها تندب وتلطم ولا تفوته.. تتمرغ على التراب لو انتزعوه منها.. قدمته إليَّ بنفسها، ربما أهلها فرضوا عليها أن تعملها.. لكن أي أم هذه؟ مهما كانت صغيرة)).. هل من الممكن أن يعيش هذا الولد ابن الشهور الثلاثة؟ قالت أمي: لا تشغل بالك وكن في حالك.. شف مصالحك وأنا أدبر أموره.. يحلها الحلال.. ((لو عادت المياه إلى مجاريها حقًّا.. لو عادت من أجل الولد.. وشوق.. شوق أيضًا.. أيام الفرح قليلة وأنا حسبت أن الدنيا راقت لي.. الدنيا لا تطاوع.. من يحسب أنها طاوعته مغفل)).

* * *

هذا الولد مجنون.. يحكي لي عن البنات في الجامعة وكأنه أهبل.. يحب.. ما لي أنا؟ أيامنا لم أقدر حتى على ذكر كلمة الحب لأبي.. بنت اسمها ((سالي)).. اسمها عجيب.. زمن عجيب.. أقول له:

التفت لدروسك.. فيسألني سؤاله المعتاد: هل خيبت أملك مرَّة واحدة؟ أقول: لا.. ((آخر سنة يا سيد فلا تجعل الأعادي يشمتون فينا.. خذ بالك من روحك يا ولد)).. يضاحكني وكأنه لا يقول شيئًا غريبًا.. دائمًا لما يعرف بنتًا يأتي ويحكي.. رحت معها السينما؟ طيب.. مسكت يدها؟ هائل.. تحبك؟ طيب.. أنت مجنون.. تحسبني صاحبك؟ ربما أنا بالفعل صاحبك.. لست أعاملك كأنما أنت ابني.. الابن يخشى أباه.. لماذا تجرؤ على قول كل شيء، أنا تركت لك الحبل على الغارب.. أحسن.. أيامنا كنا نخشى الظهور أمام أعمامنا، مجرد الظهور.. نشتغل ونتعب ولا نرفع العيون بالمطالب الهزيلة.. كنا نكرههم فعلًا.. أنت لا تكرهني.. ما دمت تحكي كل شيء فلا يمكن أن تكرهني.. زمانكم تغير عن زماننا كما تقول.. في عرفنا كانوا يقولون عن هذا الكلام: قلة أدب وعدم رباية.. أيامكم تسمونها صراحة.. من يوم أن كبرت عاملتك كأنك أخي.. أدعك تتصرف كما تريد.. أكتفي بالتحذير وأنا أحسدك على الجسارة في القول.. حتى عن لياليك العجيبة مع أصحابك تحكي.. كنا على خطأ لأننا كنا نخشى الكلام مع من هم أكبر منا كأننا سنقع في بئر غويط.. كنت رجلًا ولي ولدان وأخاف نظرة من أبي.. حتى بعد أن مات ظل خوفي منه في داخلي.. حتى اليوم لما أذكره أخاف.. أتوهم أنه سوف يخرج من القبر ويأتي ماسكًا شمروخه ولا يعجبه حالي فيضربني أو حتى يلومني.. علموك في الجامعة أم علمتك السماحة أن تكون جريئًا معي؟ أنت حر.. قلتها لك ألف مرَّة.. ما دمت تنجح فأنت حر.. أنا لن أتمكن من مراقبتك مهما حاولت.. ما دمت لم تخيب أملي فأنت حر.. كل مرَّة أيام الامتحانات أشتري زجاجات الشراب والسُّكر وأنتظر وصولك.. مجرد وصولك أيام النتائج لأوزعه.. أحيانًا لا أسألك، أكتفي ببل السُّكر ووضع الشراب وتوزيعه وأنا أقرأ في عينيك فرحة النجاح، أبدًا لا أخاف عليك.. شيء ما يجعلني أنتظر نجاحك وكأنه شيء لا بد أن يحصل، لم أتصور مرَّة أنك سوف تفشل في الدراسة، كل النصائح أداء واجب تفهمه أنت دون قول أحيانًا.. قلت إنها تحبك وتحبها.. طيب.. الامتحان على الأبواب.. كأنك تذهب إلى فسحة وتعود، لما تنجح تزوج هذه البنت.. لكن عرفني.. على الأقل عرفني.. لما تشتغل تتزوجها.. أحضر أنا مصر وأخطبها لك.. تحبك حقًّا؟ شوق أحبتني أيضًا.. حبنا كان له طعم آخر.. حبكم غريب.. مفضوح ومكشوف ولا يدعو إلى الخجل مثل حبنا أيام زمان.. قلت له: ((قم ونم، وأعطيته المصاريف في الصبح وسافر.. بعد شهر سوف تأتي إذن.. مع السلامة يا سيد)).

* * *

ولما نزلت الكَفْر شفت الولد معلولًا ونحيلًا كأنه عود حطب أصفر.. غطيته وتركته عند أمي.. رحت لأبي.. حاولت إفهامه حكايتي مع إسماعيل.. لم يفهم.. قال: ارجع يا حسن.. قلت له يعطيني مبلغًا أخرج به من الورطة قبل العودة.. قال: اسكت يا حسن ولا تقلب المواجع.. قلت: أنا في عرضك.. فبان عليه عدم الارتياح لكلامي.. قال وكأنه يهرب من الموضوع: الدار داركم وأنا أحافظ عليها لكم، لا عرضي ولا طولي.. أخوك برهومة، اسأله.. اطلب منه.. ((أطلب من برهومة؟ أنا الكبير وأصغر؟ تصغرني إذن؟ ما دامت دارنا وغيطنا وأنت حي فماله برهومة؟)).. قلت: الدار مستورة وثمن بهيمة يخلصني..

قال يداعبني:

- يا بت يا مبروكة.. هي المواشي باسم مين؟

قالت ببراعة امرأة أب مقتدرة:

- النبي حارسه برهومة.

قلت لما يرجع برهومة.. لكنه لما رجع جلس ساكتًا.. نظرات أبيه أسكتته بعد أن ظللت أشكي.. مبروكة ظلت ((تتنقور)) عليَّ وتتسلى وتلعب بأعصابي، قلت لها اسكتي فلم تسكت.. شتمتها بعد أن فاض بي الكيل.. قال أبي:
- اتشطر على جماعة شلبي اللي...
قال عبارات قبيحة فجعل الدم ينتفض في عروقي والهم يثقل على قلبي، تكلمت مبروكة.. قلت له: سكتها.. فضحك.. قلت دون أن أدري:
- سايبها تتنقور عليَّ وقاعد مدلدل ودانك؟ لها حق تركب وتهز رجليها.. ما تسكتها يابا.
نظر إليَّ بغل ورماني بقُلة كانت بجواره.. لم يعجبه كلامي.. خابت القُلة فانكسرت في الجدار وطالتني حصوة أو حصوتان.. وامتدت يده ناحية الشمروخ.. من جنبه، أفلت قبل أن يمسكه.. خرجت من باب المندرة ودخلت القاعة.. سنكرت بابها من الداخل وضربات الشمروخ المجنونة تجعلني أسرع وأضع الدكة خلفه والباب يهتز بفعل الضربات.. والكلام الذي خرج من فمه كان لمجنون جريح يرغب في تحطيم شيء يحول دونه باب لا تكسره الضربات رغم قوتها.. والدار ازدحمت بالناس.. قال أبي بصوته المهدود من كثرة الضرب:
- هاتي الفاس يا بت.. النبي لاحش رقبتك.. بقى حسنة وأنا سيدك يا اللي خيبتك ما حصلتش حد.. ما تشوف جماعة شلبي عملوا فيك إيه يا عِرَّة.
استمر يلعن ويخبط.. يسب ويخبط وأنا أرتجف.. حتى سمعت صوته يبتعد.. كأنما أزاحته قوة جبارة خفية وأبعدته عن الباب.. قال عمي إبراهيم من وراء الباب: افتح يا حسن.. خفت.. قال بود: افتح يا ولد.. أبوك خرج من الدار.. فتحت بحذر.. قال متكدرًا:
- ولما بتخاف بطوّل لسانك ليه؟ إنت انهبلت يا وله؟ أخذني من يدي.. مشى بي خارجًا إلى داره.. قال هامسًا:
دا راجل دماغه ناشف يا حسن.. مبروكة لحساه في نافوخه بالكتابة.. كل يومين تكتب له عمل.
ظللت ساكتًا.. ولما وصلنا البوابة كان أبي جالسًا مع بعض الرجال على المصطبة.. لما شافني قام فحاولوا إجلاسه فلم يجلس.. ظل منصوبًا والشمروخ في يده والدم ينضح في عينيه.. قال:
- ما شوفش وشك هنا يا صايع يا ابن الكلب.. إني بريء منك ليوم القيامة.. ولا حتى تمشي في مشهدي.. فاهم؟ ولا حتى تمشي في مشهدي.
وتواريت خلف عمي إبراهيم وهو يشدني من يدي لأبعد عنه.. قال عمي:
- عوضك على الله.. ما عادش شايف غير مبروكة ولا سامع غير مبروكة.. وانت غلطان.. حكاية عبد الستار عملتها من دماغك وهو زعل.
أفهمني أن أبي عمل شيئًا غريبًا بعدها.. راح عند جماعة شلبي بالشمروخ يطالبهم بالفلوس التي أخذها عبد الستار.. قالوا: أقصر الشر.. فاستمر يلعنهم ويتهمهم بالسرقة والخسة.. ولما غلبوا منه التفوا حوله بعصيهم وشماريخهم وانتظروا أن يضرب.. ولكنه لم يضرب، اكتفى بالسب واللعن لأنه كان وحيدًا.. خاف أن يضرب.. وبعدها فتح لنفسه طريقًا وسطهم وقال لهم: حدودنا البوابة لا تخطوها ولا تعدوا من دربنا أبدًا.. ومن يومها وهو مهموم من جماعة شلبي.. لم أهتم بالحكاية.. خاف يضربهم.. إذن فقد أصبح يخاف من جماعة شلبي.. قال:
- إللي تعوزه خده مني.

كنت خجلان من نفسي.. حزينًا من أجله أيضًا.. كأنني مسلم وقع في حارة يهود.. كأنني لص ممسوك في مولد.. كل النظرات التي شيعتني أقرأ فيها حروف الاتهام: خائب ولا يساوي شيئًا، جاب العار لأهله، قطعوه من أهله، مقطوع من ناسه، خائب، ضحكوا عليه جماعة شلبي.. خرجت من الكَفْر ورجعت مصر.. كل ما أفكر في إسماعيل يزيد الهم.. وسيد وشوق وأبي.. ظللت أحتفظ بالفلوس من أجل إسماعيل حتى جاءت الحكومة وأخرجتني من الدكان أنا والعمال وسنكرت الدكان وشمعته بالشمع الأحمر، وأنا لم أفهم أبدًا لماذا.. أسألهم فيقولون في نفس واحد:
- أمر النيابة العامة.
في الشارع من جديد.. لا أرض ولا دكان ولا زوجة ولا ولد.. قال ربيع الذي كان يشتغل معي في الدكان وكأن الأمر لا يعنيه:
- إللي بنى مصر كان في الأصل حلواني.
قلت له: أنت تتسلى والهم حولنا.. قال: أبدًا.. قلت: الدكان ضاع.. قال: ولا يهمك.. صينية كنافة أو بسبوسة نسرح بها وتبات مستورة.. ربك يقطع من هنا ويوصل من هنا.
مثل ربيع عملت صينية كنافة ودرت بها محمولة على كتفي.. حلواني بلا دكان، ومن بنى مصر كان مثلي حلواني.. ربما كان حافيًا وما زال لديَّ حذاء، كان عاريًا ولديَّ ثياب نظيفة أكويها وأغسلها.. أكل العيش لا يحتاج الكسوف كما قال إسماعيل مرَّة.. ما أكسبه يروح يومًا بيوم.
قابلني ربيع في العتبة.. قال: مسافر المحلة.. تعال معي، في الشركة طلبوا عمالًا، أحسن من اللف والدوخة.. قلت: أسافر معك.. سافرنا.. مصر أو المحلة كلها بلدنا، يحتاجون المئات فكنا بينهم.. عمال نسيج أو غزل لا يهم.. نتعلم.. نقف على الدولاب أو ندوَّر المكن.. نشم الهواء المشبع بذرات القطن المتطايرة.. تدخل أنوفنا وحلاقيمنا فتسدها ونبصق في البداية لكننا نعتاد.. نعتاد اللون الأبيض المشحون بذرات القطن في الوردية الليلية أو الصباحية فلا يهم.. آخر المدة نقبض وأبعث مبلغًا لأمي من أجل مصاريف سيد.. أحيانًا أشتري له قماشًا من الشركة.. وربيع يعيش معي ويبعث إلى أولاده في مصر أيضًا.. يقول أنقلهم بعد شهر أو شهرين لما تتعدل الأحوال.. أقول أجعل أمي تأتي هي الأخرى بسيد ونسكن وحدنا.. مكتوب علينا الشقاء من أجل اللقمة.. نظل نكدح هكذا لا نعرف رؤوسنا من أرجلنا.. كأننا جزء من ماكينة النسيج الكبيرة لكننا نتنفس.. نحلج أو نغزل.. يخصمون لنا أيامًا لما نتكاسل، لا يهم.. حتى لما أخذوني إلى ورشة النجارة وافقت.. قلت أشتغل.. أتعلم وأشتغل.. واشتغلت.. تعلمت.. صنعة نظر كما يقولون في الورشة.. ما عاد هناك شيء اسمه العيب في شغل البنادر.. قطعوني في الكَفْر.. مالنا حيلة غير أن نعرق ونأكل.. وجاءت أمي بالولد وعاشت معي.. من أجل الولد.. هو دائمًا مرضان.. أمي ترعاه لكنه لما يراني يشب ناحيتي.. يحبو.. يمشي.. ينطق الكلمات الأولى.. يزيح الهم الثقيل لما أرجع.. يداوي الجروح التي تتخلف عن شغل الورشة.. أفرح به لما ينطق الكلمات.. كلماته مكسورة لكنها حلوة.. يطلب المطالب الصغيرة: حلوى، قرش، صندل، لعبة، قطة.. أهتم بالولد.. ((أمك تزوجت يا سيد.. لو تعرف.. لم تصبر على روحها.. وفت العدة وتزوجت بسرعة)).. لو تنصلح صحته ترتاح أمي.. أمي فاتت بيتها ومعاشها وجاءت لتعيش معي في حجرة من أجل الولد.. لولاها لمات.. غدًا يكبر وأعلمه في المدارس.. لا بد أعلمه في المدارس حتى لا يدوخ مثلي.
* * *

يموت الموت أحيانًا ويحيا.. مات موت عبد الحميد وبرهومة وأبي أيضًا وكل أعمامي.. موت سيد لا يهدأ.. كلما دفنته رجع يطل من ركنه.. ينفض عن نفسه ستائر النسيان الرقيق.. يأتي في الدماغ.. أحيانًا أراه يحبو.. أحيانًا أراه يضحك.. أحيانًا أراه يبكي.. ويتكلم بحماس جديد.. يفكر أحيانًا في أمور أعجز عن فهمها.. لكنه يأتي.. يأتي يقلب الجراح والمواجع المدفونة تحت تراب هش يعجز عن إحكام تغطيته.

((في الدماغ.. مثل عبد الحميد.. ضربوه في الدماغ.. عبد الحميد راح قبل أن تأتي يا سيد.. كان مثلك حليمًا وطيبًا ويصعب تغيير رأيه في الأشياء وراح أيضًا.. قلت لك ابتعد عن الكَفْر لكنك كنت تكسر كلامي وتأتي.. رحت في شربة ماء.. أسأل نفسي: لماذا تخيروا الدماغ؟)).. محاولات النسيان تعجز.. حتى الذاكرة الضعيفة تعي ما جرى لسيد.. صادوه في الدماغ.. في الدماغ كانت الضربة.. الدماغ حيث العقل الصاحي والعينين البراقتين والبسمة على الشفاه تستخف بكل شيء حوله.. حتى مرارة الأيام وقسوتها.. كيف صادوه؟ ولماذا؟ قال صالح إنه سمع الطلقة فقام مفزوعًا من نومه.. سمع الناس في الكَفْر يقولون إن نفرًا مات، بعدها راح يجري حتى وصل إليه قبل عسكر البندر.. قال إن الدم كان ينزف من مقدم الدماغ ويغطي البشرة.. العينان ظلتا مفتوحتين، والشفتان منفرجتين عن بسمة ترف مستهينة.. ((وعبد الحميد أيضًا ظلت عيناه مفتوحتين وعلى تقاطيعه شيء مرتاح كأنه البسمة.. حقيقة كنت تبتسم يا سيد في تلك الليلة الساكنة؟ علام كانت الابتسامة يا سيد؟ من أجل اللقاء الذي كنت تسعى إليه أم أن فكرة خطرت في خيالك؟ ربما استهانة بالفاعل أو بالموت.. .أفلحت الضربة فلم تملك أن تعبس التقاطيع المبتسمة.. أسكتتك الضربة يا سيد؟)).. ما عاد يقولها: ذاهب إلى الكَفْر الليلة لأراهم.. ما عاد يأتي في بدايات كل شهر يتحسس بنظراته الأشياء كأنه يقيسها.. ويقول: يظهر أحوالك المالية مثل أحوالي.. يمد يده ناحيتي قائلًا: خذ ما تحتاجه.. ما كان لي حاجة لغيره.. كان يكفي أن أراه يأتي.. أسمع صوته.. أحادث الناس عنه.. من بعده لم يعد للكلام طعم.. عمن أتكلم؟ كان هو الدنيا والكلام والفرح وحتى غم اللحظة الذي يذوب كأنه سحابة صيف كاذبة.. تطوحها النسمة وتتبدد بفعل الضحكة.. بعده لم أعد قادرًا على الكلام أو النظر أو حتى التفكير في شيء.. في الدماغ.. مقدم الدماغ.. هل هي صدفة؟ هل رجع الإنجليز؟ جاءوا يأخذون مني ثأرًا قديمًا لم يسوَّ أبدًا! ماذا؟ هل جننت؟ من عملها؟ لو عرفته ما استطعت أن أفعل له شيئًا.. فقط أود لو عرفته.. أنظر إليه بالنظر الكليل مرَّة.. وأظل أكرهه بكل ما في القلب من قدرة على الكراهية تتولد عن الحسرة ما تبقى لي من أيام.. عملها جبان مقتدر، يخشى أن يواجه نظرة من عجوز مثلي، نظرة كليلة من نظر كليل لائم.. يا هذا الذي عملتها مهما كنت قلها واجعلني أغرس في لحم وجهك نظرتي وأموت بعدها.. ربما لو طال العمر أبصق فوق الملامح فاحتمل لأنها بصقة مُرَّة.. مُرَّة مرارة العلقم.. أمر من العلقم.. وأسمع أن ما حدث لعنة.. من صوتي الخافت المهزوم تنصب عليك، لعنة بلا رنين ولا أمل.. كم حيرني التفكير.. لطالما أسرح في عوالم بعيدة راغبًا في معرفة الفاعل.. مجرد معرفة.. لو كان لصًّا لسرقه.. لا لم يكن لصًّا.. ((ماذا قالت شوق؟ يقولون حزنت. وأي حزن يا شوق؟ صالح أرى في عينيه حزنه.. حسبته لن يهتم.. لكنه اهتز هو أيضًا.. وأن يا شوق ماذا كان طعم الحزن في حلقك؟ عندك غيره يا شوق.. تُرى هل كان لسيد سعر عندك يا شوق؟ كان عندي يساوي الدنيا كلها.. من لي غيره؟)).

كم هو مُرٌّ طعم الموت عندما يبتلعه الأحياء بلا رغبة.. كم هو مُرٌّ طعم القتل لما يجهل الواحد منا وجه القاتل.. مجرد تقاطيعه وشكله.. وحتى الحياة لما تتزايد قسوتها يجهل الواحد منا لماذا تكون

القسوة أصلًا.. من يطيق؟ من يطيق موته؟
((ارقصي يا خطواتي برعشة العجز والحيرة.. ارتعشي يا عصاي القديمة فأنا أرمي عليك حملي.. ارقصي على سكة الكَفْر فأنا ذاهب إليه في قبره منهزمًا.. معترفًا بالهزيمة.. مستسلمًا له.. بهزيمة القلب الأخيرة التي لا تعادلها هزيمة.. بعده لا يهم حتى نصر أو هزيمة.. حتى لو انطبقت السماء على الأرض لن تكون هزيمة أمر أو أقسى.. ارقصي يا خطواتي في دروب الكَفْر فسوف نصل إلى المدفن ونقعد.. ويا عيون الناس كُفي عن النظر والمتابعة فقد كرهت دنيا الأحياء ورحت بمحض اختياري لأتنفس مع الأموات حتى يجيء الموت نفسه)).

* * *

جاءني صالح في المحلة.. شابًّا فتيًّا في جلبابه الأزرق ومشروع شارب.. فرحت به.. قلت له: ابق معي ما داموا غلّبوك وأتعبوك.. قلت أشغله في الشركة ويبقى، وملعونة أرضهم التي كسروا نفسنا من أجلها.. وعاش الولد وسيد يلعب معه فيضحك.. وفاتت أيام وصالح يحكي لي عن الكَفْر.. عن جماعة شلبي التي لا يهمها في الكَفْر رجل.. عن أبي الذي يحتد مع برهومة.. وعن برهومة الذي راح للحكيم مرَّات ولا يعرف لماذا.. وقال إنهم سخروه في الأرض وحده.. يشتغل في الأرض وحده.. وبرهومة يتدلل.. وأبي يأمر وينهى ويكتفي بأن يشق على الأرض ويعمل عليه مهندسًا.. وكيف أنه قال لهم: أنا كبرت فاكتبوا لي أرض أمي ولا يهم نصيب أبي فصهينوا عنه، وأنه لما قال لهم: آخذ بنت عمي.. سخروا منه.. وقالوا: أنت عيل.. فطهق منهم وقال أنا مثل التملِّي أشتغل بلقمتي ولن أغلب بنفسي وسأل عني ودلوه على العنوان فجاء.. قلت: ترتاح هنا يا صالح ما دمنا طلعنا من مولدهم بلا حمص.. عمك ورث الأرض وكتبوها له وسيدك حي.. وهو رجل غشيم.. يضربك ضربة تروح فيها.. قال إنه لما شم نفسه جاء.
بعد أيام جاء أبي وبرهومة.. قال أبي للولد: طفشان يا ابن الكلب؟ وضربه كفًّا فوق صدغه فسكت الولد.. كأنه ضربني أنا.. قلت له غاضبًا: ابعد يدك الثقيلة عن الولد فهو ليس حملك.. قال: أنا ربيته وأنا حر فيه.. قلت: هو ابني على كل حال. فشتمني وسكت.. أسرعت وجمعت جماعة من الرجال يسكنون معنا وعملنا مجلسًا.. قالا: نسأل الولد.. قال: أنا حر ولا أحد يتدخل.. قال أحدهم: البندر ليس فوضى.. هنا حرية وهو يختار.. وسألوا الولد فقال: أبقى.. ولما خرجوا بقي أبي وبرهومة وصالح.. قال أبي:
- كتبنا لك الفدانين بتوع أمك يا صالح وتقول أستنى هنا.. تاكل طوب وتدوخ في البنادر؟ دي آخرة تربيتي فيك؟
لمعت عينا الولد وبان فيهما عدم التصديق.. فمد أبي إليه يده بورقة مطوية.. نظر فيها ونظر إليَّ.. ((في عينيك شيء جديد يا صالح فما هو؟)).. قال الولد: أسافر معكم ما دمت أخذت أرض أمي.. قال برهومة:
- كلمنا أبوك محمد عن زكية ووافق كمان.
وبان في عينيه فرح.. أخذته على جنب لأحذره منهم.. لكنه قال إنهم كتبوا له أرض أمه ولو بقي تروح منه.. قلت له: والعمل؟ قال: أسافر.
كنت محسورًا لأن الأرض أخذته مني.. خجلت أن أنظر إلى وجه أبي الذي بان عليه أن انتصر وأخذ الولد مني رغمًا عني.

قال برهومة وأنا أوصلهم: قلبي تعبان وأريد أن أكشف عند الحكيم هنا.. أبي سمعه والتفت إليه وشده قائلًا:
- خطي قدامي وبلاش تماحيك.. ابقى اكشف في طنطا.
كان وجه برهومة مجهدًا ومريضًا بالفعل.. حاولت أن أجعله يبقى ليكشف، لكن أبي أصر على أخذه في تلك الساعة والسفر به وبصالح.. وسافروا.. كنت أعجب لإصرار أبي على أخذه.. ربما كان فرحان لأنه أخذ صالح.. ربما يشك أن برهومة يبتغي الفسحة في المحلة معي.. حملت صالح سبت الفواكه وأعطيت برهومة التذاكر التي قطعتها لهم.. قلت لصالح على جنب:
- لو ضايقوك ارجع.. آديك عرفت السكة.
وقال الولد:
- آجي وآخذك يوم الكتاب بس اوعى ما ترضاش.
وانشغلت في تقديم أوراق سيد للمدرسة.. واشتريت المريلة ودفعت المصاريف.. وجاء صالح.. لما شفته من بعيد فرحت.. قلت جاء يأخذني أحضر الفرح.. كلما اقتربت منه أحس بالفرحة تموت في قلبي، لما سلمت عليه قال:
- أبويا.. برهومة متأخر وطالبك.
اهتز قلبي.. ((رقد برهومة؟ وقد تأخر وطلبني.. كل هذا بسببك يا رجل.. تقتل أولادك ولا تهتز أبدًا؟))... أسرعت مع صالح وأنا أقول لروحي: ربنا يستر.. أخذنا عربة مخصوص من المحلة حتى الكَفْر.. دخلت عليه المندرة.. أصفر ومعلول وعاجز عن الحركة. كأنه عجوز.. صوته عاجز وعيناه زائغتان في دنيا غير الدنيا.. لما شافني حاول أن يعتدل فلم يفلح.. قلت له: ارتاح.. وقعدت إلى جانبه على طرف السرير.. قال: الحمد لله، كنت أريد أن أراك قبل ما أودع.. وأبي كان مطرقًا برأسه وواقفًا لم يهتم حتى بوصولي.. مد برهومة يده إلى يد أبي وأخذها وقربها ناحيتي وقال لأبي: سلِّم على حسن.. خلَّص أبي يده برفق وقال لي: برهومة طلبك يا حسن.. نظرت إلى برهومة.. ساعتها نسيت كل شيء حتى قسوة أبي.. نسيت إلا رغبتي في أن أراه يقف كما كنت أراه قبلًا.. قال بصوت جاهد أن يكون مسموعًا لكنه كان متقطعًا وعاجزًا عن الإسماع:
- لو مت يابا الأرض تبقى لحسن.. ولو عشت نقطع الورق اللي انكتب ظلم، يأخذ حقه وهو حر فيه.. الدنيا منفاتة يابا.
قلت أريحه من الكلام:
- كن في حالك.. شد حيلك واجمد.
أسكتني بإشارة من يده وتابع كلامه:
- كوم الطماع ناقص.. أمي طمعت، يمكن ذنب إخواتي وربنا بيخلصه مني.
تقطع قلبي ولم أعد أحتمل المزيد.. حاولت أن أداري دموعي لكنها كانت تسيل، وكلما نظرت إليه وإلى أبي المهموم في صمت أزداد حزنًا عليه.. وبدأ الصوت يخفت أكثر.. والعينان تغيبان. وكل مدة لما يفيق من غفوته يمسكني من يدي ويضغط عليها ثم يغيب من جديد.. كأنه يتمسك بشيء في يدي ويقول كلامًا بلا رابط لما يفيق.. كأنه يخرف.. خلصت يدي منه وخرجت.. قلت: ننادي الحكيم.. ورمحت خارجًا من الدار.. قال صوت كأنه صوت برهومة أو صوت أبي جريحًا وواهيًا بينما أخرج من باب الدار:
- مفيش فايدة.

وقبل أن أصل إلى البوابة سمعت صوتًا نسائيًّا يشق الصمت وينفذ ليس إلى أذنيَّ وإنما إلى صميم قلبي.. رجعت أرمح ودخلت فنظرت إلى الشفتين في حركتهما الأخيرة والروح تجاهد أن تخرج من خلالهما.. والفم يحاول إبقاءها لحظات لكنها تفتحه بعزم أشد وتخرج.. تنفذ الروح فيهمد البدن.. يكف عن التنفس أو الأنين أو الحركة.. دموع أبي تنسال على وجهه دون أن يتحرك من وقفته، مطرقًا كما تركته كأنه صخرة جامدة تبكي.. ((تعرف البكاء لما تشوف الموت، لكنك لا تعرفه مع الأحياء أبدًا)).. وحتى لما رفع عينيه لحظة كنت أقرأ فيهما شيئًا كأنه الخجل.. الخجل من الموت. ((أنت خجل من الموت إذن؟ اليوم تبكي وتخجل من الموت أو من دموعك وكنت سببًا في خرابنا وضياعنا.. ظلت تزن عليك وتزن حتى خربت الدار.. وأنت تطاوع.. دائمًا تطاوع.. تحسب أن الدنيا كانت ملك يديك تعطي لمن تشاء وتمنع عمن تشاء.. وأنت يا برهومة؟ هل انتهيت فعلًا؟ يا حسرتي على شبابك الذي ضاع منا قبل الأوان)).. من الموت كان يخجل الرجل.. في المندرة وأنا جالس أسمع كلام الناس.. يتهامسون بأصوات قادرة على النفاذ إليَّ ربما بالشماتة، أو محاولة لإظهار الود أو العطف عليَّ: ((ربنا خلاف الظنون، مبروكة طردت الأولاد وقعدت على التل، زرعت الشر وحصدته.. ذنب أخويه خلص)).. وأنا جالس آخذ العزاء وأنظر ولا أستطيع الكلام.. ((اتركونا لهمنا يا ناس.. ابعدوا عنا فالأعمار بيد الله)).

ولما دخلت الدار في الليل كانت مبروكة تجلس وسط الحريم وعلى رأسها طين جف وتيبس، وعلى وجهها صبغة لونها أزرق.. كانت تندب فلما شافتني كفت، قامت ناحيتي وكأنها كلبة مسعورة.. أمسكت طوقي وكأنني بعثت الموت لأخي يأخذه.. كانت تصرخ في جنون حقيقي.. عيناها تنضحان همًّا وغمًّا وحشيًّا يصعب على الكافر لكنه يخيف.. يرعب.. كانت تهزني ورذاذ من فمها يتناثر على جانبيه ويصل إلى وجهي لما تتكلم:

- جاي ليه يا حسن؟ جاي ليه يا حسن؟ برهومة مات.. برهومة ماات.. برهومة مااات.. جاي تورث فيه؟ عايز تورث فيه؟ الصغير مات.. الحلو مات.. الغالي مات.

كنت مرعوبًا.. مرعوبًا أرتعش من الهلع والشفقة.. ((حتى أنت يا مبروكة تثيرين في النفس شفقة؟)).. خلصوني منها بعد جهود شاقة وأصابعها مغروزة ومستميتة في طوقي.. خلفت في العنق جروحًا وفاتت على طوق الجلباب طينًا وصبغة.

قال أبي وهو ينظر إليَّ في حيرة:

- خليك ويَّانا بقى.. نشوف أحوالنا.

قلت له: مبروكة لن تطيق وأنت شفت بنفسك.. فسكت.. قال بعدها وكأنه يفهمني شيئًا فاتني: حرقة الموت.. ((وأنا ألم أحترق عليه ربما بنفس القدر وإن كنت لا أندب أو أمسكك أنت من خناقك لأنك كنت بلا شك سببًا من الأسباب؟ قلت لك اتركه يكشف عند الحكيم فلم ترضَ أبدًا)).. قال بحسرة: عوضنا على الله.

ودخلت مبروكة هذه المرَّة وعاودت ما سبق أن عملته في المرَّة الأولى.. وقام أبي يخلصني منها بعافيتي التي عجزت إلا بعد أن خربشتني في وجهي.. قلت والغيظ يملؤني ويجعلني أخرج عن طوري: الدار لا تسعني أنا ومبروكة.. قال: قلبك أسود.. قلت له هذه المرَّة دون أن أهتم بما يعمله: أنت رجل خنزير.. وهي تلعب بك طوال عمرك.. من يوم أن دخلت الدار تلعب بك.. ولم يبدُ عليه أنه سوف يتحرك ليضرب.. الموت هدَّه.. أفهمته أنني لن أرجع إلى الدار ما دامت مبروكة فيها تجلس وتنعق مثل البومة.

هذه المرَّة لم أكن أخافه، ربما كانت هذه المرَّة الوحيدة التي لم أخافه فيها.. ربما لأن الموت أزاح الخوف مني وسلب منه الجسارة والقسوة.. ربما لأنه أحس بأنه أخطأ في كل عمره، أحيانًا يحس الواحد أن عمره كان غلطة، كان هذا هو المرسوم على وجهه في ذلك المساء البليد البارد.. كأنه عجز عن الرد.. ((وأنت يا مبروكة.. الغل في قلبك.. حتى في الموت تكرهين.. حتى لما مات برهومة لا يأخذك الحزن من حضن الكراهية فتحزنين دون أن تكرهي ولو مرَّة؟)).

* * *

على سلم الموت أرقص رقصتي الأخيرة.. في كَفْر عسكر حيث المدافن أزور الموتى كلما ساعدت القدرة.. المدافن أزور الموتى كلما ساعدت القدرة.. عدت إلى الأرض بعد ما انهدت القوى.. وسيد يرقد حيث رقد أبي وبرهومة وأعمامي.. ((لو كنت يا عبد الحميد معهم لغنيتم غنوة النهاية)).. أسمع أحيانًا في مدافن الحاج عوف صوت الماضي تردده أشجار النبق العتيقة همسًا مرتعشًا شاكيًا.. ألمح الأطياف تتسلل إلى أفرع الصفصاف المحنية.. أجلس ساعة القيلولة حتى يأتي صالح أو أحد أولاده يأخذني إلى الدار أتعشى بعد صلاة المغرب.. كلما قال لي وكأنه يوصيني: لا تذهب إلى المدافن.. أخالفه وأذهب.. اليوم أعرف سر عودتي الملهوفة.. نداء الرماد ينفذ في صلب الواحد منا فيعجز عن المقاومة أو التأجيل.. يأتي ويجلس.. وحتى لما أتمثل صوت أبي أو ألمح طيفه لا أخاف.. الموت يجرده من جبروته ورعونته.. يجعله ودودًا وحنونًا.. وبرهومة بنظرته الأخيرة وصفاء قلبه ينير وجهه.. قلبه الذي مات معلولًا.. وسيد.. ((يا شجرتي التي زرعتها وحسبتها مالت لتظلل على غريمي.. الآن أعرف، مال الفرع ليرجع إلى الأرض فلكل أجل كتاب.. ما عاد في خيالي وجه لغريم واحد.. كأنه لما غبت عني غابت العداوة واختفى الغريم القديم.. أيامها كنت أحسبك نسيت.. ما جاهدت عمري من أجله.. شقاء الأيام ودوختي عليك.. قلت أيامها وأنا أجهل الحقيقة: انجرف في تيارهم ونسي، وقلت إن الكَفْر عتمة وغيطانه تغطيها الروبة.. سككه معفرة وبيوته كالحة.. وكل شيء فيه كئيب ومعتم، حتى وجوه الخلق كئيبة ومهمومة وساكتة.. كأنها مراح غنم يمرح في الفجر ويعود قبل المغرب دون أن يتبدل فيه شيء إلا الزيادة أو النقصان في العدد، إنما القطيع هو القطيع.. قلت هذا لنفسي ناسيًا نداء الموتى.. نداء أمواتنا الذين سبقونا ورقدوا واستراحوا.. اكتفوا بالإطلال علينا من مراقدهم ومتابعة خطونا المنتشي كل فجر.. في انتظارنا بيقين في عودتنا.. **(أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ)**.. أسمعها فأهتز.. وأنت لم يكن لك برج لتتوارى من وجه الموت ساعة.. والموت أراه في الأحياء فأعجب من أمر الدنيا.. وكل ما يدور حولنا: الغيطان والمصارف وناموس البرك والسكك الملوية، البيوت العفشة المسقوفة بكتل الخشب التي اسودت مع حزم البوص المحترق، وكل شيء للموت يمضي.. جئت للموت إذن، وأنت يا سيد كنت تأتي للموت هنا.. أيامها كنت أسائل نفسي عن سر مجيئك المتكرر كل يومين.. أتخيلك تمشي في دروب الكَفْر بينما جماعات من نسوة الكَفْر يجلسن على الأبواب وينظرن إليك وأنت تمر عليهن، ثم يشرعن في الحديث عنك.. ابن مَن؟ لماذا يأتي؟ لمن يأتي؟ وماذا يعمل؟ وينصبن على سيرتك قعدتهن، أبدًا لم يكن هذا يهمك.. كنت تأتي لأن الموت هنا كان يناديك وليس رجال الكَفْر المناظر ذوي الشوارب المبرومة والأعواد الفارعة.. وحماسهم في دعوتك لشرب خناصر الشاي الأسود.. كأنهم يتسابقون لنيل شرف دخولك دورهم.. كرمهم المعجون بالرغبة في التفاخر وكأنهم في سباق

مع أنفسهم أولًا.. لا شيء من هذا كان يشدك.. الموت هو الذي أخذك.. شدك مني.. وأحسبك يا سيد كنت تلاحظ أن الأمر كان يتحول من احتفاء متحمس في البداية.. خطوات التباهي بابن الجماعة الذي عاد ليمشي في دروب الكَفْر مع الرجال المناظر.. وتكرار الواجب بكثرة تتحول إلى عبء ثقيل ثقل المسؤولية المرمية فوق الأكتاف.. وجماعة الحاج عوف التي هزمها العناد وصلابة الدماغ، أصبحت أعجز من الاستمرار في دور الكرام.. وحتى لو كنت أنت وراء تربية أولاد البعض منهم في المدارس وأنك كنت فخرهم في مواجهة الآخرين يومًا.. كل هذا لا يهم.. ليس الأهل والأولاد وإنما الموت شدك.. وأنا بدوري جئت أنتظر.. أحلم بالموت يأتيني وأنا في المدافن)).

الشيخ شعبان يقرأ ما تيسر.. على روح الرجال يقرأ.. هسيس أشجار النبق العتيقة يردد شيئًا كالهمس البشري.. نبرات أصواتهم تتجاوب مع صوت الشيخ شعبان.. قال سيد: أنت قطعت نفسك من شجرة، كانت شجرة الحاج عوف الكبير التي ما عادت تطرح الرجال القادرين، واكتفت بالهياكل معدومة الحيلة والغارقة في كذبة الاسم القديم.. وسواد القلب من سواد الحال.. وأنت تراني يا سيد كل يوم.. أنتظر وأرضى بكل رغبتي أن أبقى هنا رغم ما كان في الزمن الفائت.. والحسرة تذوب مع اليقين الذي يتسلل إلى الرأس بأن الحزن فوق طاقة الاحتمال.. وأنه عندما يكتشف الواحد منا أن العمر كله كان كذبة وأنه خسره.. وأن ما كان يتمسك به كان غلطة كبيرة لا يحلها إلا الموت نفسه.. ساعتها يذوب الشعور بالحسرة في لحظة الكشف.. أجيء إليك لأتمثلك مرَّة كما أتمثل أبي وبرهومة وجدي والآخرين.. وتعز صورتك أحيانًا.. ولما أتسمع دبيب خطو صالح أفقد الأمل في رؤيتك وأعود معه إلى الدار.. والحجر الدائر ولطشة الجدار.. جدار الموت لطشك.. ها هو صالح يأتي.. الخطو الثقيل.. والتقاطيع الجادة.. وبقية اعتزاز بلا معنى.. رجل في قلبه جرح قديم لا يداويه القول أو العزاء.. يداويه الموت يا صالح.. حتى لو تظاهرت بالقوة والعنفوان والقسوة، فأنت لها مثل سيد.. للتربة.. للتربة.

* * *

ولما جاءني الجواب سافرت.. ((هدك الموت إذن يا أبي فعرف المرض طريقك أنت أيضًا؟ آتٍ إليك أنا والقلب لا يحمل إلا الحنو والنسيان)).. لما دخلت الدار وجدته جالسًا في صحنها على دكة النورج.. قلت وأنا أتجه ناحيته: بعد الشر عنك، ظل ثابتًا في قعدته وعلى تقاطيعه خطوط هَمٍّ غويطة.. قلت لنفسي: ((ما زال مهمومًا وحزينًا على موت برهومة)).. مددت إليه يدي فظل جامدًا في قعدته دون أن ينظر ناحيتي أو يمد يده.. جلست جواره.. جاء صالح وسلم وجلس على الأرض عند قدمي الرجل.. وبعده بانت مبروكة في السواد.. قالت: شفت؟ نظرت إليها بغل.. ((فصل سخيف وشربته.. تبعثون جوابًا تدَّعون فيه مرض الرجل بينما يجلس قصادي يطل ولا ينطق كأنما قطعتم لسانه أيضًا؟)).. لم أتكلم وسكت.. قال أبي يقطع الصمت الذي حام حول الدماغ كدبور فقد قدرته على الزن واكتفى بالدوران حول الرأس ليجعلها تتابعه وتدور هي الأخرى: هيه؟ وبعدها بدأ يحرك عصاه في صعود وهبوط متتابع فتدق الأرض بطرفها وكأنه يأمرنا بالإنصات بينما نحن صامتون.

- إنت شايف إيه يا حسن؟

كان في صوته شرخ لا يود أن يبين.. يجاهد أن يخفيه.. قلت متوجعًا من نبرته:

- شايفك حلو يابا.. البركة فيك.

قال بصوت متهدج، مهزوم ومستسلم أيضًا وهو يهز دماغه وكأنه ينكر قولي:
- لكن أنا بقى منيش شايفك.
وللحظة أدركت كل شيء.. استعدت الموقف من أوله وأنا أطل إلى عينيه العسليتين الصافيتين واللامعتين كعيني قط بري أو ربما ذئب.. عجبت لأنني لم ألاحظ شيئًا.. ارتعبت وأنا أدقق النظر في الملامح المتهدلة المتراخية كأنها لا تخصه.. كأنما العينان كانتا تحرسان الملامح وتشدانها وتبعثان فيها الحياة، فلما غابتا أصبحت التقاطيع بلا حارس فتراخت وتهدلت.. أصبحت مجرد كتل لحم عجوز محطوطة بلا معنى.. إلى هذا الحد رأيت الملامح ميتة فانتفى وجودها كله.. حتى خطوط الزمن تكذب.. تجاهد التقاطيع أن تقول شيئًا فتعجز.. لا شيء غير اللوم أو الاستكانة يطلان عليَّ من خلال البريق الأعمى الضرير الذي لا يميز.
((ميزت في ماضيك كثيرًا حتى أتعبك التمييز.. نظرت بالعينين فخوفت الكل حتى نفذ من العينين الشعاع.. والآن تجلس.. لا تملك حتى أن تدخل بيت ((الأدب)) بلا مساعدة.. والذي انقضى راح وولى.. الموت في الملامح.. ربما الحزن على برهومة وعبد الحميد والإخوة.. ترى هل كانت حياتك بأسرها غلطة متتابعة الحلقات كأنها قيد شدك كلما حاولت الخروج لتعود وتسقط في دوامة التعسف الغشيم والتجبر.. ومعاركك التي حصلت بفعلها على الاسم والتي ما زالوا يتحدثون عنها وكأنها حواديت ما حصلت ولا كانت.. وماذا يقولون اليوم في كَفْر عسكر؟ ربما فرحوا بالبلوى التي حطت.. ربما تحسروا وأنت تتهاوى قبالتهم من مكانك القديم ومكانتك وتقعد على دكة النورج في صحن الدار كالحريم لا ترى عدوًّا من حبيب)).
لم يكن هناك ما أستطيع قوله أو أجسر على البوح به.. كأنما قطعت قعدته الساكنة لساني.. خيم السكوت والعجز عن فتح أي موضوع.. قال وهو يهتز أمامًا وخلفًا وكأنه مقرئ الرواتب الكفيف الذي يتلو آياته بلا حماس ولا انفعال، بصوت كأنه صوت العجز البائس:
- العمر عدَّى وفات.. ما عادش غيرك.. برهومة راح.. عبد الحميد راح.. وحتى النظر راح.. وياما سمعت معيرة بسببك أنت وعبد الحميد وقاوحت لما كان العزم شديد.. لو ترجع يا حسن يا ابني يرجع العزم ويشتد الحيل المهدود.. أشوف بعينيك أنت وصالح.
للمرَّة الأولى أحس أنه أبي.. في كل عمره أحسسته خصمًا يستحق الكراهية.. مرَّة حاولت قتله.. حتى وهو يقول لي ارجع الكَفْر لم أكن أهتم بالرجوع.. كنت أفكر فيه.. أشفق عليه.. كأنما قرأ هو ما يدور في دماغي.. برقت عيناه في لحظة فحسبته يدخله.. يتسلل إليه ويقرأ ما يدور فيه.. كأنه هزم العمى والعجز وبدأ يراني.. من داخل الداخل يراني.. ساعتها ارتعبت رغم الإشفاق عليه من نظرة اللوم المطلة من العينين وكل التقاطيع.. التقاطيع التي عادت تحيا بعد الموات.. هذه المرَّة أحسست أنني بجوار أبي.. كأنما وُلد إحساسي به في تلك اللحظة بعينها.. لم أعد أحتمل.. جعلت أنهنه.. من أجله كنت أبكي.. أسكتني.. قال: الظفر لا يطلع من اللحم.. الدم لا يبقى ماء.. وسكت مدة، ثم ابتسم، كأنما استعاد نفسه.. كأنما لما اطمأن أنني ابنه وأنه استعادني عاد يحيا.. تحيا التقاطيع وتنتعش وتفيض.. تنفض عن نفسها البلادة وتحس وتقول.. والنبرات تقاوم الارتعاشات، وراح يحكي، منبسط الملامح والنبرات.. من حيرتي كنت أقول لنفسي: ليس أعمى، فها هما العينان تبرقان ببريق الوعي والإحساس والحياة.. وكلما قال شيئًا يزداد في قلبي الصخب.. أود لو أحتويه كله.. أجعله يراني.. وأتوارى بدمعة مجاهدًا ألا يحسها ويحسها هو.. يقول: ما زلت تبكي فأنفي بالدموع.. يقول: أخذنا أيامنا فلن نأخذ زمان غيرنا.

كان صالح ينكت الأرض بعود حطب جاف ولا يواجهني لما يلمح في عيني الدموع، كأنه تعلم أن من الرجولة ألا يرى دموع الرجال.. قلت لأبي: كنت زينة الرجال.. قال بأسى: راحت أيامنا.. ((ومرَّة تعاركنا مع أولاد العزبة وأخذنا في ضربهم بالطوب والطين اليابس.. وطاروا هربًا وجاء الرجال وعبروا الترعة وضربونا وكنا نصرخ.. ولما شافنا عبد الحميد أسرع وحده يتعارك مع كل الرجال فضربوه أيضًا.. وقلنا لما شفناه يسقط وسطهم: مات.. ولا ندري كيف تسلل عبد الغفار من وسطنا وناداك.. وأنت ضربت بشمروخك أكبرهم سنًّا.. رأيتك تهوي على دماغه بالشمروخ وأنا خلف النخلة أرقب وأنتظر.. كان الرجل فحلًا بشوارب مرفوعة فسقط ولم يقم أبدًا.. وأسرع الآخرون يفرون من حسم ضرباتك التي جرحت من طالته فأعجزته.. يخوضون في الترعة التي كانت غويطة، لكنهم كانوا يخوضون في الماء البني وأنت تتابعهم بالشمروخ فيجرون.. من يومها أصبحت الترعة لنا، نلعب على كلا الشاطئين ولا يظهر من العزبة ولد.. والذي مات يا رجل راح دمه ولا أدري كيف.. وكنت دائمًا تجرؤ على فعل ما يعجز الرجال عن فعله.. عركتك مع برابرة السلطة.. لما جاءوا يطلبون أنفارًا من الكَفْر وأخذوا واحدًا من جماعتنا وقلت لهم هاتوه.. والكرابيج التي انهالت عليك كانت أعجز من الشمروخ.. هرب الرجال السود على الجِمال وفاتوا الكَفْر وما شفتهم أبدًا.. وحتى لما كانوا يعودون لا يهوبون ناحية البوابة ويكتفون بأخذ الأنفار من الأهالي في صمت وبلا ضجيج.. ودخولك على جماعة شلبي بعد حكاية شوق دون علم جماعتنا.. وتاريخك معنا مزحوم بالضربات.. وفي أطراف الواحد منا آثار الضربات والعاهات المستديمة. واليوم تقعد؟)).

كان يحكي عن أيام العزوة القديمة، ولمة الرجال حول جدي مصطفى.. يحكي عن الماضي فيبعثه من جديد ويحياه، ناسيًا لحظته بكل ما فيها من أمارات العجز.. كنت أسمع وفي يدي خنصر الشاي الذي قدمته زكية.. قال أبي:

- متى ترجع؟

قلت متوددًا إليه:

- كام شهر كده يابا.. ع السنة ما تخلص وأحول أوراق الولد لمدرسة البندر.. بدل السنة ما تروح عليه.

وسكت مدة.. ساد صمت طويل.. قال بعده بحماس وعروق رقبته تنتفض وتزداد احتقانًا وغلظة:

- علمه.. علمه.. حتى لو بعت كل الأرض علِّمه.. أولاد شلبي كسرونا لما علموا عيالهم.. طلعه حكيم أو محامي.. المهم علمه.. إياك تنسى مهما حصل.

وعاد الصمت وصدى كلماته يترجرج في طبلتي الأذنين ويرف في الدماغ وكأنه يتجسد حمامًا أبيض يستدعي الرعاية والحنو.

* * *

وجاء سيد من الكَفْر.. قلت له: أنت معووج فاعتدل.. قال: لست معووجًا.. راح يجادلني لأول مرَّة في حياته بحدة وحماس.. كأنه اكتشف شيئًا جديدًا.. دائمًا لما يرجع من الكَفْر يهوى النقاش والمعاندة.. سألني إن كانت أمه قد أتت به إليَّ طفلًا في مصر.. قلت له: جاءت.. حصل بالفعل أن جاءت تحملك.. أخذتك من أمي وجاءت تحملك إليَّ في الدكان.. قالت: أرجع لأربي سيد.. ((تأتين بعد ما كتبوا كتابك على ابن عمك؟ تدعين أن سيد يحتاجك؟ اليوم يحتاجك وبالأمس لم يكن يحتاجك؟ انتظرتم اكتمال العدة وكتبتم الكتاب فقطعتم عليَّ خط الرجعة)).. قلت لها: عودي يا

شوق.. ارجعي الكَفْر وكفانا ما جرى.. ولما بكت لم أصدق دموعها.. ((تذهب إذن إليها وتسألها وتصدق كلماتها؟ تدعي أنني رفضت إعادتها رغم أنها جاءت بنفسها من أجلك؟ طيب. سوف أعرفك)).. قلت لروحي ساعتها: لكم هي جريئة لتأتي إليَّ وهي على ذمة رجل آخر.. لم أصدق ما كانت تدعيه من رغبتها في العيش معي.. قلت لها: روحي لرجلك يا شوق وكفاني ما حصل منكم، وأنا خلصت من ذنبك، أبوك ضحك علينا ولما قلت لك لم أخلص منك.. لم تسمعي الكلام وامتد بوزك شبرًا.. وأمك طولت لسانها عليَّ في مندرتكم.. وأهلك جاءوا وكأنهم يرغبون في العراك.. وأنا لم أنطق إلا بعد أن طلبت أنت الخلاص.. والولد قدمتيه إليَّ أمامهم.. وأبي عملتوه لبانة على آخر الزمان.. قالت: لا أرغب في العودة إليك من أجلك أنت وإنما من أجل الولد.. أحسست بالعار.. ها هي تكيدني بك.. كأنما أحسست بالغيرة منك يومها.. لأنني لم أكن أساويك عندها.. تعود من أجل طفل في لفته قدمته إليَّ بنفسها وتخلصت منه.. تعود بعد أن انكشف ذيلها لرجل آخر.. ورغم كل المساعي التي عملناها قبل أن أصل إلى الكَفْر وبعد أن خلصت.. قطعوا علينا خط الرجعة وكتبوا كتابها على ابن عمها المحترم كأنما حسبوا الأيام لتوفي العدة بينما كنت أنتظر. قلت لها ارجعي يا شوق فما فكرتُ في استعادة بصقة لفظتُها حتى لو كانت فيها حياتي.. قالت وكأنها قطة شرسة مسعورة: وأنا رميتك وبصقت عليك ألف مرَّة ولولا سيد ما رجعت لخسيس مثلك.. ((أنا الخسيس يا سليلة تجار الملح ورسمال الحمام والثمر المعفن؟)).. غلى الدم في عروقي.. كدت أضربها في الشارع ولكنها كانت تحملك.. تحتمي بك مني.. قالت: خذ ابنك.. وحطتك فوق الدكة.. نفس المشهد القديم.. في المرَّة الأولى قلت أهلها.. هذه المرَّة كان أهلها لا يعرفون حتى أين راحت.. ما كان بيننا غيرك.. أنا ما كنت لأدعك تتربى على حساب ابن عمها يا سيد.. وما كنت قلت لأمي أن توافق على أن تأخذك منها لترميك من جديد.. تسألني إن كانت جاءت.. حسنًا.. رح واسألها متى جاءت.. اجعلها تحكي بصدق متى جاءت واحكم أنت بنفسك.. تلومني لأنني لم أقبلها من أجلك.. وهل قبلت أنت البنت التي عرفتها وفاتتك وصاحبت قريبها لتكيدك؟ هل قبلتها لما رجعت تقول لك إنها تحبك أنت وتريدك؟ أنت تحاسبني وتنسى نفسك يا سيد.. كنت أرضى بها لو لم يكن ذيلها انكشف لرجل غيري.. وحتى لو رضيت يومها.. هل كنت أضمن أنها سوف تخلص من ابن عمها؟ هل كنت أصدق أنها باعته من أجلك فعلًا؟

ولماذا باعتك منذ البداية؟ اسكت يا سيد.. اسكت.. أنت لا تعرف ما جرى منها.. أبدًا لا تعرف ما جرى منها.. أنت ترى دموعها تنسال فتصدق.. ودموع الواحدة منهن قريبة.. أقرب من الهم على القلب.. كان قد انكسر شيء ما بيننا في قاعتهم.. انشرخ جدار كان يسترها فبانت على حقيقتها.. كان من الصعب عليَّ أن أصدق أن الأمر سوف يعود كما كان.. ما جرى كان شائهًا ومشينًا ويصعب احتماله.. اسكت يا جدع ولا تقلب علينا المواجع القديمة.. اسكت.. ارقد أحسن.

* * *

سقط الرجل وهو يعافر فوق السطح دون أن يطلب منهم مساعدة.. سقط فوق حجر الطاحونة القديمة فانخلعت مفاصله ورقد عاجزًا عن الحركة.. جاءني الخبر وأنا مشغول في تحويل أوراق سيد لمدرسة البندر.. فرمحت وسافرت إلى الكَفْر بالليل.. وجدته راقدًا وعلى وجهه غطاء.. رفعته من لهفتي ورحت أناديه ولا يرد.. أخذوا سيد بعيدًا ثم شدوني وأنا ذاهل حتى عن كلماتهم.. ((السر الإلهي طلع.. طلبك ولما غبت قال اطلبوا منه السماح.. البقية في حياتك)).. كنت أطل إليهم ولا أميز الوجوه.. لا أعرف إلا أنها مجموعة من الأفواه والعيون المطلة.. ولما طلع النهار وبانت

الشمس كنت قاعدًا وحدي في ركن الدار.. ولا أعرف كيف سرت معهم في الجنازة.. حملت الخشبة فأزاحوني وسندوني وساروا بي في اتجاه المدافن.. كانت مقابلتنا الأخيرة ماثلة في خاطري.. كنت قد أحببته، بعد أن أحببته جاء الموت وخطفه.. كأنني كنت مشتاقًا إلى الأب فلما وجدته أعطيته كل الحب الذي حجبته عواصف الأيام السود.. ليتني كنت أكرهه. جلست في المندرة آخذ العزاء من الناس.. طلعنا عليه الخميس الصغير.. انتبهت لنفسي وأنا ألمح سيد يلعب مع أولاد الدار.. تذكرت الأجازة والمدرسة التي حولت إليها أوراقه.. أخذته معي للمدرسة وسألت عن الأوراق فقالوا وصلت.. تركته وأوصيت زميله أن يعرفه سكة الكَفْر.. سألني صالح عن سيد.. قلت: راح المدرسة.. بان عليه شيء كأنه الاستياء.. سألته: مالك؟ قال: أبدًا.. في الليل بدأت أرقب الوجوه: صالح بجانب زكية التي خلف منها ولدًا يرضع.. ومبروكة التي تقعد متكدرة في ركن القاعة لا يبين منها غير عينين ضيقتين تلمعان.. وسيد الجالس ينظر إلى الكل في توجس، يلاعب بنت برهومة أحيانًا ويكف وكأنه يخشى الاستمرار في اللعب.. قال صالح:

- لزومها إيه المدارس يابا؟ دي الأرض عايزة رجالة.

سكت وكأنني لم أسمع ما قاله.. تحمست مبروكة وقالت وكأنها تداعبني أو تضاحكني بينما يتوارى في نبراتها معنى يمكن اكتشافه:

- طب دا انت نسيت الفِلاحة يا حسن.. هيه.. عمر طويل بقى.. يكون في عونه صالح.

قلت:

- والعمل؟

قالت:

- باقول سيد يقعد في الدار مع أخوه يساعده.. يشيل على الحمار.. وأهو الخير كتير.

سكت.. قال صالح بحماس من وجد من يسنده هذه المرَّة:

- قلنا كده قالوا اطلعوا من البلد.

قلت لصالح محاولًا إنهاء المسألة كلها:

- لا تطلع ولا تنزل.. أنا وياك دراعي بدراعك لحد ما يكمل تعليمه.. أبويا قال كده.

قالت مبروكة:

- يبقى زي الشحط وياكل من كدكم؟

((ليلتك مهببة يا بوز القرد)).. قلت لها:

- أهُم ولادي والاتنين إخوات.

قال صالح وكأنه تعلَّم شيئًا أو سمع شيئًا:

- يعني هو يروح المدرسة ويبقى أفندي وأنا أنزرع في الطين؟

قالت زكية وكأنها تلطف الجو ولكن لغير صالحي:

- يعني اللي راحوا المدارس عملوا إيه يابا حسن؟

قالت مبروكة والغيظ يلمع في عينيها الضيقتين:

- إحنا كمان مش حمل مصاريف مدارس.

قلت:

- تتدبر.

قالت مبروكة:

- هي شوق ولا صالحة اللي بنت أصول يا حسن يا ابني؟ ابن شوق يبقى أفندي وابن صالحة يطفح الكوتة في الغيط؟
قلت لنفسي: ((شوق أحسن من صالحة ألف مرَّة.. أحسن منها يا كركوبة)).. وساد صمت.. واستمر لحظات.. في اليوم التالي جاءني سيد في الغيط خلف نقلة السباخ.. كانت في عينيه دموع وعلى خده آثار كف.. سألته فقال إنه صالح.. ((ضربتني أنا يا صالح)).
سألت صالح عن سبب ضربه للولد فعرض صدغه ناحيتي وقال بغطرسة:
- وإيه لما أضربه يعني؟ ياما الواحد شاف وانضرب.. حاكم انت كنت في مصر ويَّا شوق يابا.. دا انت بتخاف عليه قوي.
قلت له:
- دي العيشة كده ما تنفعش أبدًا.. طب ضربته ليه؟
اتكلم.. ولم يتكلم.. ظل معرضًا صدغه ناحيتي وكأنه يدفعني لضربه.. تماسكت.. قال صالح:
- إللي تشوفه مشيه.. إنما حكاية المدارس دي ممنهاش فايدة.
في العشاء قالت مبروكة وكأنها بكل شيء عليم:
- صالح إيده طويلة يا حسن.. لو كنت خايف على ابنك وديه لأمه تربيه.
وتكلم صالح كلامًا عجيبًا.. قال إنهم يعايرونه في الكَفْر ويقولون له: أبوك جاء يأخذ الأرض.. ويقولون له: طلع لك أب على آخر الزمان من تحت الأرض بعدما كنت بلا أب.
قالت مبروكة:
- قصر الكلام كده.. لو فضل ابنك في المدارس وابن بنتي يجري عليه أطلع من الدار وأفوتها لكم.
قلت لها:
- في ستين كسحة.. والمركب اللي تودي.
قالت:
- حيلك حيلك.. لهو أنت فاهم إن الدار بقت دارك؟ يا كبدي؟
قلت لنفسي إن مبروكة ما زالت في الدار تأمر وتنهى كما كانت في الماضي.. حتى صالح علَّمته أن يكون باردًا ونطعًا.. علَّمته وسيَّرته على هواها.. لو عاركت صالح يلومني الناس.. مصير الحق يصل أصحابه.. تذكرت ما قاله جدي عن الحريم.. قلت أحسم المسألة كلها:
- داري أو دار صالح ما يهمش.. أنا راجع المحلة.
ولم يمانع أحد ولو بكلمة.. كأنما كانوا ينتظرون مني أن أقولها بنفسي.. طرد لكنه مختلف.. طرد بالمعاملة.. وخرجت بالليل.. أخذت أمي وسيد وركبنا.. كنت أتحاشى مقابلة الناس وأتخفى وكأنني سرقت شيئًا.. ولم يطلع صالح ليوصلني، بل ظل جالسًا مكانه يشفط الشاي بصوت وكأنه يعاندني هو الآخر.. ركبنا ووصلنا البندر.. وطول السكة أقول لنفسي: ((الدار دار أبونا والأغراب يطردونا)).. وأمي كانت تعجب وتضرب كفًّا بكف وتقول عن مبروكة إنها قارحة ولا تخجل أبدًا.

* * *

في الشركة قالوا: وفرناك.. قلت: كملت.. ((صنعة في اليد أمان من الفقر)).. رجعت إلى مدرسة سيد القديمة وتحايلت على الناظر وسقت عليه الناس ليقبل عودة الولد والرجل راكب دماغه.. والكبار يحتاجون كلمة من الكبار فيهون كل أمر كبير ويصبح سهلًا ويسير التحقيق.. قلت أبحث عن رجل كبير ووجدته.. أعطيته مبلغًا وقال: ابعت ابنك مدرسته في صباح الغد.. والولد دخل

المدرسة والناظر قابلني ببشاشة وكأنني صاحبه.. قلت: إنه على كل شيء قدير، القرش عامل عمايل.
كنت أشتغل في ورشة النجارة والحالة أفضل من أيام الشركة.. قالت أمي مرَّة: خذ روحية بنت عمك رجب.. من دمك وتصون عرضك وتكون حنونة على الولد.. قلت: آخذها.. سافرت الكَفْر.. لم أرَ صالح.. أخذتها بعد ليلة ساكنة بلا فرح ولا زفة.. رجعت المحلة بها.. قالت أمي بعد أيام: أسافر البلد.. قلت: لا.. كان الولد يتعلق بها.. رغم محاولات روحية أن تبدو حنونة على الولد كان ينفر منها.. تعللت أمي بضيق المكان لكنني لم أوافق.
قالت أمي: روحية ضربت سيد على دماغه.. أخذت روحية في ركن وسألتها عن السبب.. قالت: كسر القلة.. ضربتها وقلت لها: لو كسر أغلى شيء هنا لا أسمح أنك تضربيه.. قالت والدموع ترحمها من يدي: حرَّمت ولن أعملها أبدًا.. ((حتى أنت يا روحية تضربين؟ ظللت تتمسكنين حتى حسبت أنك تمكنت.. نسيت أنك في القدم مداس أخلعه لو ضايقني وأشتري غيره؟)).. بعد أيام قال سيد نفسه: شتمتني بكلام قبيح عن أمي.. ضربتها مرَّة أخرى.. قلت لها: كله إلا الكلام القبيح وقلة الأدب.
وقالت أمي: لا تضربها كثيرًا.. خوِّفها فقط فربما تسم الولد، وأنت لا تعرف ((بدع)) الحريم يا حسن.. الولد يروح في لعبة.. وخفت على الولد من روحية وأخذت في تحذيره منها فيقول لي إن أمي أفهمته نفس ما أحاول أن أُفهمه.
وجاءني إعلام الوراثة على البيت.. سافرت وذهبت إلى المحكمة في اليوم المحدد.. وجدت صالح يقف بعيدًا ويرقبني دون أن يتقدم ناحيتي خطوة.. والقاضي لما سأله قال إنه اشترى ودفع الثمن.. ((أنت تدعي أنك اشتريت الأرض ودفعت ثمنها.. من أين جئت بالثمن يا ضلالي؟)).. عرفت أنه يكذب.. وأن الأوراق التي قدَّمها مزورة.. سألني القاضي إن كنت مستعدًّا للطعن في أقوال صالح.. قلت لنفسي إنه يمكن أن أكسب قضية الأرض وأخسر الولد.. ربما يقع في قضية تزوير ويروح فيها ويقولون في الكَفْر إنني كنت سببًا، وإذا كسب يقولون إنني حاولت الإيقاع به عند الحكومة ولم أفلح.. وفي كلتا الحالتين أكون معيرة الناس ولبانة يتشدقون بها.. ظللت ساكتًا.. قال القاضي: أجر لك محامي ما دمت عاجزًا عن الكلام ولا تعرف شيئًا.. وأجل القضية شهرين.
قالت أمي: سفرني الكَفْر أموت هناك بدل الموت في الغربة.. وأخذتها وأوصيت عليها الأهالي وعدت إلى المحلة.. كنت مهدود القوى وخائفًا على الولد من روحية.. كانت أمي تراعيه وتحرسه واليوم تنفرد به البنت وربما تتعبه.. كنت ألاحظ اتساع ملابس الولد وصفرته.. كأنه معلول.. أصبح كأولاد الشوارع.. قالت الساكنة إن روحية تجوع الولد وأنت في الورشة.. قلت لروحية: فوقي لنفسك وكُفي عن مضايقة الولد، صلحي أفعالك أحسن لك.. وكل ليلة أرجع من الشغل فأسأل الولد إن كان أكل.. فترد روحية بسرعة وتقول إنه تعشى.. ولما يسكت سيد ويمد يده للأكل ويأكل أعرف أنه كان جائعًا.. ولما أسهر في القهوة مع أصحابي أصحيه وأكتشف أنه بات بلا عشاء.. كنت أخاف أن تعمل شيئًا للولد ما دامت أمي في الكَفْر والولد طول النهار معها.
ولما نجح الولد في الابتدائية كثر زنها على دماغي تطلب أن أشغله في الشركة.. وقلت: تعلَّم وأصبح يحمل شهادة على كل حال وأنا خلصت من ذنبه.. دفعت لواحد من الأفندية رشوة فأخذها ووعدني بتعيين الولد.. لكنه أخذ الأوراق ولم يعينه.. والمدارس كانت بدأت الدراسة وأوراق الولد ما زالت عند الأفندي.. وصاع الولد في الشارع.. وكل يوم أذهب للرجل الذي أخذ الفلوس فلا

أجده، وإذا وجدته يتهرب مني ويعد وعودًا تجعلني أتشكك في أنه نصاب.. واشتكت روحية من شقاوة الولد وقالت شغله في صنعة بدل الرَّمح في الشارع.
ولما صهينت عنها أخذته هي بنفسها وراحت به ورشة حدادة واشترت له ملابس قديمة للورشة.. واستقام الولد أيامًا ثم بدأ يهرب.. يقول إنهم ضربوه، وأخذته بنفسي لورشة ميكانيكي سيارات لكنه كان دائبًا على الهرب منها كلما وجد الفرصة.. قلت لنفسي: الولد أخلاقه فسدت، بدأت أسمع كلام روحية وأضربه لأربيه وأعلمه.. قال زميلي محمود: ابنك صحته تعبت.. قلت له: كلنا تعبانين في عيشتنا وهو ليس صغيرًا ليهرب من الورشة.. قال لي: أنت التفت لابن روحية ونسيت سيد.. قلت لنفسي: محمود يدس أنفه في أمورنا ولا يعرف ما يجري من الولد.. لو بقي في الشارع يتعارك مع الأولاد ويسبب المشاكل، ولو راح الورشة يهرب ولا يستقيم، والأفندي أخذ الرشوة ليعينه وضحك علينا.. وروحية خلفت ولدًا صغيرًا وليس هذا شيئًا غريبًا لو اهتممت به هو أيضًا.. كنت فرحان بالولد الصغير أكثر من فرحتي بسيد يوم مولده لأنه جاء في أيام أحلى وظروف أحلى.

* * *

قال المحامي الذي وكَّلته بعد أن أخذ مقدم الأتعاب والرسوم: الولد ابنك لعب في الأوراق واستعمل ختم جده وزوَّر عقد بيع وأنا اطلعت على الملف بنفسي في المحكمة وشفت التزوير.. سألته: والعمل؟ قال: إذا كنت تريده يروح اللومان يروح، وإذا كنت تخاف عليه اتركني أتصرف في الموضوع.. تتنازل عن القضية وتسكت بعد ما نهدده ونأخذ منه قرشين ينفعوك، واتفق معي على نسبة ما يأخذه مما يدفعه صالح.
بعد مدة ذهبت للمحامي أسأله فتغيرت لهجته، وقال إن الأوراق سليمة، فلعب في عبي فأر الشك وبدأت أتوجس شرًّا.. ((ربما يكون المحامي اتفق مع صالح على إفساد القضية وأخذ شيئًا.. كلهم مثل المناشير طالعين نازلين حش في تعب الخلق)).. قال: ما يعرضه عليك ابنك خذه ولا تعارض، فما تحصل عليه يكون من حنك سبع، الأرض تحولت لصالح بموجب عقد بيع رسمي غير مشكوك في صحته.. ويوم القضية كان المحامي الذي وكَّلته مع صالح في انتظاري.. قال لما شافني موجهًا كلامه لصالح: أبوك مستعد للتنازل عن القضية لكن تشوف خاطره.. وسكت صالح مدة ثم قال: كتر خيرك.. كنت أراهما يتكلمان بالعيون وأحس أنهما اتفقا عليَّ أنا.. ((أستمر في القضية لآخر الشوط ولا أتحول إلى مسخة يضحكون عليها؟)).. قطع عليَّ تفكيري صالح بأن شدني من كوعي ومشى بي إلى ركن وقال وكأنه يخلِّص نفسه من ورطة وقع فيها: بدل المصاريف والفضائح خذ ما تريده من دون علم المحامي لأنه أخذ مني ثمن الصلح.. ((تساومني بعد أن زورت العقد؟ وتتفق مع المحامي أيضًا وتأتي لتعرض عليَّ الصلح؟ أأجر محامي آخر أم أصالحك يا صالح؟)).. قال: لن أهون عليك مهما كان الحال فأنا ابنك.. ((وهنت أنا عليك لما خرجت بالليل من الكَفْر وكأنني عملت عملة؟)).. جاء المحامي: قال في حماس من يريد أن يخلِّص نفسه ويأخذ: نتفق قبل الجلسة.. تتنازل ونخلص.. قلت لصالح: طيب يا صالح.. أخرج من حافظته نقودًا ومدها ناحيتي وهو يقول: ثمن المواشي، بعتها كلها وجبت ثمنها من أجلك.. صعب عليَّ حاله.. قلت له وأنا أنظر إلى المحامي وكأنني أطرده: ربنا يغنيها بالحلال يا صالح.. حط فلوسك معك واشتري مواشي فأنا مسامح ولا أريد شيئًا.. ((وجه المحامي كان ملهوفًا وأنا أفسد عليه رغبته في الأخذ مني)).. قال المحامي مستفسرًا: بقية الأتعاب؟ قلت له: بعد التنازل.. ودخلنا عند الموظف وكتبنا التنازل ومشى المحامي ينتظر.. فقلت له: ربنا يسهل لك من غيرنا يا عم،

كفاك ما أخذته وعملته.. وجذبت صالح وخرجنا من المحكمة وكأنما اكتفى المحامي بما أخذه أو خاف من الفضيحة فتأخر عنا ونحن نمشي خارجين من المحكمة.. قلت لصالح: أنا لا أطمع في شيء أكثر من أن يتصل حبل الوداد الذي انقطع.. قال: عرفت أنك سوف تتنازل.. وعرفت منه أنه كان يرغب في التسجيل فأوقفوه وأرسلوا إليَّ إعلام الوراثة، لكنني لم أهتم بما حصل.. وتركت صالح وسافرت رافضًا أن آخذ منه مليمًا واحدًا قائلًا إن الأحوال رضا.
قلت لروحية عما جرى، فقالت وكأنها هي التي خسرت الأرض والقضية:
- يا دي الخراب! اتنازلت دا إيه؟ دا انت كنت تاخد منه حبابي عينيه.. لاجل عيالك يا راجل.
قلت لها: اخرسي.. فلوت بوزها.. قلت إنها لا تهتم إلا بابنها هي، ولا تعرف أن صالح ابني أيضًا ولا يهون عليَّ.. وسيد.. سألتها عن سر غياب سيد فقالت لا أعرف عنه شيئًا منذ الصباح.. سألتها: جاء يتغدى؟ فنفت أنه جاء.. ولما رحت الورشة أسأل عنه وجدتها مسكوكة.. قلت: ربما الولد حصل له شيء أو طفش من البلد.. وقلبي بدأ يدق والخوف عليه يسيطر أكثر وأكثر.
في منتصف الليل سمعت أصوات خطوات على السلم.. فتحت عينيَّ وانتظرت، كان خبط على الباب وهمس.. لما فتحت وجدت سيد محمولًا على أكتاف ولدين من أولاد الورشة.. قال أكبرهما سنًّا: داست على رجله عجلة فلوتها وأخذناه للمجبراتي.. ونزل الولدان وفاتوا سيد جالسًا على الكنبة يتألم، فلما أغلقت الباب واقتربت منه، بدا خائفًا يتزحزح ناسيًا ألمه.. كان يحسبني سوف أضربه لإهماله في نفسه.. كلما أبتعد عنه وأنظر إليه خلسة أراه يتحسس قدمه المربوطة ويتألم.. أحيانًا يئن في خفوت مذعور.. لما أقترب منه يكش في نفسه وينظر إليَّ نظرة مذعورة متوجسة.. قلت أبتعد عنه وأجعله يرقد.. نظرت إلى روحية فوجدتها صماء وكأن الأمر لا يعنيها.. تلاعب الولد ابن الأسبوعين وتنظر إليَّ وكأن سيد لا يهم في شيء.. تذكرت خوفي من أبي.. قلت لنفسي: دماغك دارت مع روحية يا ولد.. الولد يخافك مثلما كنت تخاف أباك.. تمامًا.. أصبحت أنت عبد القادر، وسيد حسن، وروحية مبروكة.. نفس الحكاية القديمة تتكرر وأنت غارق حتى أذنيك في حواديت روحية.. ليلتها لم أنم.. روحية نامت وحتى لما كانت تقوم من أجل الولد لا تهتم بحالتي ولم تسأل حتى عن سيد.
كل يوم يأتي المجبراتي يدلك رجله المكسورة الملوية.. والولد لا تتحسن حاله أبدًا.. كل يوم تزداد الرّجل ورمًا وزرقة.. شافه زميلي محمود فبص إليَّ بصة لوم وقال: خذه للمستشفى.. أخذته إلى المستشفى الأميري.. قال الدكتور: حالته سيئة جدًّا.. لو تأخرت يومين آخرين كنا قطعناها له غصبًا.. بدأت أحس بالخطر حولي.. تخيلته برجل واحدة، فأمسكت يد الدكتور الشاب وحاولت أن أقبّلها راجيًا إياه ألا يقطعها أبدًا.. قال: لا تخف فسوف نحاول.. وشديده مني.. سألني عما أصابه، وسر الإهمال في علاجه، وكيف رضيت أمه بمثل هذه البلادة.. رحت أقول لذلك الشاب الغريب عني كل ما حصل لي.. حكاية سيد من أولها.. كل ما أحضر لزيارة سيد يعرف عنه الدكتور مزيدًا من التفاصيل.. وكل مرَّة ينظر إليَّ مستنكرًا وكأنه يلومني ويضيق بي.. لومًا لا أستطيع دفعه.. نظرته يمتزج فيها الاشمئزاز والضيق والكراهية وربما الاحتقار أو الإشفاق.. لكنه كلما ينظر إليَّ هذه النظرة لا أكف أبدًا عن السرد وكأني لا أهتم بغير كشف كل الحقيقة.. وهو في كل مرَّة ينظر إليَّ تلك النظرة وكأنه يرى شيئًا غريبًا وليس إنسانًا.
قدَّمت أوراق الولد إلى المدرسة كما أوصاني الدكتور.. لما خرج من المستشفى كان يمشي على ساقيه ويتوكأ على عصا أحضرتها له.. لكنه دخل المدرسة من جديد.. وارتاحت تقاطيعه نوعًا..

واستقام في المدرسة.. كل يوم يزداد تحسنًا لأنني أراعيه في كل شيء وأكف عن تخويفه أو ضربه.. والولد الصغير لما جاءته الحصبة حاولت علاجه.. في ليلة ازدادت حرارته وقلت إنها الحمى.. ولما مات حزنت عليه أيامًا.. لكن سيد أنساني موت الولد الصغير.. الذي حيرني أن روحية بعد أن كانت تتخفى في مضايقة سيد بدأت تضايقه حتى وأنا موجود وكأنها لا تهتم حتى بي.. ولولا حزنها على الولد لضربتها مثل أيام زمان.. لكنها كلما أسكت لها تزيد في أفعالها ضد سيد.. قلت لها مرَّة تعرفين أنني تربية امرأة أب يا روحية.. وأفهم شغل الحريم.. غضبت مني.. ليلة امتحان سيد كانت تبعثه يشتري لها جاز وسكر وكبريت وملح وسبرتو وعيش.. كل شيء مشوار كأنها تعطله عن عمد.. لما قال لها أنا تعبت ضربته في وسط الشارع بالمداس فوق رأسه.. قالوا إنها دست بوزه في فم الولد وحاشوها عنه وهو يبكي.. لما رجعت قالت لي واحدة من الشارع عما جرى فرمحت.. قالت الساكنة نفس الشيء.. كان سيد نائمًا فلم أشأ أن أصحيه.

من سُكات أخذت روحية إلى الكَفْر.. جمعت ملابسها وحملتها لها وأوصلتها إلى دار أهلها.. عملوا لي مجلسًا.. فقلت للرجال: عيشها انقطع.. قال عمي: فهمنا ما جرى.. قلت: ضربت سيد.. قالوا نضربها أو تضربها أنت بنفسك.. قلت: غلبت معها.. كل واحد يأخذ نصيبه.. كانوا يريدون صلحًا لكنني ركبت دماغي وقلت أبدًا.. قالوا: ادفع مؤخرها قلت أدفعه.. قال أبوها: الآن وأنت جالس بيننا ولا تتحرك من مكانك.. ((عملت حسابي وأكملته وأحضرته لأقطع كل الألسنة لما تطول)).. قلت: طيب.. قال عمي إبراهيم وكأنه يعجزني بنكتة: خمس ورقات في عشرة.. لا نقبل جنيهًا مفكوكًا.. قلت: موافق.. أخرجت لهم مؤخرها وجاء المأذون وخلصتها وتركت المجلس ورجعت للولد.

بعد يومين جاءوا إلينا في السكن وشالوا العفش كله.. المكتوب في القائمة وغير المكتوب.. وكلما أعترض على أخذ شيء يقولون رجعها ولا تركب دماغك في الشر مثل أبيك.. فأقول: أبدًا.. وتركوا لنا السكن على البلاط وفرشنا قش الأرز على الأرض وبتنا وكان الجو صيفًا فحمدت الله.. قلت: تتدبر الأمور بإذن الله وأسدد ديوني وأشتري فرشًا جديدًا ويكفيني أن يستريح سيد.

كنت أخاف عليه من عيون الناس.. لسانه طويل ودائب على الثرثرة.. لا يكف عن الكلام أبدًا.. بعضهم ينظر إليه بحسد والبعض الآخر يضيق به.. من يومه لسانه طويل.. يحكي كل ما يسمعه أو يدور في دماغه لأي ناس.. لما كان ولدًا صغيرًا يتعلم كيف ينطق الكلام راح الكَفْر وجاء يقلد كل من رآه هناك.. أضحكني على عبد الستار شلبي.. راح يمشي مثل أبي فمت على روحي من الضحك.. كل ما كان يسمعه يدور حوله يتذكره.. أفرح به وأخاف عليه من عيون الناس.. الناس لا تترك الناس في أحوالها.. ((الكعكة في يد اليتيم عجبة)).. من صغره يثرثر، هذه الأيام تتزايد ثرثرته.. يعجب الناس في الورشة لأنه أخذ الابتدائية.. ينظرون إليه كأنه فتح عكا.. يقول لهم دون حياء: وركنت سنة في ورشة الأسطى كمال وعلى سرير المستشفى.. أغتاظ منه.. يجعلهم يعرفون أحوالنا.. ابن صاحب الورشة أكبر منه، سيد في الثانوي وهو في الابتدائي.. يجالسه الحاج ويتكلم معه.. ألمح في عينيه حسدًا للولد.. أبص للولد لأمنعه من الاسترسال في الحكي والثرثرة فلا يكف.. أحسه يكيدني ويحكي مع صاحب الورشة.. كلما كبر يزيد كلامه.. أكره طولة اللسان.. أكره أن يتباهى النفر بروحه وبما يعرفه.. أريده ناصحًا لروحه لا يأمن لأحد.

لما كنت أشتري له ملابس جديدة ويلبسها يكون شكله مثل أولاد الملوك، من يومه تليق عليه الملابس.. وأفرح به وإن كنت أخاف عليه.. خفت عليه من نزول الكَفْر.. عيونهم هناك لا ترحم.. قالها واحد: العين كسرت الحجر نصفين.. أخاف عليه أن تكسره العين.

* * *

بت مقهورًا لما جاءني الخبر.. إحساسي باليتم يكتمل.. لم أهدأ ليلتها في انتظار الصبح.. في الصبح لم أتمكن من الحركة المعتادة.. قلت أرتاح ساعة أو ساعتين وأسافر وألحق الدفنة.. طالت راحتي كل اليوم.. كل ما أحاول المشي أتعب بعد خطوتين فأقعد.. ازداد الهم فوق صدري.. كلما أجدني عاجزًا عن المشي والسفر لحضور المأتم يزداد الهم والأسى.. ((هكذا تموتين بينما أنا عاجز حتى عن الحركة لحضور دفنتك.. وحتى المشي في جنازتك وأنت كل ما تبقى لي يا أمي؟)).

دخل المرض قاسيًا ورهيبًا.. أشد من كل المرَّات السابقة.. قلت إنه الروماتيزم يعود فيعض المفاصل ويدغدغها دغدغة.. وطال رقادي فقلت إنه شيء أخطر من الروماتيزم.. وصاحب الورشة زارني مرة وانقطع.. ((بحث لنفسه عن عامل غيري فما تهمه غير مصلحته ولولا أنني كنت أفيده ما شغلني عنده)).. طالت الأيام فلم يكلف نفسه زيارة أخرى.. انقطع الرزق وغاب الأمل.. زاد الضغط على القلب والخوف حاصرني.. سيد في التوجيهي.. والهم يتسرب إلى نفسه هو أيضًا.. يبدو مهمومًا وإن كست ملامحه محاولات للظهور بمظهره المعتاد.. أعطيته كل ما كان معي.. وراح يتصرف وحده في كل شيء.. كنت أحس أن سيقاني أكياس رمل ثقيلة يصعب عليَّ جرها على الأرض.. أتلوى من الألم وأكتم الآهات حتى لا أسبب لسيد مزيدًا من الأسى والحسرة وأجعله يلتفت لي ولا يهتم بامتحانه.. كلما أراد أن يسهر معي أجعله يتركني لكنه يعود ليرى طلباتي ويجهد نفسه معي ويذهب إلى الامتحان كل صباح.. ولما يأتي يفوتني أن أسأله عن الامتحان.. ولما انتهى أخذني وركبنا حنطورًا وذهبنا إلى دكتور قريب فكشف عليَّ وأخذ سيد على جنب وقال له كلامًا بصوت خافت فاحتقن وجه الولد واحتبس الدم فيه.. لما خرجنا سألته فلم يفصح أبدًا.. قلت له: يظهر أنني أودع.. فرت من عينيه دمعة وقال: اصبر واحتمل.. كان يلازمني ويداوم على تقديم العلاج الذي اشتراه.. لكن العلاج لم يثمر.. قلت له: ضاقت أحوالنا فابعث لصالح خبرًا ربما يأتي وينفعنا.. قال: أسافر إليه.. ((صالح نسينا يا سيد ولو كان يهتم بنا لجاء مرَّة بعد حكاية القضية)).. وسافر سيد.. ولما عاد عرفت من نظرته أن أمله خاب في صالح فلم أشأ أن أسأله.. قال سيد: قابلت عم إبراهيم وطلب العنوان وقال إنه سوف يأتي.

في مساء اليوم التالي جاء عمي إبراهيم.. عجوز يحمل في يمينه سبتًا صغيرًا وخلفه رجل يحمل قفة كبيرة.. حطها عنه وناوله الأجرة وأشرق وجهه بضحكة.. تاهت التجاعيد وهو يقول لي:

- فز قوم يا ابن الكلب.. راقد كده ليه.

قلت وأنا أتماسك إنني عجزت عن القيام والحركة.. ارتسم على وجهه غم كثير.. جلس على طرف السرير وراح يربت على كتفي مهونًا: ((شدة وتزول.. يومين وتقوم مثل الحصان)).. بان في كلامه أنه يداري أمرًا.. قال: صالح غرقان في دودة القطن.. ((دودة القطن.. وأنت جئت وفاتتك دودة القطن)).. قال: وجداني.. يكون في عونه.. ((وأنت تعرف أن المرض يبين العدو من الحبيب)).. تفكر عمي لحظة قبل أن يقول: صالح سوف يأتي.. يقول إنه ينتظر حتى يستعد.. همهم يائسًا ثم جرت على خده دمعة.. في حياتي لم أرَ غير ابتسامة.. لم أرَ لون دموعه.. كنت أحسبه لا يبكي.. طوال عمره يضحك.. حتى لما مات ابنه الكبير في عز صباه قال لامرأته أمام المشهد:

- بطلي ندب يا ولية.. الله جاب.. الله خد.. الله عليه العوض.

قالوا يومها: قلبه صخر لا يحس بالهم.. وقالوا: بحبوح لا يحمل للدنيا همًّا.. ولما بكى قبالتي رأيت في عينيه إنسانًا يبكي دموعه المحبوسة.. كأنه ركزها في دمعات تنسال خلسة بعد أن ظلت محبوسة عمرها الممدود بطول عمره.. دموع حزن قديم ينفجر في لحظة كذب لأنه كان يكذب في كل ما قاله عن صالح.. اضطر تحت وطأة اللحظة أن يكذب.. أحيانًا تجرنا الكذبة المقصودة إلى الدمعة.. ربما هي دمعة حزنه القديم تنفجر في لحظة ضعف لم يكن يعمل لها حسابًا.. ((تُرى هزمك الزمن الدوَّار يا عمي مثلما هزمني المرض؟)). رفع رأسه وكأنه ينفضه.. نظر إلى سيد وأخرج حافظة نقوده ثم قال:

- خذ يا وله.. اشتري لي ثلث دخان وتعالى.

((ما كنت تدخن يا رجل!)).. وعندما خرج سيد رفع الوسادة تحتي وحط شيئًا.. ولما نظرت إليه همهم يسكتني فلم أتكلم.. استعاد ملامحه القديمة وكأنه بعد ما حط ما حطه تحت الوسادة نفض أحزانه وهمه.. كأنه لم يعمل شيئًا يستحق مجرد التعليق.. قال وكأنه يسخر من شيء فات لكنه بقي أثرًا:

- تعرف يا حسن يا ابني، أبوك الله يرحمه بقى، كان غشيم زي الزمن، بيقولوا لقوا مطرح دماغه يوم الغسل قالب طوب أحمر.

كنت أعرف أنه راغب في إضحاكي لكنني لم أضحك.. كان قادرًا على إضحاكي في الماضي.. قالوا إنه يقدر على إضحاك طوب الأرض لو أراد يضحك طوب الأرض.. وأنا عجزت عن الضحك حتى ولو على سبيل المجاملة.. كان الهم فوق صدري وربما صدره أثقل من أن تزحزحه نكتة قديمة عن دماغ أبي.. يقولها بينما قلبه يبكي في خفوت مع قلبي.. ((وأنت السبب في كل هذا يا صالح.. ترى ماذا قلت لسيد.. وهل عرف عمي ما دار بينكما فجاء ليعوض ما حصل منك؟)).

قام وبدأ يفك تحبيشة السبت ويخرج طعامًا ساخنًا.. يرصه بجانبي على السرير.. ولما دخل سيد راح يداعبه ليزيل عن وجهه الكدر والولد حزين.. حلف يمينًا ما لم ننسَ الهم ونكون رجالًا لا يبيت عندنا الليلة.. حاولت أن أبتسم وحاول سيد.. كأنما المحاولة أثمرت.. اندمجنا في الضحك.. كأنما نسينا المرض والعوز وموقف صالح الذي هرب منا في الشدة.. قلت لعمي: نسيتنا الهم يا عجوز.. ضحك وقال: بطلوا هبل وكلوا.. كان يطعمنا بيديه ولا يأكل.. ويكتفي بسرد الحكايات عن أبي وأعمامي وجدي.. يتخير ما يثير الضحك.. قلت له وأنا أضحك: طول عمرك صاحب واجب.. قال: أنتم أولادي، ليس لي غيركم اليوم فاسكت وبطل كلام فارغ.

قام في الفجر وصلى.. صحَّانا وعمل شايًا بنفسه.. ((شاي البندر خفيف مثل عقول أهله)) قالها فضحكت.. قال: هناك مَثل يقول عن الضيف: أول يوم بدر منور.. ثاني يوم رغيف مقور.. ثالث يوم عفريت مصور.. وأضاف: وأنا لا أريد لنفسي أن أكون عفريتًا وكفاني أن أكون رغيفًا.. عرفت أنه ينوي السفر.. قلت: لا.. قال: لا بد أسافر اليوم.. سلم علينا.. هم سيد أن يخرج معه فحلف عليه ألا يخرج.. ادعى أنه ينوي المشي وحده ليتفرج على حريم المدن دون رقابة من سيد أو غيره.. ومشى.. وساد صمت بيننا بعد أن خرج الرجل.. أشرت إلى سيد فجاء.. أشرت إلى الوسادة فرفعها سيد من تحت دماغي وأخرج من تحتها حزمة جنيهات كان الواحد منها يساوي ألفًا في تلك الأيام السود.

قال الدكتور: سافر مصر.. ادخل القصر العيني.. لن يفيدك علاجي.

سافرنا مصر.. أتعبونا كثيرًا حتى سمحوا لي بالدخول.. بدأت أشم أنفاسي وأرتاح.. جاء سيد يزورني بعد أسبوع.. قال: قدَّمت أوراقي في كلية الحقوق.. فرحت.. ((ستكون كما كنت أتمنى.. محاميًا يختلف عن النَّصاب الذي أفسد القضية وبلع نصف الأتعاب وضيعنا يا سيد؟)).
كان نجاح سيد هو الذي جعلني أمشي وأدب على أرضية المستشفى.. لم يكن العلاج وحده يكفي.. ولا العملية التي أجراها أستاذ كما يقولون.. كان عليَّ أن أقوم ما دام سيد قد نجح.. ها هو يدخل الجامعة كما كنت أحلم ويحلم.. لا بد من الشغل لأوفر له المصاريف.. لا بد أخرج من هنا لأواجه الناس وأكلمهم عن سيد ونجاحه.. ها هو المشوار يبدأ من جديد.. لكن يهون كل شيء ما دام سيد يتعلم ويتقدم.. سوف تفوت الأيام السود ويصبح الولد محاميًا له اسم كبير.. يومها أنزل معه الكَفْر وأفخر به وأتباهى في خطواتي.. أجعلهم يقولونها: ابنه أفلح.. أنظر إلى وجه صالح وألومه.. أهز الدماغ له ولا أتكلم.. أجعله يفهم أنه لا يساوي شيئًا.. والجرح يومها ما كان يؤلمني رغم عمقه وقسوته.. كان في سلسلة الظهر جرح طويل مفتوح.. بمشرط أستاذ طبيب لكنه ملموم.. كل ساعة أرغب في هرشه وأمنع نفسي وأتماسك ليطيب.. لكن الجرح الذي في القلب كان يجعلني عاجزًا عن التوقف عن الإحساس بالأسى رغم كل شيء.. حتى نجاح سيد ما كان قادرًا على جعلي أنسى صالح.. ((حتى وأنا مربوط في سرير مستشفى لا تأتي لتراني يا صالح.. كأنك ابن حرام.. كيف يطيب جرح القلب منك وأنت تعرف كل شيء ولا تهتم؟ ما لم تكن أنت مع سيد معي وحولي وفي خيالي فمن غيركما يكون معي؟)).. ولما جاء سيد يوم الخروج نسيت نوعًا.. لكنني سألته: كيف يطيب جرح القلب يا سيد وصالح لم يكلف نفسه مشقة المجيء ليراني؟
ولما رجعت المحلة اشتغلت في ورشة أخرى.. لكن المكاسب كانت أقل.. قلت: مطالب الجامعة كثيرة ولا تكفي اليومية.. في البيت وضعت العدة وكنت أشتغل للناس أيضًا.. وسيد عمل اشتراكًا في القطار وكان يسافر كل يوم ويعود في المساء.. لكنني كلما أراه أفرح.. أقول يهون الشغل ما دام الولد في الجامعة.. أنتظر نجاحه بفروغ صبر.. أحس أنه لا بد أن ينجح.. لو تنقضي الأيام بسرعة.. لو تفوت الأيام وينجح.. ونخلص.. ولما نجح في المرَّة الأولى اطمأن قلبي.. كل ما كنت أخشاه أن أعجز عن الشغل قبل أن يكمل تعليمه ويصبح كما يرجو وأرجو.

* * *

شمروخ أبي في يدي وأنا أستند إليه.. مشواري إلى المدافن اليوم في طراوة الصبح.. مربعات الأرض المزروعة بالخضرة.. والنسيم يهف فيفيق الدماغ ويحس.. كلما يموت في الكَفْر نفر يأتون ويندبون.. ((فيمَ الندب والبكاء ما دمتم تعرفون أنه لكل أجل كتاب؟)).
صباح العيد.. والأحياء يأتون يطلبون الرحمة للأموات.. أشعر بالونس.. أجلس بعيدًا وإن كنت أحس بالونس.. يتسامرون أم يعزون ويطلبون الرحمة؟ في الصبح لطم الحريم وندبهن.. وفي الليل الشماتة والسمر.. الأولاد يأتون وفي عيونهم أشياء: البنات.. وكنا مثلكم نأتي إلى المدافن في صباح العيد ننظر إلى البنات ونتمنى أن نلعب.. أن نلعب مع البنات لعبة الكبار التي نسمعهم يتباهون بها.. ولما يحس الواحد منا بأنه أصبح قادرًا وراغبًا يأتي مع الأولاد الكبار.. تنشغل البنات بنا.. نتصنع أننا حفظنا القرآن ونتلو ما يجيء على الخاطر.. على روح الأموات نقرأ الآيات التي نذكرها.. لما ننسى نكمل من أي جزء آخر.. كله قرآن.. تضحك البنات وكأنهن يعرفن أننا نتلاعب وندعي.. ومن طرف العين نرقب الوجوه المحجوبة.. نرفض أخذ الرحمة فنحن أولاد ناس جئنا نقرأ من أجل الرحمة للأموات وليس بثمن.. طلعة العيد أيامنا كانت تختلف.. البنات..

الوجوه النسائية التي حجبوها عنا.. نسأل من يعرفون عن الأسماء.. نعشق من بعيد.. لا نجسر على القول.. لا شيء غير القرآن لغة.. غاية ما كنا نقدر عليه النظر إلى وجوه وصدور البنات الفائرة.. تأتون أنتم وتتصنعون الحزن على أمواتكم.. أسأل إن كانوا يعرفون الحزن كما عرفته؟ يتسامرون أكثر الوقت.. الرجال والحريم في أحواش المدافن وعلى مداخل التُّرب.. الأولاد والبنات يبدأون الرمح وأحيانًا الضحك بصوت عالٍ مكشوف.. في الأركان يكون النظر واللمس.. أشياء كثيرة تتم خلف الحيطان بعيدًا عن الأعين.. أعرف.. أعرف ولولا كبر السن لمارست لعبة المدافن الجديدة في فجر العيد.

كلما قابلت ولدًا شقيًّا يبحلق فيَّ ولا يخاف.. صادفت بنتًا شفتها وكانت تحسبني لم أرها تعبث مع الولد.. في المدفن كان العبث وتابعت هي المسير قائلة في غير اهتمام:

- ما تروح داركم يابا حسن.

تتثنى في مشيتها.. الولد في أثرها.. الحريم.. بدع الحريم.. والولد لما كان يتسلل خلفك ويلبد معك خلف تربة علي شلبي.. ولا أراه حقًّا، وإنما أسمع صوته مخلوطًا في همسات رفضك الأولى قبل أن تكون الاستجابة.. وبعدها تعودين ولما تسألك أمك تقولين بصوت مطمئن واثق:

- كنت باعمل زي الناس.

أي ناس يا فاجرة؟ أنت حرة.. والولد يلف مثل النحلة. يحوم حول الكل ولا يسأله أحد.. ومَن يسأل الولد؟

يقولون إنني بكثرة زيارتي للمدافن أدفن نفسي حيًّا.. أنتم الموتى.. هنا الدنيا كلها.. الرجال الكبار الراقدون في سكون.. يرقبون كل شيء ولا يتكلمون.. لو كانوا بينكم ما رضي نفر منهم بما يراه ويسكت اليوم.. فيمَ الغضب والخجل؟ كانوا يفعلونها ولو بشكل آخر.. والحريم كن يعملنها علنًا أو في الخفاء.. حلالًا أو حرامًا.. ليكون أولاد وبنات.. لتكون الدنيا.. رجال وحريم.. ليظل الكَفْر يعطي نسله المبروك.. ها هو أراه قبالتي من جديد.. بوجهه الأسمر وعوده الممدود.. ((طالت غيبتك هذه المرَّة يا سيد.. عطلك أبي أم برهومة؟)).. أستعيد نبرات صوته.. في الجنة أنت يا ولدي.. حولك حور الجنة.. أسمعهن يغنين لك.. يتزاحمن حولك الآن.. أبي.. برهومة.. أعمامي.. جدي.. أمي.. يتوه صوتك يا سيد.. تتوه ملامحك.. أراهم يزحفون حولك.. الأولاد والبنات والأطفال والرجال يتحركون.. يفسدون عليَّ رؤية الموكب الحقيقي.. موكب الرجال الذي أهواه لا يتكرر كثيرًا يا أهل الكَفْر فانزاحوا لأراهم.. يدبون الأرض فيضيع هسيس الموتى وصوت الأغنيات المألوف.. تتوه الرؤية.

وأنا أسعى هذه اللحظة بمشروخ أبي أتوكأ عليه.. أدب الأرض مثله.. من أين تأتيني كل هذه القوة على كبر؟ كأنني أبي.. أناديهم بالاسم ولا أسمع غير صوتي.. يكتفون بالالتفات ناحيتي.. أصابهم صمم.. ربما صوتي محبوس.. لكنني أسمعه.. أصرخ: سيد.. برهومة.. أبي.. لا رد.

يأتي الأولاد.. أولادنا الصغار.. يرشون ماء القلة البارد.. أفتح العينين وأكتشف الخدعة.. كأنهم تخفوا في وجوه القدامى ولما رشوا الماء بانت الحقيقة.. امشوا يا أولاد الأبالسة.. الأسماء نفس الأسماء: برهومة.. سيد.. عبد الحميد.. سيد آخر.. سلومة.. شعبان.. عبد الغفار.. عبد القادر.. إبراهيم.. الأسماء القديمة محطوطة في أبدان صغيرة.. أسماء الموتى على الأحياء.. دوري يا ساقية الأيام ولا تكفي أبدًا عن إعطاء النسل الجديد.. اجعليه يأتي.. اجعلي الكل يأتي من جديد.. يذوب في الفراغ لكن الاسم حي في آخرين.. التراب الناعم تسفحه الريح وأنا أتكئ على أكتاف

الأولاد الصغار.. أسألهم إن كنت قد نمت؟ يقول البعض إنني كنت نائمًا والبعض يقول إنني غبت عن نفسي مدة.. التراب الناعم من أثر خطوات من سبقونا تسفحه الريح.. يدخل المنخار.. أشمه أولًا.. أجده يتسلل إلى البلعوم.. أبتلعه.. أذوقه.. تراب مدافن الرجال الناعم في الحلق.. نبتلع التراب قبل أن يبتلعنا.. غدًا يبتلعنا التراب يا أولاد الأبالسة.. تحيطونني كأنني عريس ليلة الزفة.. أضربكم بالشمروخ لو كنتم تعبثون.. يقول الرجال لما يلمحون خطوي: كأنه عبد القادر يعود من المدافن بعد طول غياب.. عبد القادر يعود يدب بالقدمين ويلوح بشمروخه في وجه الريح.
((لما أموت يأخذ صالح الشمروخ.. يمشي في دروب الكَفْر يخوف الأولاد.. لكنه جيل لا يخاف.. يتجاسر علينا ويطل ويتكلم.. زمان جديد، أنت يا ولد.. أنت يا ولد يا ابن الكلب خذ يدي فالظلام حل وما عدت أميز الطريق إلى الدار)).
أدخل الدار.. الليلة أجلس فوق دكة النورج.. اليوم عيد عند الأموات كما هو عيد عند الأحياء.. تأتي البنت بالأكل.. هذا طبيخ ولحم.. لحمكم وقيع يا بنت الكلب.. كأنه لحم جمل عجوز.. أنتم مساكين.. على أيامنا كنا نشرب السمن شربًا ولا نشبع.. أولادك مساكين يا صالح.. البصل ومش الجبن هرى جوفهم.. اللحم في المواسم والأعياد.. البيض للبندر.. السمن للبندر.. الطيور للبندر.. ويتبقى الجبن إن تبقى.. أيامكم فقر في فقر.. يا فرحتي بزيادة العدد.. تأكلون لحم الوقيعة.. تفرحون.. وأنت يا صالح أراك ساكتًا.. كأنك انحنيت أنت أيضًا.. مصاريف الأولاد في المدارس.. الجمعية والكسب.. الكيماوي ودودة القطن والرش.. أيامنا لم يكن هناك رش.. نقلة السباخ كانت تكفي.. عبد الوارث أفندي صاحب الجمعية حرامي قارح.. وجماعة شلبي ركبت أنفاسنا بعد أن علَّمت أولادها في المدارس والجامعة.. لو ظل سيد.. استمر يا ولد في تعليم الولدين والبنت: محمد حكيم.. أحمد محامي.. علمهم يا ولد ولا تتراجع مهما كان الأمر.. لو بعت ما تبقى من الأرض علمهم.
البنت تأتي بخنصر الشاي وتمد إليَّ الجوزة.. تحط النار جنبي وتغطس في المندرة.. صالح يأتي ويجلس بجانبي.. أناوله الجوزة.. دخن يا صالح لتنسى المشاكل.. تأتي البنت بخنصر شاي لصالح وخنصر آخر لي.. شاي مر وأسود.. ((منذ أيام اختفى الشاي.. داخ صالح.. التموين لا يكفي.. من غير الشاي ترجع اللقمة)).. صالح يناولني ورقة المعسل ويقول إنه ذاهب لصلاة العشاء.. تعلمت الصلاة يا صالح؟ يأتي الولد الصغير ويحوم حولي.. آخذه وأقعده على حجري.. أخرج من جيبي كوز الذرة المشوي.. أنا وله للولد.. يفرح به.. يغرس أسنانه في حبات الذرة.. كأنه لم يشبع.. ومَن يشبع هذه الأيام؟ الجوع في أسنان الولد الصغير.. لسانك أخرس فلا تطلب مزيدًا من الأكل أم أنك تفهم الحكاية من أولها لآخرها رغم صغرك؟ كُلْ يا شاطر كُلْ.

* * *

قابلت سعاد في سكة البندر.. جاءت ناحيتي وسلَّمت.. مشت تحكي عن الجامعة.. كان سيد مثلك في الجامعة! دعوت لها بالنجاح.. ((ها أنت يا شوق تجدين عوضًا عن سيد.. وأنا أيضًا)).. في عينيها حب وصدق.. كأنني خلفتها.. لماذا لا تكون هذه البنت بنتي أيضًا.. أحس بالحب لها.. أفتح لها قلبي.. أقول لها إنني أذهب إليه كلما ساعد الجهد.. تقول إنها تعرف.. تحبني.. أحبها.. بنت طيبة.. كأنها شوق أيام أخذتها معي.. يرتاح الواحد لها.. تحكي: المواصلات صعبة قوي هنا.. الواحد يمشي ولا يفضلش ملطوع يستنى.

قالتها لتفتح موضوعًا جديدًا.. قلت لها إننا كنا نمشي هذه المسافة دون أن نحس أننا مشينا.. من أيام الكيماوي ما دخل الزراعة قل الخير.. الناس أصبحت أضعف.. تضحك.. تظهر بنايات كَفْر عسكر الطينية.. نصل إلى الكوبري.. تقول لي: تفضل عندنا.. أود لو... أقولها دون وعي.. ليته من الممكن أن أحضر معك.. لكن مستحيل.. من جعل المستحيل مستحيلًا يا سعاد؟ الناس.. الناس جعلوا المستحيل مستحيلًا.. أشوف شاكر.. لا أرتاح له أبدًا.. أرتاح لك.. سيد كان يرتاح لك أكثر.
- شاكر طينة لوحده.
أعرف أنه دائم المشاكسة.. ليس مثلك يا سعاد.. تطول الوقفة أود لو أقولها.. سأقولها:
- اسمعي يا سعاد.. سلمي لي على شوق.
أسير وحدي.. لم يعد هناك خصوم لي.. صالحت الكل.. بعدك يا سيد ما عاد عندي من أخاصمه..
قلتها مرَّة أخرى:
- صحيح يا سعاد.. سلمي لي على شوق.

صالح عوف

(١٩٢٥ - ١٩٧١)

((في كَفْر عسكر لا يكون الحلم سيد الأخلاق، تنقلب الآية ليصبح العنف سيد الأخلاق، هكذا عرفتهم، ربما لأنني كنت بينهم مثل عيسى ابن مريم بلا أب يمنحني الحماية)).

وجاء الزمن العويل بأيامه الخسيسة، فانزاحت الأصول القديمة تداوي جراحها التي أسفرت عنها المعارك، تلعن الزمان الغادر وتلعق الجراح، وما تبقى لأولاد الأصول إلا الفرار إلى حضن الأيام الخوالي بنصف الوعي الباقي إثر الامتصاص الدؤوب لدخان الحشيش.. حتى الصنف غشوه وأصبحت الغيبوبة في أغلب الأحيان زائفة، يتطوح الدماغ بفعل الهم الراسخ على الصدور المنهوكة من كثرة الشد المسعور لسحابات الدخان، تعز لحظة التجلي المأمولة فنرتضي بالتوهان، نجاهد في عسر أن نستعيد ما كان، هروبًا من خسة الأيام، نحكي عن العز القديم ونرتعب من لحظة الإفاقة التي تحطنا وجهًا لوجه مع ما صرنا إليه.
عمدة بلدنا من جماعة شلبي.. وكان الله بالسر عليمًا.. شيخ غفر بلدنا من جماعة شلبي.. والله على كل شيء قدير.. صرَّاف بلدنا من جماعة شلبي.. وهو الغفور الرحيم.. لنا مشيخة البلد ولهم دوار، والجدار الواطي تخطيه الكلاب.. كنا في نومة فعبروا فوق أبداننا وداسوا اسمنا لما حطوا النعال على أرضنا المسلوبة.. الرجال السمر القدامى راحت أيامهم وما عاد لأي اسم منهم نفس الرنين: عبد القادر عوف، الحاج مصطفى عوف، سعد عوف، عبد الحميد عوف، وأخيرًا وهو الأدهى سيد عوف.. كلهم راحوا وخلَّفوا مساخيط تجعجع من باب التباهي بما تبقى.. يتحايلون على الحياة بما تحت أيديهم من قراريط لا تجود بالخبز إلا بعد الضنى وهد الحيل.. أصوات تتقاطع وتتزاحم في محاولات صبيانية لتأكيد وجودها شبه المعدوم.. يحكي مهرجنا العجوز الذي تبقَّى من جيل الرجال عما كان فنسكر بالحديث، يسخر مما فعلوه وما قالوه فيضحكون، أتمثل وجه جدي عبد القادر فيستعصي على الدماغ نصف المدرك، أتذكر زنده الملفوف القابض على الشمروخ فأستعيد الملامح، وجهه الصارم الذكر وعوده الممدود وكأنه مارد من عالم بعيد، أحس الحسرة وأقول لنفسي بينما أطالع الوجوه أمامي إنه سيكون عسيرًا بحق أن تأتي من ظهور جماعة عوف خلفة قادرة على إعادة الزمن الأصيل، أقول إن حقل الرجال الشداد أجدب، إن بذورنا خابت لأن من غرسوها – مطمئنين إلى قدرتها على الإثمار – نسوا أن يحسنوا رعايتها.. ها هم أولاد جماعة شلبي بوجوههم المخطوفة يسودون ونكتفي بالثرثرة.. وها هم أولادنا ساكتون على كل المهانات.. راضون بكل ما يجري.. يتصارعون فيما بينهم حول القراريط.. بارعون في الوشاية.. أولادهم حفاة.. لا يخجلون من تأجيرهم للفرقة لقاء نصف الريال اليومي، يرددون فيما بينهم ما سبق أن سمعوه.. جماعة عوف أصل البلد، تشرفنا.. جماعة عوف نطفة طاهرة، أهلًا وسهلًا بنسل الحسين.. جماعة عوف كانوا وكانوا، يا هنانا ويا سعدنا.. يخطفني اسم جدي عبد القادر على لسان الجد إبراهيم: كان سيد الرجال.. ((ينسى أن نعل مداسه كان يساوي عشرات من أعناق الرجال الهياكل في كَفْر عسكر)).. ألف رحمة تنور قبرك يا زين الرجال، يا آخر طرح مبروك في شجرة أولاد عوف الكبار.. بعد أن رحلت يا رجل عجزنا عن لم الشمل، واجهنا ليل الزمان العويل غير الراغب في الانتهاء.. وحتى ما تبقى لم نحسن حراسته، الأغراب يتسللون إلى دربنا ويسرقون، ونجتمع لنعرف من أخذ مواشي العم مصطفى فيتحول المجلس إلى سهراية لا نفع منها ولا جدوى. وسيد عوف قتلوه في مدخل الكَفْر وكأنه غريب، والفاعل مجهول.. هكذا بعد الأربعين لا يستحق النفر منكم إلا مصمصة الشفاه وإلقاء العظات: الأعمار بيد الله، كلنا أموات، أعطني عمرًا وارمني في البحر.. والرجل هناك في الدار فاقد لنصف عقله بعد ما مات سيد، في الدار وليس فيها، يراني ولا يفهمني.. جئت تنعي ابنك الآخر وترمي عليَّ همومًا لا تطاق.. جئت عاجزًا

وهزيلًا لتؤكد لأولاد الكَفْر أنك أبي الضائع على مدى السنوات ورفضت أن تبقى لما كان العزم والعقل عندك؟ ولا حيلة لي في إعادتك واعيًا بما يدور حولك.. قمت من مجلسهم رافضًا عروض البقاء.. وحدي أقطع الدروب إلى الدار وتنبح الكلاب.. وحدي أنعي كفرنا الخسران وتنبح الكلاب.. وحدي كما عشت عمري ونباح الكلاب المسعورة لا يكف.. وعتمة الكَفْر لا تبعث إلا على الخوف مما تأتي به الأيام.. الكلاب الغريبة دائبة على النبح كأنها تغيظني بنباحها المتواصل وتقول إنها جاءت لتحرس من أصبح الكَفْر كفرهم ونحن لهم تابعون، تحرسهم كلاب ونتكل على من لا يغفل ولا ينام، لكن كيف سرقوا مواشينا ومن سرقها؟ ((الفاعل مجهول)) جواب مريح على كل الأسئلة حتى ولو كانت تخص من قتلوه عند مدخل الكَفْر وكأنه غريب.. ((لماذا جئت يا سيد في زمن أصبحنا فيه غرباء في كَفْرنا الملعون؟ لماذا لم تأتِ في زمن القدرة؟ ولماذا كان عليَّ أن أعيش لأرى انطفاء شعاعنا القديم، محبوسًا في خدعة اسمها الدار والأولاد؟)).. في السوق يسألونني لما أقول لهم إنني من كَفْر عسكر: تعرف الحاج مصطفى شلبي؟ تعرف الدكتور صلاح شلبي؟ ولا المهندس ممدوح شلبي؟ ولما أدعي عدم المعرفة يقولون: أنت تخدعنا.. مَن في كَفْر عسكر لا يعرف جماعة شلبي؟ الناس تنسى.. نسوا جماعة عوف، نسوا الحاج بدر عوف، والحاج مصطفى عوف، والشيخ سليمان عوف، وصالح عوف الكبير، وعبد القادر عوف.. كأنما ورثتنا جماعة شلبي على الحياة.. ربما لأنهم يلعبون بالجنيهات ببجاحة، عيونهم مفتوحة وتجارتهم رابحة، يزودون في ثمن البهيمة بالخمس جنيهات ويضحكون، والأرض التي أخذوها من نسلنا الطاهر وزرعوها فواكه وحوطوها بالأسوار تئن طلبًا لمن يرفع عنها الأقدام ولا من يسمع.. جماعتنا في توهة، يتكاثرون إنما بلا قيمة، فالقراريط هي القراريط لكن في وضع الاستعداد لمعاودة التقسيم ووضع الحدود، قال جدي عبد القادر: علموا الأولاد في المدارس.. قال سيد عوف: عيبكم أنكم تجاهلتم وجود المدارس والجامعة ومراكز التدريب.

- مين هناك؟

وسكت الصوت، ابن بهية يقولها وينام أو يتحسس بالكشاف طريقه ويبربش بعينيه ليتعرف بعُسر على العابرين.. قلت:

- أنا صالح عوف، وأنت مين؟

لم يرد، كان الكشاف عند آخر الشارع يتعثر ويحاول أن يجد لنفسه طريقًا مستقيمًا، قلت لأعرفه مكاني فربما لم يسمع، ربما فقد أذنيه أيضًا:

- انطق يا لطخ.

كان الكشاف يقترب.. ينير الشارع وتتبعه الخطوات.. أصبح الكشاف موجهًا إلى وجهي.

قلت بضيق:

- ما ترقد يا ابن بهية وبلاش زغللة في وش الرايح والجاي.

- والدرك؟

- لأ فالح يا وله وبهايم أبوك مصطفى لما راحت م الدار كنت فين؟

- ف الدرك.

- الله يرحم خالك، ما تقوللي يا وله، ابن مين اللي سحب جوز البهايم؟ حديك خمسين قرش.

- وأنا اش عرفني بقى.

- طب روح لأمك تعشيك.

لطشته على كتفه حامل البندقية وأزحته عن طريقي.. زمن أعوج، ابن بهية يحرس الكَفْر، أعمش ومسلول ويحرس الكَفْر من لصوص الليل؟! ألم أقل إنه زمن عويل؟! الناس في توهة والكَفْر في نومة.. ما عاد الحلم سيد الأخلاق، قلبوا الآية أولاد الأبالسة، أصبح العنف سيد الأخلاق.. العنف سيد الأخلاق يا كَفْر عسكر.. من سماها كَفْر عسكر؟ من عيَّن ابن بهية لحراسة الكَفْر؟ من سحب المواشي من دار مصطفى عوف؟ دارك واطية يا عم مصطفى.. قلنا إن الجدار الواطي تخطيه الكلاب.. ليل شتاء الكَفْر طويل والرطوبة تنفذ في العظم، والسهرة كانت كعدمها.. حتى الصنف غشوه، حتى الصنف غشوه؟

قال سيد عوف قبل مقتله بشهر: بالعقل تنحل المشاكل وليس بالعنف وحده يا صالح.. قلت لنفسي يومها: هو أفندي ناعم تربى مع تلاميذ المدارس وتوظف مع أفندية يخاف الواحد منهم أن يتعفر كم قميصه، هنا دنيا أخرى.. بالعقل لا تنحل مشكلة.. لو كنا كما كنا هل كان سيد عوف يرتمي رمية الكلاب عند مدخل كَفْر عسكر، وكنا نعجز عن معرفة الفاعل كما حدث؟ لو كنا أقوياء هل كانوا يسحبون مواشينا من دورنا؟ العمدة قال إنه لا يعرف، وأضاف إنه غير مكلف بحراسة مواشينا، دلدول وناصح مثل بقية أولاد شلبي.. شبعت بطونهم فتحركت ألسنتهم إنما لا يفكرون في أخذ المواشي، فلصوص العالم درجات كما قال سيد.. ربما أولاد الزفتاوي، لكنهم تابوا بعد ما مات أحسنهم في المعتقل.. العمارية، السلامية، تيوس جماعة سعد الـله، ربما مرزوق ابن سليمان، لا أعرف لماذا يلح على دماغي طوال هذا اليوم، كلما أبعدته يعود.. ((بالعقل تنحل المشاكل)).. دارهم قريبة من دار العم مصطفى، لهم باب على السكة الزراعية، الولد كان محبوسًا وله في الكَفْر سوابق.. مرزوق ابن سليمان يعملها، ربما غمز ابن بهية بجنيه أو جنيهين، ابن بهية دلدول، يفرط في شرف أمه لو شم رائحة الفلوس، يبيع الكَفْر كله بأنبوبة مرهم بنسلين تبرد التهاب جفونه الدائم، ملعون سنسفيل جدود من كان سببًا في تعيينه.. مرزوق يعملها، كان يحوم في طرقات الكَفْر ويتبصص على شيء يلهفه، رمى بلاه على شاكر وأخذ علبة السجائر وطالبه ببقية الجنيه، شاكر حلف بشرف أمه إنه لم يأخذ من مرزوق مليمًا، أبعدته عن البوابة وقلت له كلمتين وزغدته مرتين.. ربما قرأت في عيون ابن بهية اسم الولد مرزوق لما سألته عمن سحب البهائم، لكن كيف تعكس عينان دامعتان موجوعتان اسمًا لشخص غائب؟ عينا الولد ابن بهية كانتا تزوغان مني، لو كنت عاودت السؤال ربما كان قالها: مرزوق.. زمن أغبر، القوالب نامت وقامت الأنصاف، أنصاف الرجال قاموا يعبثون، رقد الرجال فاستباح العيال مالهم، استغلبونا على آخر الزمان، استغلبوا جماعة عوف.. كأنهم سرقوني أنا، من يكون مرزوق وسط أولاد الليل الذين قطعنا دابرهم من الكَفْر؟ ابن ليل جديد يطل علينا ويرعبنا في الزمن الخسيس؟ ترى هل باعهم في سوق البندر أم أنه خاف، ربما سربهم في الليل بمعرفة ابن بهية، ربما يبيعهم غدًا في سوق الخميس، يسحبهم ويرميهم لأي جزار ويأخذ أي ثمن.

دخلت باب الدار المفتوح.. كان الرجل قد نام والأولاد ناموا.. باب الدار مفتوح.. لو دخل أي نفر وسحب مواشينا ما أحس به أحد.. المال السائب يعلم السرقة.. المال السائب يعلم السرقة.. دورنا مفتوحة في زمن غير الزمن الأول.. الباب المسكوك يمنع القضاء المستعجل، لكن من يعودنا قفل الأبواب وقد عودونا أن الدار أمان والدنيا بخير.. دعبست حتى وجدت الحِرام، تلفعت به وخرجت ولم يشعر بدخولي أو خروجي أحد، ربما انتصف الليل.. عدت متجهًا إلى دار سليمان، قلت لنفسي أجرب ما دام النوم طار من العينين.. كان الدرك الذي يحرسه ابن بهية يغط في نومه بعد ما نام

حارسه.. حومت حول الدار وتسمعت الأصوات فكان السكوت جوابها، لو كان عملها لكان هناك على الأقل صوت أو حركة.. قلت هي ليلة يعلم بها ربنا، وخبطت على الشباك، لم يرد أحد، بعد معاودة الخبط فتحت أمه الشباك.. سألت بفزع وهي تتبصص على من خبط:
- مين؟ من اللي بيخبط؟
قلت وأنا أغير صوتي وأتخفى بالحِرام:
- واحد زميله.
- زميل مين يا خويا؟
- زميل مرزوق.. مش دي برضه دار مرزوق؟
- أيوه.. بس هو نايم.. عاوزه ضروري؟
- لأ.. أبدًا.. أبقى أفوت عليه الليلة الجاية.
- طب انت مين اسم النبي حارسك أقوله.
وتركتها دون أن أرد.. لا بد أنني جننت.. ترى أليس في هذا الكَفْر لص إلا مرزوق، لو كان سرق المواشي لباعهم ساعتها، ولو كان في داره لخاف.. ولو تجاسر وأبقاهم لطلع بهم الليلة إلى سوق الخميس.. لا بد أنني مسطول.. ((ليلة كحل وقطران)).. مالي حتى بمواشي العم مصطفى.. ((المال السائب يعلم السرقة)).. هو حر في ماله.. أكون في حالي.. لما تعاركت مع أنفار الوسية كان يراني ولا يفكر حتى في المجيء ليرى ما يجري في المعركة.. كل واحد غرقان في أحواله، من منهم تحمس من أجلي في شيء؟
ودخلت الدار.. كان البواب الموارب يسمح بخروج خط الضوء الرفيع علامة تميزه عن كل الدور المغلقة.. سمعت الرجل يكلم نفسه فلم أشغل نفسي بالرد عليه.. التففت في اللحاف ورقدت.. سمعت صوت الشيخ سليم عوف يجلجل في وسط السكون بأذان الفجر.. وبدأت في أعقاب كل تكبيرة أصوات الديكة تؤذن والكلاب تنبح.. بعدها تداخلت الأصوات ولم أعد بقادر على تمييزها وسط النحنحات المتحركة في اتجاه الزاوية في مشوارها المتكرر لأداء الصلاة.

* * *

لما كان الأولاد يسألونني عن أبي أقول كما سمعت: مسافر مصر.. وأضيف من عندي: وراجع.. في أول الأمر كنت أحس نوعًا من التفوق لكون أبي في مصر، إنما بعدها بدأت - ولا أدري متى - أحس بالخيبة كلما سألوني عنه، ربما بسبب الولد محمد ابن شلبي الذي قال للأولاد مرة إن أبي ((طفشان)) من الكَفْر، وكلما كنت أواجه عيون هذا الولد في ((الكُتاب)) أجد السؤال المطروح وأقرأ الجواب أيضًا، كنت أنسى ما كنت قد حفظته من آيات، أتلعثم عندما يحل عليَّ الدور ((لأسمَّع))، وكان الشيخ مرعي يربطني في الفلقة ويرفعها ولدان إلى أعلى بالقدمين ويظل هو يضرب بالعصا حتى أحس الوجع يسري من بطن القدمين ليصل إلى وجهي ورأسي، بعدها يأمرني بالرمح في شارع ((الكُتاب)) ويطاردني بعصاه وسط شماتة الأولاد، مرَّة سألت أمي عن أبي فقالت والغيظ بادٍ على وجهها: مات، راح في نصيبة.. لم أفهم، فعاودت السؤال ربما لأنني أنكرت أنه مات فقالت بغل أكثر:
- ما تجبش سيرته.. فاهم، ربنا لا يرجعه.
ساعة العصر كنت أسحب لجدي الركوبة.. ((ويشق)) هو على الأرض، لما ينزل من فوق الركوبة آخذها وأربطها في ((الخارجة)) ويظل يدب بقدميه فوق الأرض فتهتز تحتي وأوشك أن

أسر له بمخاوفي من أن يخرقها وأسقط في داخلها.. يده الضخمة تهتز عند مستوى رأسي وبريق فص خاتمه الكبير يشد بصري إليه.. كان يشير إلى حدود أرض جماعة عوف:
- ومن أول الحديدة دي لغاية الزراعية الكبيرة طوالي كانت أرض سيدك مصطفى الله يرحمه، ومن الزراعية لغاية عزبة الكوم كان كله بتاعنا، ولحد النهارده وبكره اسمه حوض جماعة عوف، حاكم أسيادك كانوا رجالة الناحية كلها، وأرض جناين ولاد شلبي دي كلها في الأصل بتاعتنا، الله يرحمه سيدك مصطفى وسيدك علي، رموها بتراب الفلوس، حاكم الأرض تكره اللي يفرط فيها، تكرهه موت، تفضل تلعنه لحد يوم القيامة، الأرض تحب اللي يصونها، إنما جماعتنا كانوا طيبين وفاتوها زي ما تقول زكا عن عيالهم، الغرض.. أهي الأرض دي من أرضنا إحنا في الأصل.. حاكم زمام البلدين كان بتاعنا.
وكنت أقول لنفسي إنني سوف أكبر وآخذ أرضنا من جماعة شلبي وأجعلها كما كانت ملكًا لنا.. يقول جدي:
- ولولا أبوك وعمك فاتوا البلد كنا بقينا عيلة، ما كناش فتنا الخمس فدادين اللي عند الجميزة، ولا كنا فتنا الفدانين اللي جار أبوك عبد الغفار.. حاكم الأرض تحب الرجالة، تحب اللي إيده فيها، سيبك م الأنفار، عمر النفر منهم ما يراعيها زي صاحبها، ما هي الأرض زي العيل الصغير، من غير أمه وأبوه يغلب ف الدنيا، أهي الأرض تبور لو ما تلاقيش رجالة قلبهم عليها كده.
وأوشك أن أسأل الرجل عن أبي، عن سر غيابه، لكنني أتخوف من نظراته الحادة ساعة أن يذكره، أبتلع السؤال وأمضي إلى جواره، ولما أركب فوق حمل البرسيم في طريق العودة وأراه ماشيًا والأرض تحته تهتز وعيون الخلق ترقبه باحترام وخشية أحس بالزهو وأفرح بوجود الرجل المهاب ذي القدرة، أحس بالاطمئنان لأنه جدي، أتصور أبي في مثل صورته، أتباهى بنفسي وأحلم بعودة أبي وأن نجتمع معًا، جدي وأبي وخالي برهوم وأنا، أن أصبح رجلًا مهابًا مثل جدي، أن نسوق أولاد شلبي بطول الكَفْر وعرضه، أن نجعلهم يتركون أرضنا لنعاود زرعها بأيدينا، لكنني أحس بالخزي كلما اكتشفت أن الأيام تمضي وأبي لا يعود أبدًا، كان الرجل الذي لم أره أبدًا هو عاري الدائم وحلم انتصاري أيضًا، يطاردني ويطردني، كلما حاولت أن أدفعه عني أو أن أجذبه نحوي لا يتزحزح وكأنه حجر الطاحونة الكبير المحطوط تحت سلم الدار.
في ((الكُتاب)) سألني الولد محمد شلبي عن أبي، لطشته بكل عزم كفي فوق صرصور أذنه، صرخ الولد ثم سقط على الأرض، جاء ((سيدنا)) لما سمع الأولاد يقولون إنه مات، رش كوز ماء بارد فوق وجه الولد فأفاق إنما على صدغه علامة الكف ظاهرة، ولما سأل الأولاد أشاروا إليَّ، هز دماغه ومدني كعادته، إنما الولد محمد شلبي كف عن معاودة السؤال عن أبي خوفًا على صرصور أذنه الأخرى.. قلت لنفسي وأنا أقرأ سورة مريم: ربما ولدت بلا أب مثل عيسى ابن مريم، كدت أن أقولها للأولاد لكنهم لم يكونوا يسألون، ولما سمَّعت سورة مريم قبل كل الأولاد تعجب الشيخ مرعي للأمر وضرب كل الأولاد الكبار الذين لم يحفظوا وجعلت يومها أقرأ ولا أخطئ والشيخ مرعي مبسوط، وكنت أتمهل عند بعض الآيات ولا أدري لماذا: **(قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (١٩) قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً**

لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّآ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا (٢١) فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢)). لم أكن فاهمًا لمعاني الكلمات، إنما كنت أقرأها بحماس لا أعرف مصدره، حماس كأنه يقين في حق يكتشفه الإنسان لنفسه وكان غائبًا عن ذهنه.. وتعارك جدي مع منصور شلبي وأولاده.. كنت مع جدي وكان منصور يقف في عرض الطريق مع أولاده، تكلما معًا بانفعال لم أعرف أسبابه ثم وجدت النبوت في يد جدي يتحرك.. تفاداه منصور بالجري ثم عاد النبوت يطارده في سرعة غريبة.. كانت ضرباته وسط العصي الثلاث تفوز.. تخيب كل ضرباتهم وضرباته تصيب.. يده القابضة على النبوت كأنها يد جن مصور تعرف متى وأين تضرب.. بطح منصور وابنه الأكبر.. رمح منصور وترك أولاده.. تركهم جدي أو ربما تركوه، إنما طاله، لم يهدأ إلا عندما طاله عند التوتة، ناوله خبطة فوق وسطه، كنت قريبًا منهما وسمعت منصور يعتل وكأنه تحت وطأة حمل ثقيل، كان سالم ابنه قد اقترب من جدي محاولًا ضربه من غير أن يراه، صرخت محذرًا فالتفت إليه وناوله واحدة جعلته يرتمي على الأرض قريبًا من أبيه، ابن منصور الأكبر كان هناك حيث بدأت المشاجرة، جالسًا على الأرض، كان منصور يتحدث إلى الناس الملمومين في عسر شديد من خلال فم يتدفق منه خيط الدم، لم ينطق ابنه سالم.. اكتفى بالنظر المفزوع إلى أبيه، كان الناس يتكاثرون وجدي واقفًا مكانه ينظر باستهانة إلى وجه منصور ولا يتكلم.. عندما ساعد الناس منصور على ركوب الحمار وسندوه قال جدي موجهًا حديثه إلى منصور:

- النوبة الجاية باحش أجلك يا ابن المفضوحة.

وقال الرجال من جماعة عوف لجدي:

- عفارم عليك سبع.

وفي الدار عرفت أنه تعارك بسبب أبي وعمي أو بسبب كلام قاله منصور عنهما، لم أفهم إنما أحسست بنوع من الخوف.

في ((الكُتاب)) عرفت من الأولاد أن جماعة شلبي خافت من جدي فلم يفكروا في معاودة العراك معه، وأن منصور شلبي راقد في داره، حتى لما مات اكتفوا بأخذ العزاء في المندرة وأشاعوا أنه كان مريضًا بالقلب ونفوا ما كان يتردد من أن خبطة جدي عبد القادر حشت حزامه وعدمت صحته، وأنه عاش أسبوعًا بعد المعركة عاجزًا فيه عن الكلام أو الحركة.. أما ابنه سالم فكان يمشي في دروب الكَفْر معصوب الدماغ أصفر الوجه فاقدًا لجسارته القديمة.. كأنه بنت فقدت شرفها كما كانوا يرددون، من يومها عرفت أن العصا هي الشيء الفعَّال والحاسم في كَفْر عسكر، أن كل الأصوات تخفت عندما يلوح الإنسان بالعصا، كنت أتدرب على حمل العصا في دروب الكَفْر، الصبية الصغار من أولاد العيلة يطلعون الأشجار ويقطعون فروعها ويهذبونها ويعملون منها عصيًا صغيرة.. وكنا نعمل معارك وهمية فأصر على أن أقوم بدور جدي عبد القادر، ليس فقط لأنه جدي أنا، بل أيضًا لأنني أعرف حركاته وأستطيع تقليد صوته ومشيته، عندما كنت أبدأ في تقليده يهلل الأولاد قائلين:

- اهرب يا وله، أبوك عبد القادر أهه وفي إيده الشمروخ.

ويفرون، أحس وأنا أمسك فرع شجرة التوت أنني هو عبد القادر مصطفى عوف، كبير بحق وحقيق، قادر على إرعاب الكَفْر كله، لا يعترض طريقي رجل.. ألعب مع الأولاد لعبة أبوهم عبد

القادر مع أنفار السلطة كما سمعتها، ألعب لهم دوره في عركة المصرف الكبير، ومع منصور شلبي وأولاده، وعركته مع برابرة الهجانة كما سمعتها.. أدب على الأرض كما يدب، يهللون لي فأحس بالنشوة وبالقدرة على الانتصار.. لكن في يوم ما سلط الولد محمد شلبي ولدًا من العمارية ليقول وسط تهليل الأولاد:
- لو كنت شاطر بصحيح اعملنا أبويا عبد القادر مع ولاده حسن وعبد الحميد.
ساعتها أحسست بحرج شديد وعجزت عن الاستمرار في اللعب.. قلت للولد وأنا أنظر إلى وجه محمد شلبي بكُره:
- أنا عارف اللي مسلطك.
ودخلت الدار، كان الأمر فوق قدرتي على السكوت، قلت لخالي برهوم أسأله:
- هو سيدي عمل إيه مع ولاده يا خال؟
فنظر إليَّ مدهوشًا من السؤال ثم ضربني بقبضته فوق صدري وقال: غور امشي.. ولما بكيت وسأله جدي عما جرى هز دماغه ونفى أن هناك شيئًا يستحق القول.. كانت الحكاية في الدار سرًّا مفضوحًا حتى بالكتمان، كنت أعرف أن هناك معركة خسرها جدي طوال عمره وأن هذه المعركة كانت مع أبي الغائب وعمي الذي مات في مصر، أما التفاصيل فكانت صعبة المنال، وتصديق الأمر كان أصعب، وكنت أكتفي بالتخيل، ربما ضربوه وهو نائم أو وهو غافل، تخيلتهما مردة من الجن استطاعا مرَّة أن يواجها الرجل المهاب فحلت عليهما اللعنة.. **(وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)**.. خرجوا عن طوع الأب فلعنهم وغضب عليهم قلبه، تقول جدتي مبروكة إنهم ((تاهوا في الغربة وتشتتوا في البلاد بسبب دعوات أبيهم عبد القادر، وإن عمي عبد الحميد مات بسبب هذه الدعوات وغضبه عليهما)).. كنت أقول لنفسي أحيانًا إنه من الممكن أن يموت أبي أيضًا قبل أن أراه.. ربما يقتله الإنجليز كما قتلوا عمي في الأزهر كما يقولون.. أسألهم عن أبي فيسكتون، كأنهم أخرجوه من حسابهم تمامًا.. حتى خالي برهوم كان عندما أسأله لا يجيب، وأمي لما أسألها عنه تطلب من الله ألا يرجعه إلينا أبدًا.. وكنت أعجب من شدة كراهيتها له وأقول لنفسي إنه من الممكن أن يجيء وأراه مرَّة قبل أن يموت، لكنه أبدًا لا يجيء.. لا يفكر في أن يأتي ليكيد أمي ومبروكة ويصالح جدي عبد القادر ويساعد خالي برهوم، وربما يحكي لي عما جرى بينه وبين جدي عبد القادر قبل موت عمي عبد الحميد.. ظلت الأيام تتوالى واشتياقي إليه يكثر، واللعبة التي كنت أجيدها ظلت ناقصة، وظل وجه الولد محمد شلبي الشامت يسلط الأولاد وكأنه يعايرني بأبيه ويذكرني بفقدان أبي الغائب ويشوه سمعة جدي عبد القادر الذي أحبه لدرجة لا تسمح بأي شك في قدرته على كل الناس.. وكنت كلما ازداد شوقي لرؤية أبي أزداد كراهية له وحقدًا عليه.

* * *

يوم الأربعين رحنا المدافن، صحانا الرجل قبل الأذان وظللنا نستف الرحمة في السبتين، شالت البنات رحمة ((سيد)) وذهب الرجل، قلت ربما يخف الحزن القديم لكنه زاد، قرأت الفاتحة على روحه لكن الرجل كان كالغائب عن الدنيا، يسألني ربما للمرَّة الألف: مَن قتله يا صالح؟ والسؤال ينفذ من طبلتي الأذنين مسمارين محميين يعرفان الطريق إلى القلب، وعجزي عن الرد يجعلني أحس بالعار، كل العار، هانت جماعة عوف إلى حد أن قتلوا حفيد عبد القادر عند مدخل الكَفْر، هان صالح عوف إلى حد أن قتلوك يا سيد، كأنهم لما قتلوك قتلوا كل ما تبقى من كرامة لنا وقيمة،

ذبحوا أصلنا القديم عند مدخل الكَفْر وسال الدم وغطوه ببعض الحشيش الجاف، والأيام التي فاتت منذ ذلك المساء اللعين لم تخفف حمية نارك يا سيد في الصدر، ومهما تحايلت لأظهر قويًّا أمام أبي فأنا مجروح بجرح لا تداويه كل الدموع، شيطان يترصد فرعنا وحده من جماعة عوف، أبي بوجهه الشاحب يعاود السؤال وكأنه خرج هو الآخر من أحد المدافن هاربًا، الموت في العينين والشفتين وفي النبرات الغريبة على الأذنين:

- بقى ما كانلوش ف الكَفْر عدوين يا صالح؟

الرجل انهدت قواه، مثلما انهدت قوى جدي عبد القادر منذ سنوات، ها هو يرتمي على الأرض في وضع متهالك منهار، يخرف، يسأل الجدران الصماء، ويتحسس فتحة المدفن وكأنه يربت بكل حنان الأب على رأس طفله، حتى ولا أي أم شفتها طوال عمري تتحسس جسد طفل لها مهما كان عزيزًا بمثل هذا الحنو، أوشك أن أكرهك يا سيد رغم موتك لكنني أيضًا أحبك، فقط لو كنت ترجع للحظة وتحكي عما جرى، تصف لي وجه مَن قتلك، ربما لا أكتفي بتقطيعه مهما كان وجعله عبرة وما يكون بعدها لا يهم، لأعود إلى طرقات الكَفْر مرفوع الرأس، لكنك تعز عليَّ حتى في الأحلام، لو تستجيب المقبرة لكف الرجل المعروقة المستجدية والمستجيرة بكل ذرة فيها وترجع، تطل وتحكي، الرجل يهذي، فقد عقله، عار آخر، في الماضي كان عاره أهون.. ((طفشان)).. إنما اليوم وهو بيننا وعلى مرأى من كل ناس الكَفْر مجنون أو حتى نصف مجنون يتحدث إلى أشباح خفية، معيرة كان أهون منها غيابه الطويل.. لو فتناه ينام في المدافن ويفضحنا، فضحنا فعلًا، سيرتنا لبانة في كل الأفواه.. فكُف يا رجل عن كل هذا التهالك الذي لا يليق، هاهم يتبصصون علينا من بعيد، لا يودون حتى أن يقتربوا، كأنهم يعلنون أنهم يرون ويسمعون فقط من بعيد، تماسك يا رجل في هذه اللحظة حتى يفوت الناس، اصبر، لكن ما معنى الصبر في مواجهة الموت، القتل، الليلة نعاود دفن سيد، يوم الأربعين وليلة الأربعين.. برهوم أيضًا لما مات عملنا ليلة الأربعين وبدا لي ساعتها أن أحزان الرجل الكبير تضاعفت، سوف تتأجج النار أكثر في صدر الرجل، ربما يزداد جنونًا على جنونه، تزيد النار فيزيد العار، ها هو صالح عوف ينكسر عوده، ويقف عاجزًا بعد كل ما كانه حيال أب فاقد لوعيه وأخ قتيل يا كَفْر عسكر، إنما لكل عقدة حلال، مهما كانت الجراح غويطة فلا بد من دواء.. أولاد عوف عاشوا عمرهم قادرين على رد الصاع صاعين يا كَفْر عسكر.

البنات يوزعن الرحمة وكل مقرئ يأخذ نصيبه ويتلو ما تيسر، لصوص الجبانات يحوطوننا ويأخذون الرحمة ثمنًا لكلام الله، يخطئون في الآيات ويغلوش كل منهم على الآخر.. في الضحى سندت الرجل فقام، لو تركته لظل جالسًا هكذا عند مدفنك يا سيد، بعد الخميس الكبير عملها وظل جالسًا دون أن نعرف إلى منتصف الليل، لولا الصدفة ما عرفنا طريقه بعد أن دخنا في كل الدور عليه، وسألنا وكأننا نسأل عن طفل تاه والخزي يشل اللسان عن تكرار السؤال.

دخلنا الدار، جلس هو على دكة النورج القديم، تمامًا مثلما كان جدي عبد القادر يجلس، كأنه هو بعث من جديد إنما العود أكثر نحولًا وأقل قدرة، أشرت لزكية أن تولع له نارًا لزوم الجوزة، أن تعمل له شايًا، الشاي اللعين سحبوه من السوق أيضًا، لا يوجد في الكَفْر شاي، أدوخ في المركز بحثًا عن باكو الشاي فلا أجد، التموين لا يكفي، شاكر شلبي يغمزني كل مدة بباكو الشاي وكأنه يعطيني ((قرش حشيش)) أو حتى أفيون.. ترى هل يستمر الأمر هكذا.. يا أولاد الكلاب، أخذتم مال البلد وستفتم دكاكينكم بكل الأصناف، الممنوعات لها رفوف سحرية والأسعار كما تطلبون،

إنما المهم أن يتواجد الصنف، غشوا الشاي مثلما غشوا في الزمن القديم كيماوي الأرض وخلطوه بالملح، يأخذ ثمن الشاي مضاعفًا ولا يستحي، وكما يقولون ((إللي عاجبه الكحل يتكحل))، ولو درت في كل المركز ما وجدت غير شايك المخلوط يا شاكر، هذا الشاي يشربه الرجل مع الجوزة، هو زاده الوحيد، لولاه لخف البرج الباقي في عقله، سيد عوف يا شاكر أخوك من الأم فهل نسيت؟ هل أصدق أنك غيرت سلوكك معي بعد موت سيد بسب حزنك عليه أم أنها مجرد مظاهر تحرص عليها أمام الناس، وأن كل ما تقوله مجرد غلاف تداري به فرحتك فيه أو فينا كلنا يا شاكر؟
قال أبي وهو يوسع مكانًا على دكة النورج ويربت عليه براحته المفرودة:
- ما تقعد يا صالح يا ابني.
- أيوه يابا أشوف العيال عملوا إيه وأرجع.
دخلت أسأل عما جهزوه فلم أجد غير بقايا الرحمة، وطلبت من الولد محمد أن يذهب إلى الشيخ راضي وينبه عليه هو والشيخ سليم بضرورة الحضور الليلة من أجل سهرة ليلة الأربعين في المندرة.. وكانوا في الصباح قد كنسوها ورشوها وفرشوا الحُصر على الدكك والمصاطب كما أمرتهم.. عدت إلى مدخل الدار، قال أبي:
- هي الجميزة الكبيرة خابت ليه؟
- ما هي عتقت يابا، باقول نقطعها ونستنفع بحق خشبها، بس بيقولوا حرام.
- أيوه.. أيوه.. كان على صحوي حدانا مطرح الطمبوشة كرم نخل، جه سيدي مصطفى قطعه، من يومها قل الخير وقلت البركة، حاكم نخل البلح مبروك، سنة والتانية وسيدي مصطفى مات.
- بيقولوا قطع البلح حرام، أصل البلح ملك، والنبي وصى على التمر.
- وعمك برهوم سنة ما قطع العنبة اللي كانت في الجنينة ربنا اتولاه.
- ما هو العنب راخر نعمة من ربنا.
- الغرض يا صالح، قطع النخلة بقطع الأجل، هو الولد محروس راح فين؟
- تلاقيه بيلعب.
- يلعب دا إيه؟ قصر له شوية خليه يلتفت لدروسه، الله يرحمه سيد خد الابتدائية وهو زيه كده.
- وسي عطية اللي كان حيلة أبوه فدان واحد اتربى وبقى عال العال.
- الله يرحمه سيد كان شاطر أوي، مرَّة وهو صغير بابص في كراسة الحساب لقيته واخد ستة على عشرة، ضربته، قلت له لازم تاخد عشرة على عشرة، وعنها، فضل شاطر طول عمره.
ها هو يعاود الحديث عن سيد، كلما حاولت أن أجره بعيدًا عنه يرجع.. ((سيد يا حلم الرجل وأمله الضائع متى ينساك؟ سيد يا ماضيه وحاضره ومستقبله رغم موتك متى تنزاح ليعيش ما تبقى له في سلام؟ ولماذا تلح بكل هذا الإصرار على عقله نصف الواعي رافضًا أن تمنحه نعمة السكون في الأيام الأخيرة؟ ألا تخجل من روحك وأنت تحوم حوله كل ليلة تسلبه لذة الحياة وتحرمه المنام؟)).
جاءت زكية بخنصري الشاي، أخذ خنصره بيد مرعوشة وبدأ يشرب.. ((يا خيبة وحطت علينا، خنصر شاي، أعرف أنك كييف والشاي ماسخ كما أرى، لو تطول اليد، إنما الشاي ممنوع وأنت كييف، الشاي غشوه، والصنف غشوه، لعبوا في كل شيء)).
- الشاي دا طعمه غلس يا وله.

أخذت منه خنصر الشاي، تذوقته، ماسخ وخفيف، مالك أنت بكيفية الحصول على باكو شاي من شاكر شلبي، كفاك همك، ناديت زكية وناولتها خنصري الشاي، قلت لها: اضبطيه.. أخذته ودخلت.. أعرف أنها سوف تفرغه في البراد وتغليه ثم تعيد صبه، ربما تضع فيه ملعقة سكر وتعيده، إنما ما حيلتي، أخذت الجوزة وجلست بجواره، ناولتها له وجعل يأخذ أنفاسًا متلاحقة ويكح بين النفس والنفس.. دخنت أنا أيضًا، لا أحب المعسل بلا حشيش، إنما لا بد أرحم صدره المنهوك وأحتمل طعم المعسل لأحميه من الموت بفعل الدخان، عادت زكية بالشاي أخذه منها:
- الـله يباركلك يا زكية يا بنتي، معلهش، بني آدم تقيل، استحملوني يومين لحد الأجل ما ينتهي، أرقد وأرتاح جنب الرجالة اللي راحوا، جنب سيد.
- ربنا يديك طولة العمر يا سيدي.
قالتها زكية وهي تدخل.. أعرف أنها تضيق بك يا رجل إنما لا تجرؤ على التلميح.. قال:
- ولما أموت يا صالح تحطني بإيدك جنب سيد، مش عايز حاجة تانية، تحطني جنبه وبس، ويبقى كتَّر ألف خيرك يا صالح.
كدت أبكي، تماسكت، قمت من جلستي واتجهت إلى الباب ((الوسطاني)).. غلبتني الدموع عند باب ((الزريبة))، جعلت أنهنه مجاهدًا ألا يحس بي أحد، أنهنه بحُرقة، كان الركن خاليًا وكنت وحدي جالسًا على طرف ((الطوالة)) أبكي.. سمعت صوته ينادي:
- يا صالح.. يا صالح.. هو راح فين يا ولاد؟ قمت مسحت عينيَّ بكُمي وأفرغت أنفي قبل أن أرد:
- أيوه.. جاي أهه.. العجل كان حل وباربطه.
سمعته يقول محدثًا نفسه:
- ولا حل ولا حاجة.. يا صالح.
ذهبت إليه محاولًا ألا يكون قد بدا عليَّ أي تغير.. سألني:
- هو أبو الخير لف ع الكَفْر؟
- أيوه، من بدري.. لف نوبتين.
- ما تبقاش تخليه يلف لما أموت، سيد كان شباب ويستاهل، إنما أنا عضمة كبيرة بقى ولا له لزوم العزا ولا الميتم حتى.
كنت أسمع صوت أبو الخير ينادي منبهًا الناس إلى ذكرى أربعين سيد، لا بد أنه سمعه.. فاتت البنت زينب في عيونها حزن.. لولا ما حصل لدخلت في القطن، مهرها مدفوع وجهازها أوشك أن يتم، زواج البنات سُترة.. ترى إلى أي أجل سوف تتعطل دخلتها؟ حظها سيئ.. قال أبي:
- ألا القطن إزي حاله السنة؟
- اللي ف الساقيات على ما هو، إنما الشوية التي تحت الجنينة حلوين شوية، الدودة خربت الدنيا والرش ولا هو نافع.
– على أيامنا ما كانش رش، عمك عبد الحميد – الـله يرحمه – بعد ما ختم القرآن كان واخد باله م الأرض.
- تعيش انت، دا لولاش الواحد إيده في الزرعة كانت الأرض تعدم.
- وفي شارع الأزهر، ما هو كان مجاور ف الأزهر، ضربوه بالعيار في راسه طب ساكت زي سيد أخوك.
- الـله يرحمه.

- أنا ما كانليش في الزراعة من يومي، دخت في الغربة.. ولولاه عليَّ كنت مت، حاكم كان شهم، كان شبه سيد – الـله يرحمه – كده.. بس اندفن في مصر.. سيدك ما جاش إلا بعد الدفنة.
قلت لنفسي إن الاستمرار مع هذا الرجل سوف يودي بعقلي أنا الآخر.. ما عادت للحياة لذة، هذا الرجل قادر على نسج الأحزان في كل جنبات الدار، عند البوابة وجدت شاكر واقفًا.. قال:
- كنت ناوي أحصلك.. هوَّ عم حسن لسه ف التُّرب؟
- لأ.. رجع من بدري.
- حاكم أمي عملت رحمة وناوية توصل لغاية الجبانة.
- طيب.. تعيش وترحم.
- ما تآخذنيش يعني، ما أنت عارف.
تركته.. قلت لنفسي إنه سخيف وفاجر، ماذا يريد، الرحمة، يا شوق ما زلت تتمحكين.. ((كانت خالتي وخالتك وتفرقت الخالات)).. لا نريده أن يوزع رحمة.. يريد أن تنفرد أمه بالجبانة، تماحيك حريم، وماذا لو ذهبت وكان الرجل هناك؟ بعد كل هذه السنوات ماذا لو شافته أو شافها.. أمور غريبة، ما كان بينهما راح، ومَن كان بينهما مات، حتى وأنت ميت يا سيد تطارد روحك المشاكل؟ ميت وكل منهما يحاول أن يؤكد امتلاكه لك وحده دون الآخر، تستحق رحمة الطرفين إنما لا تحصل إلا على نصف الرحمة، ماذا أفعل مع الرجل يا شوق؟ أربطه؟ أمنعه لما تفكري في تشريف الجبانة؟ أقول له حضرتها ترغب في زيارة ابنك وحدها؟ جماعة شلبي توشك أن تحتكر حق زيارة الجبانة.. تكاد أن تطلب تحديد حركتنا في زيارة أمواتنا.. في الخميس الكبير عملوها وبلعناها، أخَّرنا الرجل حتى بعثوا لنا مرسالًا يعرفنا أنها زارته ورجعت، كأننا سوف نظل هكذا رهنًا لإرادتهم، في العيد طلبوا منا أن نزوره قبلهم وأن ننهي الزيارة بسرعة، صحي الرجل قبل الفجر، زار ورجع قبل طلوع الشمس، أخذناه غصبًا قبل أن ينهي الزيارة من أجل شوق.. تُرى هل كان يعرف؟ هل طاوعنا لأنه أحس بما كان يدور دون علمه؟ كلاب أنجاس لا يحسون بما نحن فيه.. اذهب يا شاكر واجعلها تذهب لتوزيع الرحمة على روح قتيلنا الذي توشك أن تأخذ منا ذكراه أيضًا بعد ما أخذته منا في أحلى أيام شبابه.
عدت إلى الدار وأنا أغلي من الغيظ، جاهدت أن أبدو طبيعيًّا، كان الرجل قد دخل المندرة مع محروس وكان صوته يبدو طبيعيًّا وهو يجادل الولد في مسألة حساب.. قلت لنفسي: ما زال لديه شيء من القدرة على التمييز والأمل رغم كل شيء.
في الليل كان الشيخ راضي ينافس الشيخ سليم في قراءة ما تيسر وجاء خلق كثيرون للعزاء.. كان أبي يجلس عند طرف الدكة ويتوه أحيانًا فلا يرد على من يجيئون لأخذ الخاطر، طلبت من محمد أن يأخذه إلى الدار وبقيت حتى تمت الليلة، وكان شاكر قد أصر على ملازمتي طوال الليلة في أخذ العزاء كأنه يعلن لكل الكَفْر أنه شريكي في سيد.

* * *

وأمي أيضًا طلعت من الدار، زفوها لأمين شلبي بعد عركة حول الأرض، ميراثها من أبيها شقيق جدي عبد القادر الذي مات وترك أرضه وابنته وزوجته ليأخذ الكل جدي عبد القادر.. يتزوج جدتي مبروكة ويزوج ابنتها لأبي ولما يتركها تظل في الدار، ومرت السنوات وهي في الدار، ولما طلبها أمين شلبي فكرت في أخذ حقها من الأرض، فظل خالي برهوم – وهو عمي أيضًا – يغريها حتى وافقت أن تتنازل عن حقها.. قال جدي:

- بقى عايزة الأرض تديها لابن شلبي؟ ليه؟ وابنك الغلبان ده يتربى إزاي، إياك حسك عينك تفكري ف قيراط بصابعك.
ارتحت لما عرفت لأول مرَّة أنني المستحق لميراثها، وأنني بذلك أصبح لي من الغيط نصيب.. وكنت أستعيد ما كان يقوله جدي عن حوض جماعة عوف الذي باعوا أكثره برُخص التراب وغالبًا لجماعة شلبي، وها هم يأخذون أمي أيضًا، كرهتها في ذلك المساء، وأنا أراها تتزين من أجل ابن شلبي، تبدو كئيبة الوجه خائنة في أحلامي.. كنت أتوقع عودة أبي إلى الدار ليجدها في انتظاره، إنما ضيعت أحلامي بقبولها الزواج من آخر.. ربما من يومها ازدادت كراهيتي لأولاد شلبي، وكلما تعاركت مع أحدهم ينهرني جدي ويحاول إفهامي أنهم ناسبونا وأصبحوا منا، وكنت أشعر أنه يخدعني وأن ما في قلبه يستحيل أن يخرج إلا بخروج الروح.. شيء ما كنت أجهله أجبره على تزويج أمي لأمين شلبي.. ولما سمعت أن أبي تكلم على بنت عبد الستار شلبي ازددت حيرة وكراهية لكل صنف شلبي، لا أدري لماذا تزايدت كراهيتي لهم، هل بسبب أنهم أخذوا أمي وربما يأخذون أبي أيضًا؟ أم بسبب ما كان يقوله جدي منذ سنوات عن الأرض التي سلبوها سلبًا من عائلتي؟ وكلما تعاركت مع صبي في مثل عمري من جماعة شلبي يلومني جدي وأحيانًا يحاول ضربي فأهرب، إنما كنت أحيانًا أحس رغم كلمات اللوم والزجر الخفيف بأنه سعيد لنفس السبب..
قال مرَّة لخالي برهوم:
- الولد ده من جماعة عوف بحق وحقيق، دماغه ناشفة وعِندي.
قال برهوم مرَّة وهو ينظر إليَّ بنوع من الحب:
- عايز شوف أبوك يا صالح؟
أجبته بلهفة:
- الـله يخليك يا خال، خدني وياك مصر.
- كده مرَّة واحدة، طب أنا راح أكشف حدا الحكيم، وانت تروح ليه؟ قلت متخابثًا:
- ماني عيان برضه وعايز أكشف حدا الحكيم.
ضحك هو وجدي حتى رأيت عيني جدي تدمعان، فعجبت كيف تدمع العينان بينما الوجه يضحك.. كان وجه برهوم يزداد شحوبًا، وكانت مشاويره إلى الحكيم في طنطا تتزايد، أحيانًا كنت أوصله بالركوبة إلى البندر، إنما هذه المرَّة عرفت أنه ذاهب إلى ((مصر)) وأنه سيرى أبي أيضًا.. كان برهوم يبدو أكثر ضعفًا من أي يوم آخر، وكانت في عينيه لمعة قلقة وحيرة خفية المصدر، وكانت سلطاته في الدار تتناقص، ربما بسبب المرض أو كثرة خلافاته مع جدي، وسافر خالي برهوم وغاب، قال جدي وهو يلحظني خفية:
- مسيره خالك يرجع وتشوف أبوك يا صالح.. ما هو اتكلم على بنت عبد الستار.
كنت في الغيط، بالتحديد فوق شجرة التوت، عندما سمعت الولد جلال ينادي بعلو حسه من عند سكة المصرف القديم:
- يا صالح.. يا صالح.. خالك برهومة جه من مصر.
قفزت فرآني وظل يرمح ناحيتي وهو يتكلم:
- وأبوك حسن وياه يا وله وعايز يشوفك.
رمحت ناحيته، تقابلنا عند المنحنى، أخذت ذيل جلبابي في أسناني مثلما فعل جلال وطرنا في اتجاه الكَفْر.. قال جلال:

- دا طول سيدك عبد القادر ولابس طربوش زي بتاع الصرَّاف.
سبقت جلال بمسافة فجاهد أن يطولني.. قال بعسر من خلال أنفاس متلاحقة:
- ومعاه سبت كبير جايبه من مصر.
كنت أسمعه بصعوبة بينما الريح تصفر في أذني:
- على مهلك يا صالح.. ما هو قاعد، في المندرة الكبيرة.. مع خالك وسيدك.. وأبويا وياهم كمان و...
كنت قد ابتعدت عنه تمامًا، لم أكن أفكر في جلال، كنت أفكر في أبي، أن أراه، أن أسمع صوته، ألومه على كل هذه السنوات التي غابها عني، أن أحكي له عن المصحف الذي ((ختمته))، عن عدم رضاي عن جماعة شلبي وأملي أن أرى جدي معه، يتصالحان، أن أطلب منه البقاء معي في دارنا.. تعثرت في حجر، وقعت على الأرض، كانت الوقعة شديدة فزحفت مسافة، تسلخت ركبتي وكوعي وراحتي اليمنى، لحقني جلال، أفقت لنفسي بسرعة وقمت، شدني جلال لما فكرت في معاودة الرمح.. طلب مني أن أغسل الدم عن ركبتي فلم أطاوعه، كنا عند مدخل الكَفْر، نفض جلال جلبابي وسرت أعرج، سبقني جلال، وصلت إلى باب المندرة الكبيرة، تأملت الوجوه، بحثت عن الطربوش فوق الرؤوس فلم أجد، وجدت جدي وخالي برهوم وعمي عبد الغفار يحوطونه، كان الطربوش بجانبه، وكان يبتسم في حيوية، كان شبيهًا بجدي إلى حد كبير، ربما هو أكثر قربًا إلى جدي من برهوم بمراحل، كان يرتدي بالطو كشمير فوق جلباب، وفي قدميه حذاء أسود لامع، وجنبه الطربوش والرأس عارٍ، اقتربت بحذر لأتأمله أكثر، كانوا يتحاورون بحماس شغلهم عني، ازددت اقترابًا، قال جدي وهو يلمحني قبلهم:
- واد يا صالح.. مالك وشك أصفر كده وبتنهج؟ إنت جاي رمح م الغيط؟ التفت هو إليَّ، تفحصني مستطلعًا، قال برهوم:
- طب قرب كده وسلم على أبوك.
كانت عيناي مركزتين عليه، وكانت عيناه مربوكتين بيني وبينهم، اقتربت أكثر فتح ذراعيه فوجدت صدره مفتوحًا لأخذي.. ارتميت في حضنه وظللت أبكي، أحاطني بذراعيه وكانت يداه تجوسان عبر الظهر والكتفين، وصوته المشروخ يردد اسمي دون أي كلام آخر:
- صالح.. صالح.. صالح.
كن أبكي بصوت، نسيت كل ما سبق أن علموه لي، السلام باليد وبخشونة تحول إلى ارتماء في الأحضان في استسلام ضعيف، لا كلام، ولا كلمة كانت على طرف اللسان تقدر أن توضح ما كنت أرغب في قوله.. أحسست بقطرات ساخنة من دموعه تتساقط فوق رأسي وفوق عنقي.
قال جدي:
- لا حول ولا قوة إلا بالله.. حس.
وظللت في أحضانه غير راغب في الابتعاد ويداه تتشابكان فوق ظهري.. قال عمي عبد الغفار:
- دا الفراق صعب يا رجالة، ربنا ما يحرم حد من ضناه.
قال جدي:
- أهو بقى راجل أهه.
- ربنا يخلي.
قالها عمي عبد الغفار.

قال خالي برهوم وهو يربت على كتفي:
- دا أبوك جايبلك جوز جلاليب جوخ معتبر يا وله، محدش لبسهم ف الكَفْر لسه.
شال جدي الطربوش ووضعه على دماغي، ضحكوا فضحكت.. قال جدي وهو ينظر إليَّ:
- طب عليَّ الحرام الخالق الناطق حسن ابني بس من غير شنب.
وضحكوا.. عملوني فرجتهم وموضوعهم في ذلك النهار الدافئ، ولأول مرة أفهم قيمة أن يكون للإنسان أب، رغم كل شيء كنت أشعر أنني أخصه أولًا قبل جدي وخالي برهوم، أجلسني أبي بجانبه ورحت أتطلع في وجهه: شارب أسود منسق وذقن حليق وسمرة أقل وجبهة أعرض من جبهة جدي، ولولا نحول خالي برهوم وشحوب وجهه لكان أكثر منه شبهًا.. كانوا قد شرعوا في الحديث عن مصر وناس مصر، عن دكان حلواني في مصر وعن شريك لأبي فيه، حدثنا عن الإنجليز بكراهية فكرهتهم أكثر، قال برهوم:
- طب قوم يا صالح اغسل وشك وتعالى.
لما هممت بالوقوف وضع أبي يده في جيب البالطو وأخرج منه نصف ريال فضة، نظرت إلى جدي محتارًا.. قال جدي وهو يضحك:
- إيه، بتبص لي ليه؟ دا أبوك، يعني تاخد منه ولا إحم ولا دستور، ويا داخل بين البصلة وقشرتها.
قال أبي:
- روح اصرفه كله، ما تخليش ولا مليم، ولما يخلص قولي أديك غيره.
أخذت منه نصف الريال بينما يحادثني وخرجت من باب المندرة، دخلت الدار، فكرت أن أداري نصف الريال في مكان أمين، احترت، طلعت إلى السطح، دخلت قاعة اللبن، وضعته تحت الصندرة ثم أخذته، وضعته في الطاقة ثم أخذته، فحت له بالمنقرة في الأرضية، لففته في قطعة قماش قديمة وردمت عليه، نظرت إلى الأرض فوجدت الأثر ظاهرًا، داريته بتراب ناعم حتى تأكدت من عدم ظهوره، نزلت وغسلت وجهي بسرعة ومسحت دم ركبتي براحتي المبلولة، قالت جدتي مبروكة وهي تلحظ لهفتي في الغسيل:
- على مهلك يا ضنايا، أهو أبوك افتكر وجه بعد ما بقيت راجل، لا ربى ولا شال ولا حط.
نظرت إليها غير عارف بماذا أرد عليها، كان واضحًا أنها غير مرتاحة لوجود أبي، في هذه الساعة كرهتها، تمنيت أن تموت، كانت تحادث نفسها بأن أبي لم يأتِ من أجلي وإنما من أجل شوق بنت عبد الستار شلبي، وأنه لم يفكر فيَّ طوال السنوات، قلت لها محاولًا تقليد خالي برهوم في جسارته عندما يحدثها:
- ما بلاش دوشة يا ولية.
سمعتها وأنا أتجه ناحية الباب الكبير تقول لي ((يخيبك)).. لم أهتم.. عند باب المندرة وجدت جلال قلت له بسرعة:
- أبويا اداني نص ريال.
- إيه، بقى نص ريال بحاله، طب قول قرش.
- والمصحف الشريف نص ريال.
- طب هو فين؟
- شلته.
- شلته فين؟

- وانت مالك.
تركت جلال غير المصدق، وجلست بجانب أبي، كان جدي مبسوطًا من أبي وعلى خلاف ما كنت أتصور وأسمع في الدار، لم يكن هناك عداء ولا حرب ولا كراهية، وكان خالي برهوم منهمكًا مع عمي عبد الغفار في حديث عن الزرع والمحصول.. وأنا سعيد وسط الكل إلى حد لا يطاق.
لما جلسنا معًا حول الطبلية وجاء العشاء حرص أبي على إجلاسي بجانبه، كان أبي يعطيني قطع اللحم بيده، آخذ منه وآكل شاعرًا بحلاوتها في فمي، لم يكن مهتمًّا بنفسه بل كان يطعمني بيده، وكأنني كنت آكل من طعام الجنة الذي يصفه الله في المصحف.. قال جدي:
- كل بقى يا حسن، الولد حيهيفك، حياكل منابك.
أضاف متضاحكًا:
- دام فجوع وابن كلب.
قال أبي:
- دا الخير كتير أوي، خليه ياكل من إيدي يابا.
قال جدي:
- عرفت بقى إن الضنا غالي؟ أهو انت والمرحوم كنتوا غاليين قوي، بس النصيب غلَّاب.
قال أبي وهو يحاول إضحاكهم:
- كُلْ يا صالح، تلاقيهم بيجوعوك يا وله.
قلت وأنا أمد إليه يدي بنصيبي:
- طب كُلْ انت بقى منابي.
برفق أعاد نصيبي أمامي وقال لجدي وهو يضحك:
- ما تسيبونا ف حالنا بقى، خليني أشبعه من إيدي يابا.
قال جدي:
- دا انت أهبل، والنبي يا حسن يا ابني لو تأكِّل صالح بإيدك على طول تشبع، والخير كثير والحمد لله.
- ربنا يسترها، بس حكاية الدكان، لولاه كنت فضلت، دي دار عبد القادر عوف اللي يدخلها يشبع.
- دارك يا وله، أنا فاضلِّي مين غيرك إنت وبرهوم؟
في الليل كانوا يتكلمون عن شوق بنت عبد الستار شلبي، فهمت أن أبي خطبها، قلت لنفسي ما دام ينوي الزواج من الكَفْر فسوف يعود وأراه.. قال لبرهوم:
- وريت صالح الهدوم؟
قام خالي برهوم وجاء بقطعتي قماش صوف ثقيل ناولهما لي قائلًا:
- حاجة معتبرة يا صالح، تعرف يا حسن إن صالح ختم القرآن وبقى راجل أهه.
كان يضحك وأنا أقلب في القماش مبسوطًا، واحدة لونها أخضر غامق والثانية رمادي فاتح.. قال لبرهوم:
- تفصلهم له عند عبد الرحيم ف البندر، إللي يعوزه ياخده، بقطان مجوز، وعايزك تفصل له جزمة كمان وتهيئه، اوعى يغشك في الجلد، أجلسيه، وزي ما يقولك ادفع يا برهوم، إن شا الله جنيه.
فرحت، تخيلت نفسي في الجلباب الرمادي والحذاء.. قلت بسرعة:

- بزراير.
قال جدي:
- هو إيه اللي بزراير؟
قلت:
- عايزها جزمة برقبة وزراير زي بتاعة عطية ابن أبويا السيد.
نظر أبي إلى برهوم باسمًا وقال:
شفت بقى، برقبة وزراير بتبرق وأحسن كمان من بتاعة عطية.
كنت مسنودًا إليه، أشعر بأن كل مطالبي يمكن أن تتحقق، شاعرًا بأن وجوده يجعلني أكثر قدرة على المطالبة بما أريد، أن يكون الواحد منا مسنودًا إلى أب، شعور جديد كنت أعايشه للمرَّة الأولى في كل عمري، وكان وجهه الباسم المريح يجعلني أطمئن وأرتاح.
في السكة يوم كنا نوصله أنا وخالي برهوم قلت له إنني أريده أن يعود ليعيش معنا في الدار ووافقني، كنت فرحان والدنيا لا تسعني، كدت أطير من الفرح، قلت وأنا أبتسم له:
- والنبي ما تتأخر يابا.
- حاضر.
أخرج من جيب البالطو الداخلي ورقة مطوية ودسها في يدي، لم أفهم إن كان يداريها من برهوم أم أنه أعطاها لي هكذا غمزًا، ليكون بيني وبينه سر يجهله الكل حتى برهوم، وضعتها في جيبي كلص يداري غنيمة وأنا أرقب خالي برهوم بطرف عيني خائفًا أن ينكشف السر، نظرت إليه بامتنان وحب ولم أتكلم، جاء القطار وحملنا له الزوَّادة ووضعناها على الرف، قبل أن يصفر القطار أخذني في أحضانه وطبع على خدي قُبلة ووصى برهوم على العناية بي، وأن يسرع بتفصيل الحذاء والجلبابين، نزلنا بعد ما صفر القطار ولوحنا له بأيادينا.. كنت أرمح بينما القطار يتحرك فمنعني برهوم خوفًا عليَّ، وظللت أنظر إليه حتى غاب القطار نفسه وتاه في فراغ الأرض المزروعة ناحية شبين.
لما دخلنا الدار أسرعت إلى بيت ((الأدب))، كنت متعجلًا أن أعرف ما أعطاه لي وأعبث بالورقة طوال السكة، عندما أخرجتها وجدتها نصف جنيه جديدًا، طلعت بسرعة راغبًا في إعلان الخبر، وجدت جدي في مواجهتي قلت بفرحة:
- شفت يا سيدي أبويا إداني إيه؟
أخذه وراح يتأمله مبتسمًا.. وقال:
- ياه، نص جنيه بحاله، طب خليه معايا وابقى خده ف العيد.
كنت لا أهتم ساعتها بالمبلغ، كنت أريد أن آخذه وأفرج عليه جلال وعطية والصبيان أمثالي في كل الكَفْر، إنما خفت أن أقول لجدي ذلك، كرهت نفسي ساعتها، إنما تذكرت نصف الريال فانزاح نصف الغم، وقلت لنفسي إن العيد آتٍ، وإن أبي سوف يعود هو أيضًا، وإنه سوف يعطيني ما أريد، فسرت غير مهتم حالمًا بالعيد وبأبي.
كانت الأيام تتوالى وأسأل عن موعد عودته فيقول برهوم: الغائب حجته معه، وإنه سوف يأتي في الأيام التالية.. إنما الأيام كانت تتوالى بطيئة، والأسابيع تتكاثر دون أن يبعث حتى رسالة، ولما جاء ونظرت إليه لائمًا وجدته لم يفهم نظرتي وظل يحدثني وهو وذاهل عني، نسي حتى أن يبارك لي على الجلباب الجديد أو الحذاء ذي الرقبة الذي حرصت على إبقائه ليوم عودته.. حتى لما طلب

منه جدي أن ينتظر لتناول الغداء رفض ونظر في ساعة جيبه وخرج قبل أن نتبادل إلا حديثًا قصيرًا، قالت جدتي مبروكة:
- لهو كان جاي لنا ولا إيه؟ دا جاي لاجل بنت عبد الستار يا ضنايا.
قال جدي:
- عقبال برهوم، يا ولية اتهدي واسكتي.
قالت هي:
- طب حتى كان يراضي العيل الصغير، هي حتطير يا عبد القادر، قال على رأي المثل: من لقي أحبابه نسي أصحابه، معلش يا ابن بنتي ربنا يتولاك.
في الفرح كنت تائهًا، كنت مغلولًا من كل الناس، من شوق وأمها وأبي وجدي عبد القادر الذي بدا فرحان أكثر مما كنت أتصور، لم يلتفت هو إليَّ بل كان ينظر إلى شوق، في الزفة من دارهم حتى دارنا كنت عاجزًا حتى عن رؤيته، وبعد الدخلة أغلقوا عليهما باب المندرة ولم أره إلا في اليوم السادس عندما خرج معها إلى باب العربة المخصوص التي جاءت عند الباب لتوصلهم إلى مصر.. وكانت شوق حلوة بشكل لا يدعو إلى الاطمئنان إلى فكرة عودته، لو كنت مكانه لظللت في مصر دون أن أفكر في العودة إلى الكَفْر.. ساعتها فقدت ما تبقى لي من أمل في عودته إلى الدار أو حتى مجرد زيارته لنا أو الاهتمام بأموري، ولا أدري لماذا خطر في خيالي أن أفتح المصحف وأقرأ سورة مريم من أولها لآخرها في ذلك المساء.

* * *

الناس لها الحاضر، ها هم أولاد شلبي يترصصون على المصاطب بجلابيبهم الكشمير ورؤوسهم العارية، عمد وأولاد عمد، أخذوا منا العمودية وخلعوا رؤوسهم وداروا في الكَفْر على هواهم، وشاكر شلبي عمل مصطبة جنب دكانه ولم حوله الشبان من أهله، ورثوا الجسارة بالقرش ونسوا الأصول، دكانهم مفتوح في وش البوابة وكأنه شوكة مدفوسة في نن عيون أولاد عوف، نسوا حكاياتهم القديمة، نسوا جدهم الكبير الذي دخل الكَفْر حاملًا خرجه على ظهره متلمسًا في الكَفْر من يشتري منه ربع تمر أو بقرش خروب.. ها هو شاكر يجلس بجلبابه المغسول المزهر والمكوي ورأسه العاري يلمع بدهان شعر كالبنت القارحة.. يتبصصون علينا وينهشون بالعيون لحمنا وبالألسن، لو كان حيًّا لطردهم، ولعن سنسفيل جدودهم، وسألهم عمَّن ورثهم الجسارة ليجلسوا عند بوابة جماعة عوف، لو كان الرجال الكبار ظلوا لخرجوا عليهم بالشماريخ وشتتوهم في دروب الكَفْر كما كانوا يفعلون، إنما من يسندني لأعملها معهم، والعمدة منهم ولديه في الدوار طابور خفر تحت الأمر ورهن الإشارة، ولهم حق.. فمَن تبقى من جماعة عوف؟ شعبان الذي يشارك الدكتور بطرس ويعيش على الهامش؟ أم محمود الأهبل الذي تعلَّم في المدارس ووظفوه لكنه أهبل جعله التلاميذ مسخة يضحكون عليها كلما مر أمامهم بالبيجاما الباهتة؟ غانم المرابي الذي تبرأنا منه، والجالس على باب داره ينتظر من تأتي إليه بحلة نحاس أو بطشت ليساومها على الفائدة، والذي لا يخجل من نفسه ويظل طوال النهار يعاير خلق الله بكل معايبهم ويسرد عليهم كل مخازيهم غير شاعر بأن وجوده نفسه عار وخزي لا يدانيه عار ولا خزي؟ لطفي الأعرج الذي برع في السمسرة وخراب البيوت، يعرف البائع ويعرف الراغبين في الشراء، يخدع الكل ويتوسط مقابل عمولة مزدوجة ويزن على دماغ أصحاب الأرض ليبيعوها في سبيل العمولة؟ كل هؤلاء ينتمون

إلى جماعة عوف، والرجال الذين يعتمد النفر عليهم قلة وسط كثرة تائهة في مشكلاتها الخاصة، هل هو الزمن الخسيس أم أنه غيم سوف ينزاح كما انزاحت من قبله غيوم؟
وعندما قال سلومة ما قاله لم أسكت، دفست بوزه في طين المروى، كان يحاول أن يعمل فصيحًا بلا لزوم، ساق الهبالة على الشيطنة وعلق جاموسته في الطمبوشة وهو يعرف أنني آتٍ لأسقي، جاء بالولدين يحتمي فيهما حاسبًا أنني سوف أسكت، قلت له في البدء: حل الجاموسة يا سلومة.. فلم يعجبه الكلام وقال كلامًا لم أبلعه، قال إنني غشيم وإنه سوف يسقي قبلي.. قلت له: عيب.. فلم يعجبه الكلام.. قال: كل واحد يشوف روحه.. قلت لنفسي إنني لو سكت له فسوف يستمر، ربما يذكرني بما جرى لسيد وبحالة أبي لإذلالي، هذا الصنف يخاف ولا يستحي، تذكرت ما كان قد قاله عند البوابة عن جدي عبد القادر: كان غشيمًا.. صحيح أنني لما سألته أنكر إنما لم أصدقه.. قلت لنفسي أيضًا: أنت مجروح الآن يا صالح ولو سكت للكَفْر يركبوك ويهزوا سيقانهم.. مسكته من خناقه ودفست بوزه في طين المروى، كان هزيلًا في يدي وكأنه فرخ ((بربر))، نظرت إلى الولدين الآخرين فدلدلوا آذانهم ولم يتكلم أحد، تركته يمسح ((الروبة)) عن وجهه وشخطت في الولدين طالبًا منهما الابتعاد، استدارا في صمت الخائف وحياد الجبان، كأنهما كلبان أجربان غريبان، لما وجد نفسه وحيدًا جلس كحُرمة منكسرة، شكله أضحكني فضحكت، لما شاف ضحكتي ترف على شفتي تجرأ وقال:
- ربنا يهدك يا صالح، أنا كنت باهزر معاك.
قلت وأنا أحل جاموسته وأعلق الثور مكانها:
- النوبة الجاية حتفطس في إيدي، وإن كنت جدع ابقى هات رجاله يحموك.
- عيب يا صالح دا احنا ولادعم.
- ما بقيش إلا انت يا ابن المراكيب تتنقور عليَّ؟
- دا احنا قرايب.
- قرابة مهببة وجيرة زي عدمها.. أشوف روحي دا إيه؟
- كنت باضحك ويَّاك.
- تضحك ولا عايز تِضحك عليَّ ولاد شلبي يا نتن؟
تركته قائلًا لنفسي إنه لن يفوتها بسلام، أعرف أنه سوف يدبر أمره، هذا النوع يتمسكن عندما يحس بالهزيمة، ربما يفكر في الاستعانة بأحد ويترصدني، فكرت في ضرورة الاحتفاظ بسلاح في ((الخارجة)) احتياط، وسرت في اتجاه ((الحوَّال)) لأحوِّل مجرى المياه إلى أرضي.. ((العنف سيد الأخلاق في كَفْر عسكر)).. لو أعرف مَن قتل سيد لمسحت عاره هذه الساعة ولتنقطع كل الألسنة من عند اللغلوغ وليسكت ولد مثل سلومة، ينخرس لسانه ولا يجرؤ أن يقول ما قاله.. ((كل واحد يشوف روحه)).. آه يا ابن الخنازير! هكذا مرَّة واحدة: كل واحد يشوف روحه، كأنني أصبحت معيرة ينصبون القعدة على حسي، تعملوني لبانة في الأفواه التي تساوي والتي لا تساوي، كأنكم ظللتم تبحثون عن جرح تعايرونني به حتى راح سيد، لم يهمك كم كان الجرح غويطًا وقاسيًا، كأنما كنتم تنتظرون لحظة الشماتة فينا، أصبحنا سيرة في كَفْر عسكر، فرعك يا عبد القادر يا عوف لا يواجه أغراب الكَفْر وإنما يواجه أيضًا كل فروع جماعة عوف.. كانت الطمبوشة تدور وصوتها يزغرد ويغيظ سلومة.. ((العنف سيد الأخلاق يا كَفر عسكر، لن يكون هناك حلم بعد ما جرى لنا)).. لمحت محمد آتيًا من بعيد، قلت لسلومة:

- فز طس وشك بشوية ميه أحسن محمد لو شافك يعرف يا ابن تفيدة، وابقى لِم لسانك اللي عامل زي الفرقلة.
قام سلومة وغسل وجهه من التركيب وجلس، كان محمد قد وصل، قال وهو يخلع الجلباب:
- أنا نازل الأرض أسقيها يابا.
قلت:
- ما تخليك انت وأنزل أنا.
لكنه كان قد نزل، تأملته وفرحت بصباه وجرأته، ينتقل في خفة عصفور ويفتح السدود الصغيرة ليسمح لمياه الرية بالوصول إلى كل الأرض، قلت لروحي إن هذا الولد من صلبي.. شاطر بحق ولا يهاب، من نسلنا بحق، قلت لسلومة:
- وكنت ساحب ولاد عثمان شلبي حماية؟
- بلا كلام فاضي، يعني مش لاقي إلا ولاد شلبي أتحامى فيهم، إنت اللي مستقل بيَّ، عاملني مسخة وناسي القرابة، دا احنا ولاد عم يا صالح، كنت أحسبك تبقى معايا مش عليَّ.
- يعني إنت اللي فاكرها، أشوف روحي دا إيه؟ وقصاد ولاد شلبي كمان.
- لك حق يا صالح، إنت الكبير برضه وعيب الواحد يقيم عينه فيك.
- طب يا سلومة، خلاص، صافي يا لبن، قوم بقى ساعد محمد، واللي فات مات.
قام وقد انزاح عن وجهه الكدر وذعر لحظة العراك وبدأ يتحدث مع محمد، فقلت لنفسي إنني أتسرع أحيانًا في تصرفاتي إنما ربما كان ذلك بسبب ما أعانيه من مشاكل بعد موت سيد لدرجة أنني بدأت أشك في كل الناس ولا أميز العدو من الحبيب.. ولما ركنت دماغي على فرع التوتة غفلت مدة حتى صحاني صوت سلومة:
- صالح.. اصحى.
وقمت، كان يبتسم وكأن شيئًا لم يحدث، ومحمد جاء يغسل نفسه ويلبس الجلباب، قلت لسلومة:
- بعد ما تسقي ابقى تعالى حدا أبوك إبراهيم، أهو نسهر هناك الليلة.
ابتسم سلومة وقال:
- أي والـله من زمان وحشاني حواديته.
تركته وركبت الحمار وسحب محمد الثور والجاموسة والعجلين وعدنا إلى الدار.. بعد العشاء خرج محمد، سحب نفسه كعادته وخرج.. فكرت في أخذ أبي معي إلى دار الجد إبراهيم إنما وجدته تائهًا في ملكوت الـله، قلت لنفسي أذهب وحدي حتى لا تتحول السهراية إلى مندبة، الجد إبراهيم لا يكف عن الثرثرة في الأمور الفارغة لكن الليلة تفوت، لو أخذت أبي معي لحول الجلسة إلى كلام مسنون وجارح.. خرجت في اتجاه دار الجد إبراهيم، عند البوابة كان الولد محمد واقفًا وسط جماعة من الشبان، عوده المتلئ عنهم وصوته الآمر وسطهم وثبات حركاته ذكرني ببرهوم أيام صباه، خفت عليه من العيون، قلت له عارفًا أنه لن يسمع الكلام وإن كان يهاودني:
- روَّح يا وله بدل اللطعة دي.
- طيب.
قالها وهو ينظر إليَّ غير مرتاح للأمر، يعرف أنني غير جاد في مثل هذا الطلب وأنه لن يستجيب، عادة يسهر مع أصحابه إلى ما بعد السهرة بمدة، أحيانًا يأتي في وش الفجر ويخبط على شباك المندرة وكأنه يود أن يجعلني أراه بنفسي وأفتح له بنفسي، على أيامي كنت أهوى السهر مثله إنما

كنت لا أجرؤ على إظهار ذلك، كان خوفي من جدي عبد القادر يجعلني أتسلل خفية، أطلع إلى ((المقعد)) وأتظاهر بالنوم ثم أتسلل إلى سطح الحاجة مسعدة ومنه إلى جدارها المهدوم إلى ((العليوة)) إلى شارع ضيق أنفذ منه إلى البوابة، وفي طريق العودة كنت أتخوف أن يراني أو يسمع صوتي، كنت أتعلق على الكتلة البارزة أو ألف من ناحية ((العليوة))، إنما لم يخطر ببالي أن أخبط على شباك المندرة مثلما يفعل محمد معي، له حق محمد لأنني مهما فعلت معه فلن أكون قاسيًا مثلما كان جدي، على العموم أنا كنت ابن ابنه الذي لم يرضَ عليه.
قال الجد إبراهيم وهو يصب شايه الأسود في الأكواب:
- وكان سيدكم الحاج مصطفى عوف عمدة بحق وحقيق، دوَّاره مفتوح للغريب قبل القريب، طول شهر رمضان الدبايح تندبح على بابه واحنا نلف على الخلق أنا وإخواتي عبد القادر وعلي ومحمد وعبد الغفار، ندي كل حي كوم، كنت لما أطهق م الشيلة أرمي اللحمة ف الترعة أو أحطها عند نفر من الأنفار وأرجع قبل الكل، أقول لروحي إن الرجل ده أهبل لما يدوخ عياله لاجل شوية تملِّية ومقاطيع.
يضحكون، يقولون إنه لم يغلبه غلَّاب، قادر على تلخيص نفسه من أي إشكال أو مسؤولية بنكتة أو بعمل غير مسحوب.. قال ابنه عبد العزيز مرَّة إنه طلب ((عباية)) لزوم العيد ولما اعتبروها نكتة ولم يهتموا باعتبار أنه رجل كبير ولا يجوز إنه يهتم بالعيد.. وجدوه يأتي إليهم لابسًا العباءة ويدخل الدار مختالًا بنفسه فضحكوا، لكنه داوم في أيام العيد على إحكام عمامته ولبس العباءة، وإنهم لما سألوه عن مصدرها أفهمهم أنه رهن فدانًا في أرض ((المعرج)).. يقول عبد العزيز عنه: باستسلام سكتنا أنا وأخي والأولاد ثم تجاسرت وسألته:
- إزاي بس يابا تعمل كده؟
وإنه رد بحماس مدافعًا عن نفسه:
- ما قلت لكم يا خنازير محدش جاوبني، كنتوا عايزيني أعيد بهدوم قديمة؟
وإنه من بعد ذلك اليوم داوم عبد العزيز على الاهتمام بمطالب الرجل، يقول تعقيبًا على هذه الرواية عندما تثار:
- طب وإيه يعني، عليَّ النعمة أبويا باع خمس فدادين على راس غيط ((المدار)) برطل حلاوة طحينية.
نتظاهر بعدم التصديق فيخرج المصحف الذي يحتفظ به في جيب الصديري ويحلف ثم يضحكك منتشيًا بإسكاتنا حتى تدمع عيناه ويعقب:
- أصل زمان الأرض كانت كتير والناس قليلة، كان الكَفْر زمامه كبير على اللي فيه، كان خير كتير ولا كانش حد يعرف الطمع زي أيامكم الغبرة.
أقول لنفسي إن هذا العجوز الذي تعدى سنواته المائة بأكثر من عشرين سنة أخرى، عاش في خير وإلا لما احتفظ بكل هذا النشاط والصحة والوعي، وإن أبي الذي يعتبر أصغر من عبد العزيز ابنه فقد قدرته على التمييز، ربما لأن الجد إبراهيم ظل يرتع في خير الكَفْر ولم يترك الأرض، ظل سيدًا لأرضه وعبدًا لها في آنٍ واحد، ربما بسبب إحساسه بالأمان لم يفقد نشاطه، وأنه بالحتم لا بد بسبب وجوده في الأرض ما زال يعيش، يضحكون على عبارة قالها ثم أجده يحلف مرَّة أخرى بالمصحف فأفهم أنهم جرجروه للحديث وأنه انفتح وسوف يسترسل، ما دام يحس أنه محط رية

فيما يقول لا يكف عن سرد الحكايات القديمة، محاولًا أن يدلل بكل حكاية على صدق ما سبق أن قاله وسوف يستمر هكذا حتى يجد لدى الأولاد والأحفاد همهمات استحسان وتصديق.
- طب عليَّ الحرام من ديني، أبويا – الله يرحمه – قال لي إنه اشترى عشرين فدان بور من واحد تركي بزعبوط فل وبردعة نص عمر، وبعيني دي اللي حياكلها الدود شايفه بيبيع غيط بحاله بشوال تمر، ومرَّة كنت وياه في السوق شفته بياخد حق جوز تيران تقولوا كام؟ قُمع سكر وشرف النبي.
يشعر أنهم ما زالوا في مرحلة عدم التصديق، والضحكات على الأفواه مبسوطة لإمكانية استرسال الرجل، يسترسل:
- حنروح بعيد ليه، أنا واخد المصحف ده من راجل مغربي تقولوا بإيه؟ بزرعة برتقان بلدي، كانت الجنينة تيجي تسع فدادين، وده جه فات عليَّ وقال لي أقرالك الكتاب بحجر برتقان.. قلت: طيب.. قعد يقرا.. بابص للمصحف وعايز أشوف جواه إيه؟ قفله وبص لي وقال لي: إنت عايز طفش العفريت؟ بابص على العفريت حاشني.. قال لي إنه مصحف مخصوص للمغاربة اللي بيقروا الكتاب، ولو خدته منه يبقى بتاعي وأقدر أقرا لأيُها واحد، يعني أقرا الأول آية الكرسي وأفتحه يطلع لي ملاك أبيض يشاور ع الكلام المكتوب وأقراه وبس، وقال لي إنه تعب م اللف وعايز يرتاح، الغرض مرضيش يديني المصحف أبدًا إلا لحما حمِّل زرعة البرتقان على جِمال مغربي وحلفني ما افتحش المصحف إلا بعد العِشا عشان الملاك يصلي المغرب أحسن حرام، وبعد العِشا بافتح المصحف لا لقيت ملاك ولا جن ولا كلام بيضوي زي الرجل ما قال، أبويا سألني ع اللي حصل وريته المصحف وقلت الحكاية.. ضحك لما فطس على روحه وقال لي دا مش بني آدم، دا يمكن جبريل عليه السلام وجالك، ووصاني أحافظ على المصحف لأنه جاي من عند ربنا، وشوية فيه كنوز الدنيا كلها. ضحكوا عليه فاغتاظ أو تظاهر بأنه اغتاظ منهم وأوشك أن يحلف على مصحفه لولا أنهم منعوه، وسأله عبد العزيز عن سر اهتمام جبريل به دون خلق الله، فقال:
- حاكم إحنا نسل طاهر، فينا شيء لله، قلبنا تلاقيه أبيض زي الحليب وضميرنا خالص ونصدق كل حاجة، ما هو إحنا من نسل الحسين بن علي عليه السلام.
أنظر إلى عينيه الواعيتين فأحسده وأكره شعرة الهبل فيه، أتذكر جدي عبد القادر الذي كان يحكي عما كان يجري في أيامه مؤكدًا أن الجد إبراهيم كان عبيطًا رغم أنه كان أكبرهم، ويؤكد أيضًا أن الجد مصطفى أبوهم كان مزواجًا مطلاقًا، وأنه أنفق نصف أملاكه على الحريم، حتى لما باع أرضه برطل الحلاوة أو قُمع السكر كان في سبيل امرأة نالها ودفع من أرضه الثمن.. كان جدي عبد القادر أنصحهم وأقواهم، ولو كان أكبرهم ما تبددت أرضنا، كلامه صادق ومضمون كالجنيه الذهب، أما الجد إبراهيم فهو مهزار وهلَّاس وله مع الحريم فضائح ونوادر لا تُحصى، يحكي وهو يتلفت ناحية سلومة الساكت:
- كنت فاتح قهوة مطرح الدكان اللي على البوابة وجايب واحد بربابة يقول للخلق سيرة أبو زيد وكان وياه ثلاث رقاصات من سنباط الواحدة تقول للبدر قوم وأنا أقعد مطرحك.
يقاطعه عبد العزيز متعابثًا:
- كانوا بيرقدوا فين يابا؟
يرتبك ويزوم ثم يقول محتدًّا:

- ياك لسه مصدق المرحومة أمك؟ كانوا بيرقدوا ف القهوة بعد ما أسكها عليهم.
يتجاسر عبد الونيس ويقول وفي صوته نبرات الراغب في الإغاظة:
- سمعت يابا إبراهيم من كام سنة لكن مش مصدق.
يحس الرجل أنه سيصبح محطًّا للهجوم فيكشر ويلوي بوزه ويدفع عن نفسه قائلًا بثقة الكبار:
- سمعت إيه يا ابن المراكيب إنت راخر.
- قال بيقولوا إنهم ظبطوك مع هانم بنت مقلدية في قاعة التبن من سنتين.
يقول وهو منفعل بحق:
- بقى من سنتين يا ابن ستين كلب، دي الحكاية دي من سن عبد العزيز ابني.
يضحكون فأضحك لأن هانم نفسها في دور أولاد أولاد عبد العزيز، ربما كانت مقلدية من دور عبد العزيز، هانم مفضوحة وسيرتها في الكَفْر معروفة وليس من البعيد أن تكون ضحكت على الرجل من أجل غرض، إنما يقولون إنهم ضبطوها معه فعلًا وكانت عارية كما ولدتها أمها، يحس الجالسون أن الجو سوف يتوتر وأن الجد إبراهيم سوف يستاء من مجلسنا فيحاول عبد الونيس إصلاح الحال:
- وهو حد يصدق الكلام ده يابا إبراهيم برضه.
- ربنا ينكد عليك يا عبد الونيس يا ابن أبو العنين.
يسود الصمت إلا من كركرة الجوزة في صمت المندرة وتزايد سحب الدخان الأزرق، تعميرة هذا المساء أفضل من سواها، جابها عبد الونيس من درويش الأعور، أشعر أنها أحسن، أجدني أبدأ في الضحك، تنزاح كل المتاعب وأضحك، يقول سلومة وهو يصفق بيديه فرحًا:
- صلوا على حضرة النبي المختار، السهرة احلوت.
ينظر إليه الجد إبراهيم شاعرًا أنه لفت الأنظار إليه وترك الرجل الكبير ساكتًا، يشرع في الحديث:
- على صحوي بقى كان سيدي يبني الدوار اللي ع البوابة، كان واقف والرجالة بتفحت الأساس، قام واحد عبد كان اسمه بشير لقى زلعة سليمة، بيقول لسيدي، قاله: كسرها يا وله وارميها ما احناش ناقصين زلع، العبد طلعها سليمة وجه يشيلها لقاها تقيلة، بيفتحها لقى فيها كنز، جنيهات دهب بندقي من بتاع زمان.
يمصمصون الشفاه وفي خيال الواحد منهم جنيه بندقي واحد، يقول سلومة:
- يا خويا هديت وبنيت لا لقيت دهب ولا فضة، ولا قرش أبيض يوحد الله.
قال الجد إبراهيم:
- هو اللي زيك يا أرشل يلاقي حاجة، الكنوز دي لناس ناس، طب أبويا ما ضحك عليه رجال مغربي ست سنين، يقوله فيه كنز ف دار العيلة، فضل يعزم ويقرا ويكتب ويقول هدوا الجدار ده، نهده، هدوا الجدار ده، نهده، لما خرب الدنيا والآخر قال إن حارس الكنز زعلان ومش ناوي يفك عنه إلا بعد خمسين سنة، إللي يحسب يلاقيهم فاتوا، يعني أكيد ف دار العيلة كنز بس ينفتح لواحد وشه سمح مش زيك يا سلومة كده.
نضحك على وجه سلومة المستطيل والذي غاصت فيه حفر الزمن الصعب وجعلته يبدو أكبر من عمره، الهم تحت الضحكة العصبية المصنوعة والتي يشدها اغتصابًا من داخله ويرسمها بينما العينان تقسمان إنه مهموم بعبء أيامه، وإن كان لا يبوح بما عنده عنادًا أو ضعفًا أو قدرة، لكننا

برغم كل شيء نضحك، نغتصب الضحكات ونفرشها على الوجوه لتحلو السهرة وكأننا نحرص على أن يكون ثمن قطعة الحشيش لم يضع منا في الهواء بلا مقابل.
يسود الصمت بيننا، يعود كل واحد إلى نفسه، يتفكر أحواله، يمصمص الجد إبراهيم شفته ربما سخرية من أحوالنا، يحكي للمرة الألف حكاية العبد المسحور الذي اشتراه جدنا الكبير، يعرف أننا حفظنا الحكاية لكنه لا يود أن يكف عن تكرارها، هذا هو طبعه، كل حكاياته محفوظة إنما يشعر الواحد في كل مرَّة أنه سمع حكاية جديدة، يصوغ الحكايات بطرق عديدة، عن العبد المسحور يحوم بالكلمات:
- وكان سوق التلات مشهور بالخيل، أحسنها مُهرة بعشرين جنيه، كان سيدي الله ينور قبره غاوي، ولما شاف الحصان لبد جنبه، تقولش مسموره، أنا كنت عيل وفرحان إني رايح معاه السوق، الغرض، كان حصان أبيض وزي القشطة، مفيهش شعره سودة، تقولش البراق النبوي، اشتراه ورجع فرحان زي اللي لاقي لقية، وثاني يوم بعت بشير يسحبه ويسرجه لقى مطرح الحصان عبد أسود غطيس مربوط ف المربط من رجله وواقف يتلفت حواليه، يومها جه سيدي وبص له لقاه بيرطن بربري، ما فهمش حاجة منه، قال لنا يا ولاد دا تلاقيه عبد مسحور من بلاد بعيدة، فضل ف الدوَّار يومين ولقيناه بينطق بالعربي، سيدي قال سيبوه على راحته، سبناه غطس ما بانش، خرج م البلد ولا شفناش وشه بعدها، قال لنا سيدي إنه ملك من ملوك الجان، وصلى على النبي.
ونشعر بقشعريرة رغم أن الخوف لا يناسب أعمارنا، أوشك أن أصدق أنه حدث ما قاله الجد إبراهيم، وأن دارنا فيها جن مسحور ما زال يلحظ حركاتنا ويترصدنا، يحلو للعجوز أن يسترسل في حكاياته عن الجن والمردة وعروس البحر التي طلعت له وكادت أن تخطفه، عن جمالها الفتان الذي سحره، عن لحظة الاختيار الحائر التي واجهها بين مملكة البحر كلها وحياة الأرض، أكذبه بيني وبين نفسي إنما لا أفكر في معارضته راغبًا في أن يكف عن ذكر هذه الحكايات، يسترسل في حكاياته عن شياطين الليل:
- مرَّة وأنا ماشي ف الليل قرب الفجر جنب جدار زاوية عوف لقيت أرانب صغيرة بترمح، لونها أبيض على أسود كده، كانوا صغيرين وحلوين والقمرة ضهر، قلت آخدهم وأبقى أديهم لأصحابهم بعد الصلا، خدتهم في حجري ومشيت، وقبل ما أحصل باب الزاوية لقيت جحش ماشي من غير بردعة، عمال يعلى ويوطى، يعلى ويوطى، قلت ده عفريت بيستعبط.. قلت له: اتشطرع اللي قتلك.. بصيت ما لقيتوش، وعلى باب الزاوية لقيت جدع واقف، باحقق منه وأنا فرحان وباقوله: قال يا خويا الجحش طالع يخوفني.. رد عليَّ وقال: جحش إيه يا جحش وفص ملح وداب.. من يومها طلعوا عليَّ قولة إبراهيم الجحش.
يسأله عبد العزيز وكأنه يساعده في إكمال الحدوتة:
- والأرانب يابا.
- ما انا جاي لك أهه، أنا ربك والحق خفت، لسه داخل من باب الزاوية وبابص ف حجري لقيت إنصاص قوالب طوب أخضر، قلت يا بركة سيدنا النبي، ورميت الطوب وسمعت صوت الشيخ سليمان بيقول الله أكبر.
يكف عن الحديث.. أحس بالضيق من المجلس.. أقوم قائلًا لنفسي إن النوم أفضل.. أبحث عن مداسي التائه وسط زحمة المندرة بينما يضحكون، فأشك في أنني أقوم بحركات مضحكة فلا أملك

إلا أن أنفتح في الضحك بلا توقف، وعندما ينتهي الضحك يمد الجد إبراهيم يده بفردة المداس ويقدم إليَّ عبد العزيز الفردة الأخرى مؤكدين أنني مسطول.

* * *

قال الولد من جماعة شلبي لما عاركته:

- متفرعن على إيه، دا انت بتشتغلي ((تملِّي)) بلقمتك.

عندما نظرت إلى حالي يومها تأكدت من صدق الولد، عرفت أنهم عملوني عيرة، وأنني لا أختلف عن أي ((تملِّي)) في الكَفْر، صحيح أنني أشتغل في غيطنا كما قلت للولد ابن شلبي، وصحيح أنها أرض جدي وخالي، إنما هل هذا يكفي، أن أصبح في الدار آخر من يعملون حسابه، كنت في البداية صبيًّا لا أدرك إنما حتى لما أصبحت رجلًا في مثل طول جدي وأعرض من برهوم لم يصبح لي أي رأي في أي شيء، برهوم الجالس دائمًا على مصطبة من مصاطب البوابة، ووجهه الشاحب يعلن لكل من يراه ضعفه، يأتي إلى الدار يأمر وينهى في غيبة جدي، وجدي كلماته أوامر هو الآخر، قلت لروحي: أنت غريب يا ولد ومهما اشتغلت فلن يلتفتوا إليك، لن تلتفت أنظارهم إلى وجودك.. فكرت أن أطالبهم بتزويجي من باب إشعارهم بأنني موجود، لكن الفكرة لم تعجبني لأنني أصلًا لا أفكر بجدية في الزواج، ممكن طبعًا أن يزوجوني ولن يكلفهم الأمر الشيء الكثير، وتبطل حِجتي، إنما كانت عيني على الأرض، على الأقل جزء الأرض الذي يخصني، ما تركته أمي ونصيب أبي فيها، فكرت كثيرًا وبحثت عن سبب لعمل معركة أغضب بعدها وأترك لهم الدار في انتظار حل، كان برهوم في وسط الدار وأنا راجع بالجمل والحمار، قلت له دون أن أنظر إليه:

- حمِّل النقلة دي يا خال.

كأنه لم يسمع لأنه لم يرد، كررت طلبي فقال وهو يتفحصني مليًّا:

- حمِّلها واتكل على الله بعيد عني يا وله، أنا فايق لك؟

قلت وأنا أتعمد إثارته أكثر:

- يعني إنت على إيدك الحنة، قاعد تبص لي يا خال ولا حتى بتساعد في الغيط ولا في الدار؟

- طب عليَّ الحرام ما انا عامل حاجة ف نهاري يا صالح، إنت حتشغلني يا وله؟

- حرام دا إيه؟ شاطر بس تحلف لي بالحرام والحلال، طب والمصحف ما انا سارح بعد النهارده إلا رجلي على رجلك، لهي الدار دي دارك لوحدك واحنا ملناش فيها؟

كان برهوم مهدودًا بفعل المرض، كان وجهه الأصفر يزداد شحوبًا وجسده يزداد نحولًا، في هذه اللحظة نظر إليَّ وكأنه فوجئ بي هكذا في مثل طوله وأكثر منه قوة، مد يده وأخذ عصاه المعووجة من جنبه وناولني بها فوق كتفي فأمسكته من طوق جلبابه وصوتت النسوة، وجاء رجال ليفصلوا بيننا، كان هو ينهج منفعلًا ومحمومًا بالمفاجأة، وكنت أجلس في مواجهته في وضع استفزازي جعله لا يكف عن السباب المتلاحق لي ولأمي ولأبي مستكثرًا على نفسه أن أمسكه وكأنه صعق بما جرى، لما جاء جدي وسأل برهوم عما جرى لم يتكلم، أشاح بيده ثم قام تاركًا الدار، قلت إنه سوف يسألني فأدافع عن نفسي، لكنه سأل مبروكة، عرفت ساعتها أن حبها لبرهوم يمكن أن يجعلها تكذب وتكذب وتضيف ما لم يحدث لتؤكد له خطئي، لو كنت مكان جدي لصدقت كذبها المحبوك الذي كانت بارعة في اختلاقه وكل لحظة تقرر أنني هجمت عليه وخنقته بيدي وهو يخلص نفسه قائلًا: عيب يا صالح روحي طلعت.

- الواد يا عبد القادر زي الشحط ولا حدش كاسره، دا كان حيصور لنا قتيل النهارده.

والتفت إليَّ الرجل، لم يبدُ عليه أنه صدق أكاذيب مبروكة، وقف قبالتي ورفت على ثغره نصف ابتسامة، لم يسأل ولم يتح لي فرصة للكلام، كانت يداه خاليتين ونصف الابتسامة تشرع في أن تكون أكثر اتساعًا، لكنني لم أرَ غير نصف ابتسامة لأنني سقطت من طولي، لم أدرِ ما يدور حولي، دارت الدنيا بي ودارت، حاولت أن أتشبث بالأرض فمادت بي وكأن رأسي يخبطها رغمًا عني، لم أكن في صحوي تمامًا، ولم أكن غائبًا عن كل الوعي، كنت بين بين، سمعت أصواتًا ولمحت برهوم وعمي عبد الغفار وآخرين يمنعون جدي من الوصول إليَّ، جاءني جلال والشيخ عطية وساعداني على الوقوف، رأيته رغم الحصار يفتح لنفسه طريقًا وسط الأجساد المرصوصة بيني وبينه، في هذه المرَّة كانت في يمينه العصا، سمعته يجعر بصوته ويغطي على صوات مبروكة:

- بقى يا خايب يا ابن الخايب عايز تخنق خالك، عايز تقتله وأنا لسه على وش الدنيا، طب عليَّ الحرام ما انت بايت في الدار.

كنت أود فقط أن أنفذ من الموقف بالخروج حيًّا، خفت أن يضربني بعصاه فينتهي كل شيء، ساعدني الشيخ عطية على الانفلات من باب الدار وأخذوني عندهم.

قال الجد إبراهيم:

- يخيبك، بقى عايز تخنق برهوم وياخدوك قصاده؟

قال الشيخ عطية إنه من الأفضل أن يتركوني وحدي لأهدأ.. حامدًا لله لأن كف جدي لم يطل أذني وإلا لقتلني.. بعد ذلك قلت له كل شيء: عن أرض أمي التي كتبوها باسم برهوم، عن أرض جدي التي آلت إلى برهوم حارمين أبي من حقه فيها، عن شغلي في الدار كواحد من الأنفار وبرهوم مرتاح وجدي يأمر فقط ولا يمد يده في شيء.. فسكت الشيخ عطية وسألني عن مطالبي فقلت بسرعة:

- يكتبوا لي الفدانين بتوع أمي، ويجوزوني، وأنا أشيلهم على راسي من فوق.

وسكت الشيخ عطية لكن الجد إبراهيم قال ساخرًا:

- يجوزوك دا إيه؟ برهوم أكبر منك بكام سنة ولسه.

قلت لنفسي: إن برهوم معلول وخائب ولا يصح زواجه إلا بعد أن يسترد عافيته، لو كان برهوم في صحته لضربني، ولو كنت ضربته ما تحمَّل الضرب، في دارنا يكون العنف سيد الأخلاق، بالعنف سيطر جدي على الدار ودرب عوف بأسره، وبالعنف خوف جماعة شلبي، لو ظللت ساكتًا على حقوقي لأكلوني لحمًا ورموني عظمًا، برهوم يخافني الآن، والرجل الكبير سوف يعمل لي حسابًا من الآن، أن يكون الواحد منا قويًّا في داره بحيث لا يتوه كأي شيء تافه فهذا هو المطلوب.. في اليوم التالي لما دخلت الدار لم أهتم بنظرتهم، واجهتهم بكل ما استطعت من جسارة، دخلت الدار وفي تقديري أنني إما قاتل أو مقتول، لما لحظ جدي أنني لم أعد مهتمًّا بشيء نظر إليَّ وضحك قائلًا:

- عشنا وشفنا، ابن حسن عايز يجوِّز هو كمان، جاتك لهوة على أبوك اللي خيبته ما حصلتش حد.

قلت:

- ما هو اللي يعيش ف الدار دي لازم يخيب.

- امشي انجر وجع ف رقبتك.

مشيت.. من يومها بدأت أدس أنفي في كل أمور الدار، أفتي بما أراه دون أن يسألوني، أحاول إشعار الكل أنني موجود بها، أن لي حقًّا في هذه الدار وعليهم أن يسلموا به، في وجبات العشاء أدعي الغضب رافضًا أكل أصناف لا تروق لي تمامًا، أفضل الجوع على التسليم هكذا لهم بكل شيء، أجعلهم يعملون حسابي، وإذا جاءني الغداء على غير هواي أعيده كما هو قائلًا لجدتي مبروكة إنني أطفح الدم في الشغل ولا يمكن أن يسعفني أو يسندني غداء بسيط.
قال برهوم مرَّة وكان قد جاء يشق على القطن:
- يا صالح اعقل بقى وسيبك م اللي في دماغك.
- عايز إيه يعني، أفضل كده شغال من غير أجرة؟ دا ابن شلبي بيقول عليَّ تملِّي باشتغل بلقمتي، طب ادوني أجرة زي الغريب.
- يا وله اختشي على دمك، الأرض ما هي قصادك أهي، هو أنا شايلها على دماغي؟
- أيوه صحيح الأرض قصادي، إنما مكتوبة عليك.
- دا انت دماغك ناشفة، طب روح حمِّلها وشيلها.
قالها وكح بحيث أصبح عسيرًا عليَّ أن أتابع الحديث معه، ولما غاب عن نظري قلت لروحي إنهم لن يحسنوا معاملتي إلا إذا ابتعدت عنهم وأحسوا بالحاجة إليَّ.
قلت لجدي مرَّة وأنا أضاحكه:
- هو أنا مش بقيت راجل قدامك، مستقل بيَّ ليه؟
نظر إليَّ باستهانة، وقال:
- هَم.
تابعت كلامي:
- جلال وسلومة من دوري واتجوزوا، ما تكتبوا لي على زكية بنت الشيخ فضل.
قال وعلى ثغره ابتسامة ساخرة:
- همك ع النسوان من دلوقتِ زي أبوك؟ طب استنى لما نجوِّز برهوم.
قلت:
- أنا مالي ببرهوم، هو اللي مش عايز، يعني لو طلب حتقول لأ؟ الواحد يطفش منكم.
زام الرجل مستاء من كلامي فابتعدت عنه بخطوات حذرة متوجسة.. أن يكون الإنسان في متناول يد هذا الرجل فهو الموت بعينه.. الأولاد في مثل سني لا يضربهم أحد، كان عليَّ أن أحمي نفسي بالحذر، صارت بيني وبين الرجل عداوة غير معلنة، إنما في كل مرَّة كنت أزوغ منه قبل أن يفكر في ضربي، كنت أقرأ في عينيه وعيدًا بأنه لن يترك لي فرصة تتاح له لإذلالي.. مرَّة كنت راجعًا من الغيط راكبًا الجمل، قابلني عند المصرف القديم وقال متعجبًا وآمرًا في آنٍ واحد:
- صلاة النبي أحسن، راجع بالجمل فاضي؟ مش هاين عليك تحمِّله؟
لم أرد عليه، فتوقف قبالة الجمل وقال متابعًا ما قاله:
- طب نخ الجمل وانزل يا خايب يا ابن الخايب.
ظللت في طريقي إلى الدار متجاهلًا ما كان يقوله، عندما عاد كنت قد عملت حسابي، وقفت في صحن الدار أنتظر وصوله، الجمل بارك بحمله وفي يدي ((شعبة)) أتظاهر بأنني أسند بها الغبيط، كانت الفأس ناحيتي وفي متناول يدي أيضًا، والشيطان يلعب في دماغي لعبة المخاطرة، قلت لنفسي ساعة أن رأيته: لو بدأ بما يوحي أنه يريد ضربي أخبطه قبل أن يخبطني، يقولون إن أبي

وعمي اشتركا في ضربه، هو عظمة عجوزة ولن أخافه، كان يمشي ناحيتي على مهل، نظر إليَّ فوجدني أتحفز، يدي الممسكة بطرف ((الشعبة)) تسلها من حلقة الغبيط وطرف عيني يتأكد من وجود الفأس مكانها ناحيتي، نظر إليَّ متفحصًا وكأنه يقيسني ويعرف مدى استعدادي للتمادي في مشوار الشر، ظل منتصبًا مكانه دون حركة، في يمينه الشمروخ وفي عينيه مزيج من الرغبة في الضرب والامتناع عنه، وشيء من الحسد أو الكراهية لي يشع ويتوهج فوق الملامح، لوح بيده الخالية وهز رأسه، كدت أن أنهزم في مواجهته، لم يكن الخوف وإنما التذكر أن هذا الرجل هو بنفسه عبد القادر عوف الذي لم ينهزم من أي رجل من رجال الكَفْر، عبد القادر عوف الذي أحبه أيضًا وأكره أفعاله، تماسكت وظلت عيناه تتفحصان وتجوسان بحرية في كل ما بان مني خلف الجمل البارك بيننا، طالت النظرة المتبادلة بيننا والصمت يمتد لزمن لا أحسبه كان قصيرًا، بعدها قال الرجل وهو يسند شمروخه إلى جانب من جوانب الدار ويلتفت إليَّ باستهانة من يعرِّض نفسه للمواجهة بلا شيء يحميه، عارفًا أنه بوجوده المجرد يقدر أن يدفع عن نفسه أشد الأخطار وأقواها:
- اسمع يا وله، إنت ملكش عيش في الدار دي، شوف لك داهية اتلقح فيها من دلوقتِ أهه، إنت سامع؟ مش عايز أشوف وشك هنا.
قال ذلك ثم استدار يعبث ببعض الأشياء وكأنه يتكبر على الدخول معي في صراع وجهًا لوجه مستهينًا بي إلى حد جعلني أشعر بالضآلة والصغر، لحظات ثم خرج من الدار دون أن يلتفت إليَّ أو يعاود الحديث معي، قلت لنفسي إنه من الأجدى أن أخرج قبل عودته، إنه لو عاد ووجدني ما تركني لحالي، رجعت أجمع ملابسي في سبت دون أن أرد على مبروكة التي كنت تسأل عن وجهتي دون أن تظفر بشيء، لما حاولت هي منعي دفعتها عني وخرجت، وعندما شافني برهوم وحاول إعادتي خلصت ذراعي من قبضته وسرت وحدي إلى سكة البندر، سألت الغباش عن عنوان أبي مدعيًا أنني ذاهب لزيارته في المحلة الكبيرة، ركبت القطار ووصلت، أوصلني حنطور ولم يكن أبي هناك، كان في الشركة لكن جدتي لأبي عرفتني ورحبت بي، سألتني عن الأحوال وعن ظروف الكَفْر، قلت لها إنني جئت لأشتغل في المحلة لأنهم طردوني، قالت إن مبروكة هي سبب كل هذا الضياع، كان على حجرها طفل صغير، أشارت إليه قائلة: سيد ابن شوق، حكت لي عما حدث من انفصال أبي عن شوق، عن حيرته وارتباكه بالولد والذي ترعاه هي، عن زواج شوق بعد إتمام العدة من ابن عمها، قالت إن أبي تسرَّع بطلاقها وإنه كان من الواجب أن يصبر من أجل الولد، قالت إنه من العسير أن يظل حيًّا بسبب أنه لم يرضع لبن أمه بما فيه الكفاية، عن فلوس أبي التي راحت عليه وسفها عبد الستار، كانت حجرة وحيدة فيها سرير وكنبة وعلى أرضها حصير مفروش، عملت لي شايًا.. قلت لنفسي: إن جدتي ((مبروكة)) حذرتني منها قائلة إنه من الممكن أن تسمني لو أخذت منها شيئًا يؤكل.. كانت هي تنظر إليَّ وأنا متردد في شرب الشاي، كأنها فهمت، فأخذته وتذوقته أولًا ثم أعادت وضعه في الكوز وصبت كوبين وأخذت واحدًا منهما وراحت تشرب قبلي واكتفت بأن وضعت الثاني أمامي، بان أنها فهمت فأسفت لأنني نسيت أنها جدتي هي الأخرى وربما تحبني أكثر من مبروكة، قالت إن أعز الولد ولد الولد يا صالح يا ابني.
لما جاء أبي قابلني بوجه بشوش خلافًا لما كنت أتوقع مما كان يشاع عنه في الدار أنه لو رحت له لرماني في الشارع خلاصًا من مشكلاتي.. قلت لنفسي: إنهم ظلموني طوال هذا العمل وكرَّهوني في أبي حتى أظل عبدًا لهم، وإنهم لما وجدوني واعيًا لنفسي طردوني.. قلت لأبي كل شيء من بداية الخلاف بيني وبين برهوم حتى لحظة الرغبة في معاركة الرجل وضربه، قال أبي متخوفًا:

- لأ يا صالح، سيدك غشيم ويمكن كان خبطك خبطة تروح فيها، دا ربنا ستر، فاكر إنه خاف منك، دا ما يخافش م الجن، دا قاتل يا صالح.
اغتظت لأنه أنكر عليَّ خوف جدي مني.. قلت إنه ما زال يحسب جدي في نفس قوته الأولى وإن الرجل لم يعد كما كان.. قال أبي إنه سوف يسعى لتشغيلي في الشركة.. قال: كتبوا الأرض لبرهوم عندًا فيَّ أنا.. سكت وأنا أقول لنفسي: لو كنت مكانه ما تركتها أبدًا وما هربت.. لعن الأرض ومن يبكي عليها، قائلًا:
- يا وارث من يورثك، رزق هنا رزق هناك، وأهي لقمة بناكلها. قال إنه استغنى عن الأرض ولم يمت، إنه عاش مستورًا وعوض عليه الله.. لكنه عندما نظر إلى سيد الراقد على حجر جدته كشر وبدا غير مرتاح ربما بسبب مرضه.. قال إنه لولا عركته مع جدي لجاء إلى الكَفْر ليراني ويطمئن على أحوالي.. قال إنه كان يرسل إلى برهوم رسائل ويتلقى منه رسائل يطمئن فيها على راحتي، وإنه يكره الكَفْر وناسه ولا ينوي الذهاب إليه أبدًا بسبب ما حصل له هناك يوم طرده جدي من داره ولعنه وأوشك أن يضربه.
بعد أسبوعين أو ثلاثة جاء أبي ووجهه مخطوف كأنه هارب من عند الأموات، قال لجدتي ولي:
- أبويا جه المحلة هو وبرهوم.
قلت وأنا أستكثر عليه خوفه الزائد.
- وإيه يعني، ما ييجوا حيعملوا إيه؟
قال:
- دا راجل شرس وطبعه غلس يا صالح.
قلت متذكرًا وقفتي قبالته غير مهتم به:
- غلس على روحه، يعني حيقطع الرقابي.
- أنا كلمت نفرين م البلد يحضروا وياه.
كان واضحًا أنه خائف بشكل زائد، لم يعجبني خوفه، عرفت أنه عاجز عن حماية نفسه من رجل عجوز، وأنه عاجز بالقطع عن حمايتي، إن حياته في المدن جعلته يعمل حسابًا لأي شيء أكثر مما يستحق، إن ناس المدن يخافون من خيالهم ولا يقدرون على مواجهة أحد، إن أبي القديم واجه هذا الرجل وهو في عز أيامه لكنه اليوم يخشاه وكان من الواجب ألا يعمل له حسابًا.. قال هو:
- أنا حابقى أسألك قصادهم: عايز تعيش هنا ولا تسافر البلد، لاجل يروحوا من غير مشاكل.
قلت إنه يخاف على روحه ويصدرني أنا لمواجهتهم، وإنني ما عدت أخشاهم حتى لو أخذوا روحي.. وعرفت في هذه الساعة أن جدي رغم كبر سنه أكثر رجولة من أبي، وأنه علمني الجسارة وعدم الخشية بينما يعلمني أبي الخوف والرعب من أول تجربة، في أول موقف جاء يرتعد وكأنه داخل على جهنم.
عندما جاء جدي وبرهوم والضيفان كان أبي مخطوف الوجه مرعوش الكلمات، مخنوقًا بحبل خفي جعله يتهته في حيرة وينظر إلى الضيفين وكأنه يستمد منهما الحماية.. سألني أحدهما إن كنت أرغب في السفر إلى الكَفْر.. فقلت: لا.. قام برهوم وضربني كفًّا هزيلًا على صدغي وأنا ساكت أنظر إلى أبي وأنتظر رده لكنه قال في حذر:
- ملكش حق يا برهوم، هوَّ عمل إيه بس؟

جعجع جدي كثيرًا لكنني لم أهتم به، ظللت ساكتًا بلا جواب، خرج الضيوف وبقينا وحدنا، أنا وأبي وجدي وبرهوم، أخرج برهوم عقد بيع أطيان وناوله لي، قرأت فيه أن ميراث أمي أصبح لي بيعًا وشراء.. قلت لنفسي: فرجت، الآن اعترفتم بوجودي.. قال جدي وكأنه يصالحني بالكلمات الجافة:

- شرطنا لك يا اهبل يا ابن الكلب على زكية، وإن ما مشيتش أقل من ذلك تتقطم رقبتك.

أخذت أبي خارج الحجرة، أفهمته أنني أفضل العودة لأنهم سلموا بما طلبت، وأنهم سوف يغيرون معاملتهم معي، خاف أبي من أن يكون في الأمر خدعة فطمأنته قائلًا إنني لو ظللت أشتغل هنا طوال عمري ما ادخرت ثمن فدان واحد، وأن ما أطوله أحسن من حبات عيونهم.

كان أبي غير راضٍ عن ذلك الرأي، بان في عينيه شيء من الكراهية لي والذعر منهم، قال لجدي وهو مستسلم تمامًا:

- ما دام يرتاح هو حر.

قلت لنفسي: إنه أسلمني لهم دون أن يجعلني عزيزًا، وكان من الواجب أن يتظاهر بأنه سوف يصر على بقائي ليعرفوا أن لي أبًا يدافع عني ويفتح لي بيته في أي وقت، صحيح أن عودتي إليه ربما لا تحدث إنما كان الواجب: أن يجعلني عزيزًا عليهم قدر الإمكان ولو بالكلام.

لما قمنا للسفر لبس بنطلونه الأصفر وسترته الصفراء، فبدا لي كحاجب المحكمة أو فراش المآتم، يحمل سبتًا وضع فيه بعض الفواكه وقمع السكر وقطع الصابون ويمشي خلف جدي وكأنه تابع راضٍ عن تبعيته، رفض جدي أخذ السبت منه، إنما برهوم أشار إليَّ بأخذه، ولا أعرف إن كان من باب عدم إحراج أبي أو أنه جعلني آخذه لنستفيد به.. وفي القطار قال جدي عنه إنه أهبل وإنهم ضحكوا عليه وأخذوا ماله وصرفوه ثم أخذوا منه شوق أيضًا، وإنه سيظل طوال عمره سواحًا في بلاد الغربة، وإنه سيظل تائهًا إلى أن يموت في الغربة لأنه اختار ذلك ورضي به، جاهلًا كيف يطالب بحق من حقوقه في هذه الأيام التي لا يعيش فيها إلا الأقوياء القادرون على أخذ حقوقهم وحمايتها.

وأصبح لي في الدر حس بعد ما كنت موجودًا كعدمي، شعرت بأن لي سعرًا بعد ما كنت بلا سعر.. عندما باعوا القطن جهزوا المندرة الصغيرة ودخلت على زكية.. عرفت يومها أن جدي أحسن لي من أبي.. سايرت الرجل الكبير ففتح لي قلبه وعاملني بالحسنى، لم يعد ينظر إليَّ تلك النظرة القديمة على أنني مجرد صبي بلا أهمية، صرت في عينيه رجلًا له رأي في الزرع والحصاد ونظام الدار، بدأت أحتل عنده مكان برهوم، كان برهوم يزداد ضعفًا وإصرارًا على الفساد، الحشيش والحريم والسهر دون حد معقول، كان الصراع قد بدأ بينه وبين الرجل الكبير بسبب علاقات برهوم المشينة مع مقاطيع الكَفْر وسهراته غير المناسبة في دور مشبوهة، كان إسرافه يزداد وتتكاثر حوله الأقاويل، وكلما نصحه جدي بالاستقامة هز دماغه وسكت استهانة بالرجل أو أطال لسانه وشتمه والرجل صابر عليه ومتحامل على نفسه مراعيًا ضعفه البيّن.. لما كان ينفرد بي كان يبدي غضبه عليه، وكثيرًا ما كان يطلب من الله أن يكون أجله قصيرًا.. كان برهوم عندما يحتاج إلى الأموال يبيع ما يطوله، البهائم والمحاصيل، ويرهن الأرض، واستمر حاله على هذا النحو حتى جاء اليوم الذي رقد فيه عاجزًا عن الحركة متهالكًا منهارًا على نفسه، ظل قرابة الشهر وجدي رافض حتى أنه يوجه إليه أي كلام أو يدخل عليه حيث يرقد بعِلته التي حولته إلى عود حطب أصفر وهش إلى حد مؤسف.. عندما دخل عليه للمرَّة الأولى لم يتبادل معه

كلمة، نظر إليه مليًّا وظل مصلوبًا في وقفته ينظر إليه ويتسمع صوت أنفاسه المتلاحقة المنهارة، في المرَّة التالية جلس إلى جوار فراشه وزاغت عيناه وهو يهمس في لوم:
- بقى كده يا برهوم، تعمل ف روحك كده؟
طالت رقدته وفقدنا الأمل في أن يعود كما كان، كل ما طلبه كنا نجيبه إليه وكأنه كان معروفًا لكل من بالدار أنه ضيف راحل عنا في غد قريب وعلينا إكرامه.. لما طلب أن يرى أبي سافرت إليه المحلة وعرفته بأن خالي صحته متأخرة ويطلبه.. قلت له إن الحكيم قرر أن أيامه في الدنيا قليلة.. عندما دخل عليه أبي كان وجهه أكثر احتقانًا وزُرقة، شاف أبي بالعينين وربما لم يدرك بالعقل أنه أبي، لما أفاق مد يده إلى أبي وأمسك يده وكلمه عن الأرض، عن ضرورة عودته إليها مهما كانت الظروف.. قال لجدي إنه لن يرتاح إلا إذا عاش أبي في داره، وإن الدنيا لم تدم لأحد والأرض خابت لأنهم ظلموه.. لعن أمه الواقفة، وقال إنها السبب في كل شيء سيئ.. بعدها لم يتكلم كلامًا موزونًا، كان يخرف وسطنا وروحه تأبى أن تخرج بهدوء.. ومرت الأيام الثلاثة التي غاب فيها عن وعيه وجاءت اللحظة التي خرج فيها السر الإلهي.. كانت مبروكة تصوت وأبي واقف والدموع تتساقط من عينيه متلاحقة وكأنه ((حُرمة)) عاجزة عن السيطرة على عينيها، وجدي جامد الوجه والبدن كصخرة لا تهزها الأحداث وعيناه لا تطرفان، نظرته ساهمة مفجوعة إنما صلبة، وحتى عندما انسالت الدموع من عينيه غصبًا لم ترف عيناه وكأنه يتأبى الاعتراف بالدموع ويرفضها.. أما أبي فكان يندب ويهز البدن الراقد ولعابه يسيل على شدقيه كأنه مجنون.. قلت لنفسي: إنه من الممكن أن يكون كل هذا مجرد افتعال مصنوع إثر ما قاله برهوم عن الأرض وضرورة أن تعود المياه لمجاريها، أي أن يعود أبي إلى الدار والأرض التي لعنها، أن يرث الأرض التي تركها كل هذه السنوات ويشاركني ابنه من شوق في الميراث.. سألت روحي إن كان يستحق، وكنت أحسب أنه لا يستحق في أرضنا شبرًا لأنه فاتها وكأنها لا تستحق اهتمامه واستماتته من أجل شبر منها، ربما يبيعها ويصرف ثمنها على الحريم، روحية الثالثة بعد أمي وشوق، تبدو حويطة وغويطة، تضيع الأرض لقاء بعض الدموع والكلمات المحبوكة، ووصية رجل فاقد لوعيه وغارق في حمى المرض حتى شعر رأسه، لمَّا كان في وعيه لم يفكر إلا في نفسه.
قالت مبروكة وعلى رأسها طين تيبس وعلى وجهها حسرة:
- شمتوا الحبايب والعدا فيك يا جدع، مين يسقي غيطك يا جدع، قولوا لأبوه ملوش ولد، قولوا ما عادلوش سند، راح الولد، راح السند، والدار خراب بعد الولد.
كانت تندب، وكان أبي مدهوشًا من الكلام الذي يعني بالنسبة له الكثير، إنكاره والتشكيك في وجوده.. وجدي ساهم وكأن ما يدور حوله لا يخصه.. في الخميس الأول وزعنا الرحمة بكثرة على المقرئين والطالبين حتى فاضت.. قالت النسوة لجدتي مبروكة التي شالت سبتًا فيه بقايا الرحمة في اتجاه الدار إن دخولها الدار ببقايا الرحمة لا يبشر بخير، فربما يعني موت واحد من رجالها، زوجها أو ابن بنتها، لكنها بدت كما لو كانت قد تعمدت أن تدخل الدار بشيء منها.. عندما فقدت ابنها لم تعد تهتم بشيء، لو مات رجال الكَفْر ما هزها أو حرك فيها شعرة.. أعطت أبي حفنة تمر من سبت الرحمة، لم يكن قد فكر أنها تمنحها إياه ليأكلها فوضعها جانبًا، أمسكته من خناقه وراحت تصرخ:

- خايف على عمرك يا حسن، خايف م الموت يا ضنايا، عايز تورث يا خويا في الغالي، عايز تضيع الأرض على النسوان.
كان أبي حائرًا وعاجزًا عن الجواب، لم يكن يتوقع منها عراكًا في مثل هذا اليوم.. في صباح اليوم التالي سافر أبي بعد أن عارك جدي ومبروكة، خرج من الدار غاضبًا.. قالت مبروكة إنه كان ينوي بيع الأرض وصرف ثمنها على الحريم.. قالت إن خراب الدار سيحل لو بقي في الدار، وإنه لو ورث زمام الكَفْر لضيعه.. استشهدت بزواجه الثالث من روحية وإمكانية أن يخلف منها هي الأخرى في أجل قريب.. أشارت على جدي بأن يكتب الأرض باسمي، لكنه كان تائهًا وغارقًا في همومه لدرجة جعلته عاجزًا عن الموافقة أو المعارضة.

* * *

آخر مرَّة شفت فيها سيد صدفة، كان عند الكوبري مع سعاد بنت شلبي، أخته من شوق، قال وهو يداري خجله إنه فات على الدار ولمَّا لم يجدني ترك سلامًا وخرج.. عرفت أنه ينتظر عربة يركبها في طريقه إلى مصر.. هكذا دائمًا نراه صدفة أو يأتي ليطل علينا ويسرع بالسفر ولمَّا تكون الأجازة طويلة لا نراه، نسمع أخباره من الناس.. أحس بالعار من بقائه عند أمه وعدم التفكير في المجيء، في كل مرَّة يقول إنه ينوي المجيء إلينا مخصوص، هو حر، وهل مجيئه يفيدنا في شيء، وهل طالبناه بشيء ليتهرب منَّا على هذه الصورة.. لا يربكني في الأمر إلا كلام الناس، الناس لا تترك الواحد في حاله، أن يزور أمه شيء لا عيب فيه، إنما العيب أن يجعل دار جماعة شلبي مرساة، فيها يبيت ويبقى، وإن زارنا فمن باب المجاملة وأداء الواجب في الكَفْر.
أحس بالحرج من كلام الناس، يسألونني عنه وكأنهم يعايرونني بوضعه، كأنني مسؤول عن تصرفاته، هو حر، دارنا مفتوحة إنما لا يمكن أن أجبره على شيء، علموه في المدارس أن ينسى الأصول، أن ينزل كَفْر عسكر دون أن يدخل دار جده عبد القادر إلا من باب أداء الواجب، كأنه من جماعة شلبي، يجهل ما يقال عنه، أبي نفسه لا يرتاح لدخوله دارهم، شاكر دائمًا معه، إن ينزل الكَفْر حتى أسمع أخباره مع شاكر: كان مع شاكر في السوق، كان مع شاكر في الدار، كان مع شاكر في مندرة شلبي.
أخذني سيد من يدي وابتعد عن أخت شاكر، همس في أذني سائلًا:
- شفت أبوك يا صالح؟
قلت وأنا أشعر بحرج لأنني وعدته بزيارته ولم أذهب إليه:
- والله يا سي سيد انشغلت في الأرض وما ملكتش أروح.
- طب يا صالح، بس ابقى روح شوفه، لما أكون غايب تكون انت مكاني، عايز أعرف أخباره منك.
قلت لنفسي: إنني أذهب إليه فأجده ملويًّا بدون أسباب، وإنه يجعلني أشعر أنه غريب عني، يقوم بواجبات الضيافة وكأنني غريب عنه، لا أشعر أنني في دار أبي، أخرج بعاري ولا أجد مبررًا لمعاودة زيارته، بعد كل محاولاتي معه أن يأت ليعيش في الكَفْر لم أجد لديه إلا الرفض، الرفض ليس من أجل شيء إلا إشعاري بأنه يرفضني أنا، يرفض الاعتراف بأنني ابنه، كلما حاولت الاقتراب منه ابتعد، وكلما حاولت الابتعاد عن سيد اقترب.. قال سيد:
- إيه سرحان ف إيه يا صالح؟
- ولا حاجة، ما انا كنت مستني نروح له سوا.

ضحك وسلم، ولما طلبت منه أن أوصله شكرني وقال إنه لا لزوم للتعب وأشار إلى البنت.. في الدار وجدت زكية وسط البنات، لما شافتني قامت وتبعتني إلى المندرة.. قالت:
- أخوك سيد كان هنا، بص وهوَّ واقف ومشي مع أخته الصغيرة، بيقول مسافر بيها مصر.
قلت:
- شفته.
قالت:
- هو عامل كده ليه؟ وأنا بقيت ف نص هدومي م الخلق، دا ما رضيش حتى يقعد يشرب كباية الشاي.
أضافت:
- الواحد بقى ف نص هدومه من عمايله، دا الغريب يراعي كلام الناس، ومحمد ابنك مسك فيه مفيش فايدة.
قلت لنفسي: إنه عرانا من كل ما سترنا أمام الناس، إنه لو كف عن المجيء إلى الكَفْر يكون أحسن.. قلت لنفسي: إنه حر، وإنني لن أطلبه بلساني، لن أحاسبه على أفعاله، ويكفي أن يحاسب هو نفسه فليس جاهلًا، كل مرَّة يعد فيها ولا ينفذ وعده، ربما لا يجدني من مقامه، مقامه ابن شلبي الذي خاب من المدارس، أما أنا فمهما كنت في نظره فلاح.. مرَّة قال وهو يضحك:
- والأجازة الجاية أقعد عندكم لحد ما تزهقوا مني.
مَن علمه أن الأخ يزهق من أخيه، صحيح لسنا من أم واحدة إنما الأم ماعون، المهم العصب، سيد قلب الآية، اهتم بإخوته من الأم وأهمل أخاه من العصب، ربما كان أبي هو الذي أوصى بذلك، إنما الرجل لا يرتاح لدخوله دار شلبي، لو عاش أيام أجازته معنا يقطع ألسنة الناس، هو يدخل الدار كالخيال ثم يخرج، حتى في المرَّات القليلة التي يبقى بها ليلة أو ليلتين يجعلنا نتعلق به ثم يهرب، كلما حاولت الإمساك به يهرب، كأنه خيال أو وهم، أشعر بالراحة لما يأتي، أمشي معه مرتاحًا ورافعًا رأسي أمام الناس.. ((ها هو سيد حسن عوف يا كَفْر عسكر، ابن مَن تاه في بلاد الغربة، ابن حسن الذي عايرتموني به طوال عمري، هو أخي، أفندي مصروف عليه ثقله، دخل المدارس والجامعة وأصبح أستاذًا بحق، له وزن وهيئة وقيمة ومقام، سيد أخي يا كَفْر عسكر فهل فيكم من يقدر على إنكار أن جماعة عوف فيها أساتذة يفوقون أولاد شلبي، حتى سيد الذي خرج أبوه من الكَفْر بلا شيء رباه وعلمه وأصبح كما ترون)).
لو لم يكن الماضي منصوبًا بيني وبين أبي، لو لم يكن الرجل صلب الرأس عنيدًا لأصبحنا أحسن دار في درب الحاج عوف.. سنوات ويتم عبد القادر تعليمه ويلحقه محروس.. سنوات وتصبح دارنا مزحومة بالأفندية، أحسن من دار العمدة، إنما أبي لا يسمع الكلام.. سيد قال له مرَّة: انسوا الماضي وابدأوا من جديد.. كان يرغب في تصفية الجو.. قلت لنفسي ساعتها: إنني مستعد لذلك، بل إنني كنت لا أحلم بغير ذلك.. إنما أبي كان يلوح لي بما جرى، يذكرني بغلطتي الوحيدة، ويلوح لي بالأيام التي كنت فيها في نصف وعيي.. أعود مرَّة أخرى، راجعًا من أمنيات نسجتها إلى حقيقة ما يدور حولي، ها هو أبي يرفضني بإصرار، يرفض أن يصدقني، وأخي يحاول جهده أن يردم على الماضي، لو كان أبي وحده لما عاملته، في كل مرَّة يسترجعني إلى الأيام القديمة، يجرني لأتكلم بمنطقها، يفسد كل شيء بفتح جرحنا القديم المشترك، الأرض ميراث كان له وأخذته فماذا

يهمه، جدي عبد القادر أعطاه لي، حتى ولو كنت أخذته بالزور فهل أنا غريب، أرض عبد القادر عوف وأنا ابن ابنه.
لما كنت أحاول توضيح الأمر لسيد يطلب مني السكوت، لم يكن يرغب في سماع حكاية الأرض، كنت أعرف أنه سمعها مني أكثر من مرَّة لكنني كنت أشعر بأنه من اللازم أن أؤكد له ما جرى، أن أوضح له أن أبي لم يفهم وأنه يحكي على هواه، يدعي أنني أخذتها بالزور ووضع اليد.. أحيانًا كنت أقول لنفسي: إنه لا يصدقني، إنه يتظاهر بتصديقي ليرتاح، إنه لو كان يصدقني لجعلني سره، ولجعل داري مقره، ربما يرتاب في أمري.. الناس في كَفْر عسكر لا يكفون عن الثرثرة، ربما أفهموه أن له في الأرض نصيبًا، لو كان له حق ما منعته، أي حق وهو الآن موظف له مرتب شهري وهو ما زال بطوله.. الناس في الكَفْر بارعون في إفساد الجو، المظهر لا يهم، مظهره لا عيب فيه، إنما هل أعرف ما في قلبه؟ الأمور الخفية خفية ولا يعلمها إلا الله، كلام الناس عنه كثير.. مرَّة قال لي نفر:
- دا أخوك سيد ده ناب أزرق.
خفت ساعتها، وسألته عما يقصد، لكنه لم يوضح أكثر من هذا، جعلني أشك فيه، أخاف منه، ربما يأتي ليعرف أسراري، ربما يدبر لي مكيدة، إنما كيف أصدق كلام الخلق عنه، لو كان يسر إليَّ بما يسمع عني، يوهمونه أنني أخذت نصيبه بأخذي الأرض وحدي، وهل كنت أرفض أخذها وهي جزء من حياتي، بها أعيش وعلى خيرها أربي الأولاد، بامتلاكها يكون لي في الكَفْر سعر، من غيرها أصبح بلا قيمة، هكذا وجدتني مقطوعًا لها ومربوطًا إليها، لملمتها قيراطًا على قيراط، فككت رهونها وسددت ديونها التي خلفها برهوم، هي بالنسبة لأمثال سيد تعني مبالغ قابلة للضياع والصرف، من يعرف إن كان مستقيمًا في معيشته في مصر أم أنه فاسد جاء يبحث عن حق قديم أصبح لا يخصه، ماله بي، ولماذا أخشاه ولا أرتاح له تمام الارتياح، ربما بسبب الأرض، خوفي على الأرض وعلى مستقبل الأولاد يزرع الشك في قلبي.. لمَّا طلبت منه أن يعود أبي إلى الكَفْر وافقني بسرعة، كأنها فكرته ونيته المبيتة، أخذني إليه بعد أن انقطع حبل الوداد بيننا لسنوات طويلة والرجل لم يوافق، عندما زرته في المولد قال إن سيد فاسد، وإن سيره لا يعجبه.. قالت امرأته الجديدة إنه لا يهتم بهم كما كان يفعل، إنه لم يعد يدفع لهم شيئًا.. ومرَّة قال لي نفر من الكَفْر:
- دا سي سيد أخوك داير على حل شعره في مصر، ابن خالي راح شقته لقى فيها واحدة ست وحلف إنه شاف سكران، دا كافر.
أمسكته من زنده.. وقلت ساعتها:
- وراس سيدي عبد القادر لو كلمة طلعت من حنكك ليكون بحش أجلك، حسك عينك تتكلم عليه قصادي.
يومها كنت أشعر أنه من الواجب عليَّ أن أحميه من كلام الناس، لم يكن أول من يكلمني عن سيد في مثل هذه الأشياء: يشرب الخمر، يعاشر النسوة، لا يصلي.. صحيح أنني لا أصلي إلا في المناسبات وأنا حامل كتاب الله، إنما هو لا يصلي حتى أيام الجمع رغم أنه لما ينزل الكَفْر يكون محطًّا للأنظار، يحسبون عليه خطواته، ربما تؤكد شكوكهم فيه أحاديث الناس عنه، يكونون في حالهم، يصلي أو لا يصلي فهو أمر لا يخصهم، يحاسبون الناس ولا يحاسبون أنفسهم، يأمرون الناس بالمعروف وينسون أنفسهم، كَفْرنا غارق في الذنوب، الخير فيه قليل والشر زائد، حريم

الكَفْر يظاهرن بالعفة وفي الدور تسترهن الجدران وفي الحقول تسترهن أعواد الذرة وعتمة الأمسيات، أكثر من دار معروفة يلعب فيها رجال الكَفْر القمار ويتباهون بالسهرات، مقاطيع الكَفْر يتكاثرون ولصوصه يتزايدون، دار شفيقة ودار زبيدة وعدلات أوكار للفساد، القمار والحشيش وأحيانًا راحة الرجال في أحضان النسوة، مالهم بنا، جدي عبد القادر كان يصلي في الأعياد وقلما كان يصلي في أيام الجمع فهل كفر هو الآخر.. **(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)**.. وكما يقال إن الله أدرى بما تخفي الصدور، وأنا هل يقال عني بالمثل أنني كفرت؟ هل يكفر الواحد لو كف عن أداء فرض الله؟ الصلاة عماد الدين وأنا حامل لكتاب الله ومن نسل الحسين فهل سقطت عني الصلاة؟ أليس الله غنيًّا عني وعن صلاتي وصيامي؟ ربما كنت عاصيًا وربما كنا نسل شياطين وحكاية نسل الحسين خدعة اخترعها جدنا الكبير ليداري بها خفاياه، بنى الجامع والزاوية وانشغل في أمور الدنيا، والحشيش هل هو حرام مثل الخمر، ولو كان حرامًا فكيف يسمح الشيخ مرعي لنفسه بتدخينه؟ كلها أمور خفية، أعرف أن الله غفور رحيم، كلما فكرت في هذه الأمور يخف عقلي، أوشك أن أتوه عن الدنيا، أن أسترسل في هذا التفكير حتى أشرف على الضياع التام في منطقة بين الكفر والإيمان فأهرب بنفسي مستعيذًا بالله من الشيطان الرجيم قارئًا: **(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦))**.

* * *

بعد موت برهوم زادت هموم الدار، حامت حولها الغربان، وعشش الغم في الجدران.. تحولت الدار إلى مندرة نتلقى فيها العزاء طوال النهار وجزءًا طويلًا من الليل، داستها نعال الخلق، العدو والحبيب، انكشف ما كان مستورًا، حتى أولاد شلبي جاءوا لم يتخلف منهم نفر، توافد الناس على مدار الأيام وانهدت قوانا من تلقي العزاء، أحيانًا يسألون عن أبي ويستنكرون غيابه عن الدار في مثل هذه الظروف.. وجدي ذاهل عما يدور حوله، كلما جاءه وافد يعزيه تنحدر من عينيه الدموع، تتزايد عندما يذكرونه بأبي، وشاعت في الكَفْر حكايتنا: ((عبد القادر عوف بكى يا رجال، راحت الجسارة، وخفت الصوت العنيف وحل السكون المهموم على ملامح الرجل الكبير)).. في أول الأمر لم يكن من السهل أن أكلمه في شيء، كنت محطوطًا في جو الغم ومغمومًا بفعله، تهت في زحمة الأنفار وذابت كلماتي وسط الهمهمات.. ولما لاحظت حمرة العينين في اليوم العاشر قلت له: ارحم نفسك.. فنظر إليَّ وبكى بحرقة.. قلت: الأعمار بيد الله.. فانسالت الدموع، لم يكف أبدًا، ظل يبكي بلا صوت، أنصاف الكلمات التي تخرج من بين شفتيه جعلته يبدو مختلفًا تمام الاختلاف، وكأنما أصبح الرجل فرجة لكل من يراه.. قلت لنفسي: إن من يأتون لا يأتون من أجل العزاء وإنما لرؤية الرجل في وضعه الجديد، إن الدموع التي عزت عليه طوال العمر جعلتهم يأتون، خزين عمر الرجل من الدموع ينسال ويزيح عن وجهه كل أمارات القوة والقدرة القديمة، يشيخ هكذا ويبين عليه الكبر الذي دارته القوة أعوامًا بطولها.. لو يكف الرجال والنساء عن المجيء ربما تخف الأحزان، لو كفوا عن ذكر برهوم ربما تروق عينا الرجل وينتبه لنفسه مرة أخرى، لكنهم داوموا على المجيء وشاركوا في الأحزان بالمظهر بينما يرقبون الرجل بالعينين، كل معزٍّ بدوره، وعندما تغلبني الأحزان أتوارى بعيدًا عن الخلق حتى لا تتم المهزلة ويلمحوا

دموع الحسرة على ما صرنا إليه.. جدتي مبروكة تتصدر مجلس الحريم، تنصب المندبة وتسبق الندابة في النواح والتعديد على برهوم، تلطم الخدين.
قال الجد إبراهيم لأخيه:
- فوق لروحك يا عبد القادر، شوف أحوالك، الأربعين فات ولا لزوم للاستمرار في الأحزان.
كان جدي يتسمع والدموع تتساقط على لحيته التي تركها تطول فبانت الشعور البيضاء أكثر من السوداء مؤكدة أنه شاب.. كان صوته المنهوك مصحوبًا ببحة غريبة تخرج مع الكلمات المتقطعة فتجعلها غير مفهومة وغريبة على الآذان، وعوده ربما كان هو إنما انحنى واستسلم لانحناءة لم يكن معتادًا عليها، وأسأل إن كان قد انحنى بسبب برهوم الذي لم يتوقع موته بمثل هذه السرعة أم أنه انحنى ليزيد فينا شماتة الأحياء؟
أصبحت دارنا خرابًا، وجفت الأشواق، حتى المواشي جفت وما عادت تدر الحليب، وكرم البلح لم يطرح وكأنه عاندنا هو الآخر، وكلما نزلت إلى الأرض حسبتها أكثر سوادًا وغلظة، كأنها اسودت بالحزن هي الأخرى على ما صار، جفت ليس فقط لانشغالنا عنها، بل أيضًا لأنها شاركتنا حزن الدار.. والطين المتيبس فوق غطاء رأس جدتي المشدود على جبهتها بالطرحة السوداء أصبح علامة لها، تتوج به نفسها، وكأنها تقول لكل الناس إن النهاية المحتومة لأمثالها لا يمكن أن تنتهي إلا بتاج الطين، رفضت أن تزيله لمَّا طلبت منها زكية أن تفعل، رفضت أن تستحم، قالت بتصميم لا يقبل النقاش: في الميعاد.. حسمت أمرها على أن يستمر الحزن عامًا بطوله.
وكان علينا أن نحتمل، حتى لمَّا ولدت زكية لم نشعر بغير العار، فالطفلة التي كانت تجعل للدار حسًّا أصبحت هي الأخرى غريبة في مجالس الهم المتكررة، والولد الصغير كان يحس بما يجري في الدار فيخرج إلى الغيطان، يسرح بالمواشي أو يلعب بعيدًا ونسأل عنه فلا نجده.. كانت مبروكة هي صانعة الحزن وهي التي فرضته على الدار فرضًا، كأنها باركت حزن جدي ودموعه وجرَّته جرًّا لأن يستمر كل هذا الزمن، وانقاد الرجل لها وسبقها.. والشهور تمر وئيدة متأنية، والعام لا يود أن يكتمل لينزاح عن الدار كابوس الهم المعشش.. كانت عيناه تزدادان احمرارًا رغم أنه أصبح عاجزًا حتى عن إفراز الدموع، نضب خزين عمره في الشهور القليلة وما عاد له إلا الصوت المغموم المقهور علامة تميزه عن كل الأصوات، وكلما ذكروا له اسم برهوم انسالت دمعة أو دمعتان بعسر شديد وتحولت حدقتا العينين إلى جمرتين ملتهبتين.
كان الولد مصطفى يرمح في صحن الدار وشافه الرجل.. قال وهو يمسك عينه اليمنى بيده:
- بعد عني يا وله.. طرفت عيني.
جاءت زكية لإبعاد الولد.. قال هو:
- سيبيه يا بت، دا مش هوَّ، دي حاجة كده دخلت عيني وبتلهلب.
نظرت هي إلى عينه وبحثت عن شيء فلم تجد.. إنما في نفس الليلة، بعد أذان المغرب قال:
- ما تولعوا يا ولاد.
كانت اللمبة تنير صحن الدار، عيناه تلمعان وتعكسان بريقها وسط الحمرة التي شملت بياض العينين فبانتا عيني ذئب جريح.. قلت له إن اللمبة مشتعلة.. قال جادًا:
- وبتكدب عليَّ يا ابن الكلب!
قامت جدتي مبروكة من مقعدها واتجهت إليه، نظرت إلى حبات عينيه وخبطت صدرها بيمينها قائلة:

- مالك يا عبد القادر يا خويا؟ اوعى تكون اتعميت.
كانت أول مرَّة أسمع فيها أو أفكر في عماه، لم يخطر ببالي، إنما الكلمة رجتني فاهتزت يدي القابضة على كوب الشاي وسقط على الجلباب، اقتربت منه فوجدته يطل إلينا من خلال عينين مفتوحتين عن آخرهما إنما لا تطرفان، لم أصدق أنه أصيب بالعمى هكذا مرَّة واحدة، رفضت ما سمعته، قلت وكأنني أدفع عنه العمى بالإنكار:
- يا ولية اخرسي كده بلا تلطيش.
لم يحرك جفنيه، ظلت العينان تلمعان في ضوء اللمبة ولا تتحركان، ظللت واقفًا قبالته حاملًا في يدي اللمبة وفكرت في شراء مرهم أو قطرة نداويه بها، بعثت إلى صبحي الحلاق فجاء، ترك لنا زجاجة قطرة حمراء، في الصباح كانت العينان كما هما.. صوتت مبروكة في وجهي:
- سيدك اتعمى يا صالح، سيدك اتعمى.
كان الصوت كئيبًا ومخيفًا وحاسمًا في آنٍ واحد، صوتًا واثقًا لا يقبل النقاش، كأنما تراهن على صدق ما تقول على حساب نور عينيه، أبعدتها عني قائلًا:
- انكتمي يا ولية.
لكنها ظلت تؤكد وتؤكد وتسرد الحكايات عمَّن فقدوا النظر في ظروف مشابهة إثر ضياع الولد أو الأخ، وحتى لما كان صبحي الحلاق يضع له المرهم كانت تصوت:
- خلاص يا عبد القادر، خلاص يا خويا، اتعميت، اتعميت وقعدت زي البسيوني وأم إبراهيم؟
وهو جالس في مقعده لا يتحرك ولا ينطق بحرف، كأنه أسلم نفسه لها أو عاش في عالم غير عالمنا، بهدوء رهيب وتقاطيع صارمة لا تلقى أدنى اهتمام بما يدور، كأنما اللسان توقف هو الآخر أو تأكد من لا جدوى الكلام، وكأنما الأذنان كفتا عن السماع، البدن كله قاعد في اعتدال لا يكتمل بفعل الانحناءة التي أصابته مؤخرًا، فجعلت منظره كله يبعث على الإشفاق.. للمرَّة الأولى منذ فتحت عيوني لأراه أشعر ناحيته بالإشفاق، طوال عمري لا أشعر بغير الخوف منه ومن قوته، وحتى يوم واجهته كنت أتخوف منه وأتوقع حذرًا أن ينالني بأذى، كان الإشفاق أمرًا جديدًا لم أعمل حسابه، جديدًا على الوجه الصارم والبدن الواثق الذي عرفته كل عمري.. ولم أكن راضيًا بتصديق شيء، كل ما وصفوه عملناه ولم يثمر، ولما جاء الحكيم من البندر لم يفلح علاجه، قلت نذهب به إلى حكيم مشهور في مصر.. يومها قال لي:
- ابقى امشي جنبي يا صالح وما تخليش حد يلاحظ.
ومشيت جنبه حتى ركبنا وأنا أحس أن كل العيون تنصب علينا مؤكدة أنها تعرف الحكاية، والحكيم في مصر همس في أذني بأن الأمل ضعيف، فهززت الرأس وعدت به إلى الكَفْر وسط عيون مستطلعة عارفة، وهمسات شامتة أو مدهوشة أو محزونة على الرجل، على عبد القادر عوف سيد رجال كَفْر عسكر.. ((لم تنفعك الدموع، الذي مات ارتاح في مرقده، وأنت ما زلت تدب الأرض بالقدمين العفيتين إنما لا ترى عدوًّا أو حبيبًا، قتلت فيك القدرةَ أحزانٌ كانت بلا معنى ولم تكن تليق بك يا سيد الرجال، ربما استرسلت في البكاء حزنًا على دموعك فبكيت، استرسلت في إفراز الدموع بعد ما سقطت غصبًا عنك دموع، بكيت انهزامك أمام الموت لما عجزت معك الحياة، ربما لأنك تذكرت وحدتك في نهاية الأمر بعد موت برهوم وموت عبد الحميد قبله وابتعاد حسن، تذكرت وحدتك وسط إخوة تتزايد خلفتهم وأنت وحدك تتناقص أنفاس الخلفة في إدارك)).

في التاريخ الذي حدده الحكيم أخذته وذهبنا، بلسانه قال إن الأمل ضعيف، ورغم ذلك دفعنا له ما طلبه ثمنًا لإجراء العملية على أمل أن يعود إليه البصر الضائع، ولم تثمر الأحلام، عاد كما كان، كفيف البصر مجروح المشاعر، جلس على دكة النورج وسط الدار، كف عن الكلام إلا الضروري منه، ولما شكوت له الحال وعدم أمانة الأنفار قال بانفعال:
- روح لأبوك يا صالح، هاته يسندك ف الغيط والدار.
قالت مبروكة:
- خلِّي أبوه في حاله، هو فاضي إلا للنسوان.
ولأول مرَّة يحتد الرجل بعد عماه، طوح عصاه ناحية الصوت وتعثر في خطواته ناحيتها، كان يلعنها بتصميم وكراهية:
- اخرسي يا بنت المراكيب، يا صنف واطي، حد سألك يا مسحوبة من لسانك.
أجلسناه غصبًا وحاولنا تهدئته لكنه لم يهدأ، ظل يرمي عليها مسؤولية خراب الدار، وتشتيت أولاده، وحتى أبي الذي لم يكن راضيًا عنه في أغلب الأحوال بدا راضيًا عنه كل الرضا ناسيًا أخطاءه وتركه للدار، لائمًا جدي مبروكة وجاعلًا منها السبب الأوحد، متلمسًا له أعذارًا جديدة..
قلت لنفسي: إنه لما فقد برهوم راجع نفسه فقرر أن يتشبث بوجود أبي ردًّا على ما كانت تقوله مبروكة من أنه فقد الولد وأصبح بلا سند.. قال وهو محتقن الوجه:
- تبعت لأبوك مرسال ييجي، وأنا ليَّ كلام معاه، فاهم يا وله؟
كان مغلولًا بصورة لم أشهدها قبلًا، عيناه الكفيفتان تلمعان ببريق عنيد مليء بالإصرار والحماس.. قلت:
- حاضر، أبعت له.
جدتي مبروكة لم تكن مرتاحة، لكنني كنت مجبرًا على تنفيذ رغبة الرجل.. لما جاء أبي واكتشف ما جرى لجدي جعل ينهنه ويبكي، لكن جدي استعاد قدرته الأولى وصلابته، وراح يربت على كتفه مهونًا الأمر قائلًا إنه لم يعد له من الدنيا مطالب وإنه شبع منها، الأمنية الوحيدة هي أن يراه في الدار، أن يحس بأنفاسه مرَّة أخرى، أن ينصلح ما كان فاسدًا وتعود المياه لمجاريها كما قال برهوم، أن تظل الدار مفتوحة بحسه.
قال أبي في يوم سفره:
- يومين بس على ما أحول أوراق الولد لمدرسة البندر.
قلت لنفسي: يحول أوراق ابن شوق ويعلمه في المدارس بينما لم يسأل عني ولو برسالة، تركني لهم أطفح الدم ولما رحت له خاف منهم وسلمني لهم، يأتي وتعود المياه لمجاريها، تصبح الأرض له ويورثها لابنه الأفندي تربية المدارس ولأولاد روحية الذين يخلفهم على مدى السنوات التالية، يصرف على ابن شوق من كدي وعرفي وهو جاهل في أمور الفلاحة، وسوف يجلس في الدار عمدة مثل برهوم.. لم أكن بقادر على قول شيء إنما أبي لاحظ عدم ارتياحي لفكرة جدي، فسألني:
- رأيك إيه يا صالح؟
- وأنا لي رأي ف الكلام ده رضه.
وتركتهم وخرجت.. ولما عدت عرفت أنه سافر لتحويل أوراق سيد وشحن الفرش لكنه غاب، وكان الرجل يبدو قلقًا ومنطويًا على نفسه، خاصمنا ولم يعد يكلمنا لإحساسه بعدم رضانا عن تصرفاته الأخيرة، كان لا يود أن يتبادل معنا أي كلام، ظل ينتظر ولما يقلق يتوكأ على عصاه

ويطلع إلى السطح دون أن يفكر في الاستعانة بأحد منا، لو كان ابني مصطفى موجودًا يطلب منه أن يقوده، لكني في صباح يوم من الأيام قمت مفزوعًا على صوت هبدة رجت الأرض، تلتها صرخة أو أنة خافتة، فتحت عيني فتسمعت الأنين، بعد لحظات سمعت صوت جدتي مبروكة تنادي:

- يا وله يا صالح.. الحقني بكوز ميه.. سيدك وقع ع الحجر وبيلقف.

أسرعت ناحيتها فوجدته مرميًّا على حجر الطاحونة القديمة والمركون تحت السلم، كان الدم ينزف من كوعه الأيسر وركبته اليمنى، وكان يجاهد باستماتة أن يقوم فترتعش أطرافه وتخرج من حنجرته أنصاف آهات متلاحقة مستجيرة، سندته فلم أجد عزمه قادرًا على مساعدتي للانتصاب به، كان علينا أن نحمله، وضعناه على مرتبة مفروشة في أرضية القاعة، بعسر شديد كان يأخذ أنفاسه ويتحسس سلسلة ظهره، كان يئن أنينًا موجعًا ويتحسس ظهره، اقتربت منه مبروكة وراحت تلطم خديها وتسأل:

- عبد القادر، إيه يا خويا اللي كان مطلعك فوق الساعة دي، دي وقعة موت يا نضري، دي وقعة موت.

لم يكن بقادر على إسكاتها أو أخذ أنفاسه، ولمَّا قربت من فمه كوز الماء أزاحه بيده وألقى برأسه على الوسادة وعلى الوجه آلام مكتومة، ربما كتمها بنفسه، وكز على أسنانه في استماتة وإصرار على عدم الشكاية بالآهة أو بالكلمة.. ولما راح في إغفاءة تركناه.. قالت جدتي مبروكة إنه سقط على سلسلة ظهره على سن الحجر، وإنها لمَّا شافته وجدته يجاهد أن يستدير، وإنها سمعت عظمة الظهر وهي تنتقل من مكانها مؤكدة أنه سوف يموت خلال أيام قصيرة.. سمعناه في الليل ينادي بصوت جريح متقطع ونصف مدرك:

- يا ولاد.. اسقوني يا ولاد.. اسقوني.

ناولته زكية كوز الماء فكان يعب منه عبًّا بينما ينحدر من كوز الماء خطان نحيلان عبر الأشداق في اتجاه اللحية التي طالت وازدادت شيبًا.. عندما ارتوى رفع رأسه عن الكوز وتجشأ، ثم جاهد أن يعتدل في رقدته فعجز، ساعدته ليرتاح فسمعت صوته السائل:

- أبوك ما جاش يا صالح؟

قلت:

- لا.

سكت، كأنما أغلق بنفي مجيء أبي كل الأبواب إليه، مص شفته السفلى ثم أغمض عينيه وكأنه يطردني ويطلب مني أن أتركه وحيدًا.. وفي صباح اليوم التالي بدأ يئن في خفوت منهار كأنه انهزم إلى الحد الذي جعله يرتضي بالأنين، تمامًا مثلما بكى في موت برهوم واسترسل في البكاء.. بدأ الأنين واسترسل فيه حتى لما زاره الرجال الكبار أمثاله لم يشعر بالعار لأنه يئن ويتوجع على مسمع منهم، كأنه خلع عن نفسه ما تبقى له من برقع الحياء.. وتوقعت منه لما زاره الجد إبراهيم أن يطلب خروجي ليُسر إليه بكلام لكنه لم يفعل، بل إنه لم يسأل عن أبي، حتى لما جاءت سيرته دعا له بحسن التساهيل والستر.. ولما خرج زوَّار الصبح سألني:

- بقى ما تحصلش أبوك.. كده برضه؟ كان نفسي أسمع صوته قبل ما أودع.

قلت متحمسًا دون أسباب:

- أبعت له تلغراف م البندر.

كانت نبرات صوته تجعلني أحس بالحزن عليه، وكنت أرغب في تنفيذ مطلبه الوحيد، إنما جدتي مبروكة حذرتني من سرعة إرسال الخبر ومن وصول أبي:
- سيدك ميت ميت، يعني هوَّ حيحوش رجل النعش، ندبر أمورنا وبعدين نبعت له.
- إزاي؟
- دلوقتِ الجو خليلك، يعني تقدر تكتب ورقة بالأرض بيع وشرا، الراجل لسه صاحي وانتم ويايا أهه.
- يبقى حرام.
- حُرمت عليك عيشتك، عايز تطلع م المولد بلا حمص؟ على كيفك.
- أمَّال أعمل إيه؟
- يا ضنايا فوق لروحك، ما هو لو جه أبوك بمراته وابنه ترجع تملِّي زي الأول، تشتغل بلقمتك، هو حيفضل من غير خلف؟
- ...
- دا حتى فدانين أمك متسجلين باسم سيدك، وانت لا سجلت ولا لك لو مات قصبة.
أحسست بالخوف، بالكراهية لكل مَن بالدار، لجدتي مبروكة التي فكرت ودبرت ليس من أجل سواد عيوني وإنما لتمنع أبي من أخذ شيء، ولمَّا كان برهوم حيًّا ظلت كل الأرض باسمه، وكرهت أبي الذي استمر في العمل في بلاد الغربة في انتظار لحظة الميراث الجاهز، وكره جدي لأنه لم يعمل حسابي واكتفى بطلب عودة أبي ليرث الأرض ويصرف منها على ابن شوق وعلى زوجته التي كانت حاملًا وسوف تلد له خلفة يعلم الله عددها، وكرهت نفسي أيضًا لأن الشيطان غلبني وجعلني أوافق على رأي مبروكة كحل وحيد يضمن لي حقًّا في الدار التي استعبدوني فيها سنوات العمر كله، والأرض التي سقيتها بعرقي وجهدي وعزقت طينها بعزم صباي وحملت إليها السباخ لتسميدها بشقاء طفولتي، كل هذا من أجل برهوم الذي ظل يلهو ويعبث حتى مات من كثرة الفساد، ومن أجل الرجل الذي ظل قادرًا وقويًّا حتى بعد ما أصابه العمى، وبعدها أعود عبدًا مصبوغًا لأبي الذي لم أعرفه ولأخ منه أو إخوة يعلِّمهم في المدارس، بينما أشقى.. كرهت الكل، كرهت أمي التي فاتت الدار وتزوجت في وقت كنت أحتاجها فيه، خلفت هي الأخرى وعاشت، وجدي مارس قدرته وقوته في ضرب الجميع ولم يتركني لحالي إلا لما شعر بالحاجة إليَّ.. حسبتها في دماغي فوجدت كلام مبروكة في صالحي.
من سُكات كتبنا عقد بيع وشراء باسمي، وكان الختم مع مبروكة فختمنا العقد واحتفظت به، مع نصف الريال الفضي القديم الذي ظل، احتفظت بالعقد ثم أرسل تلغرافًا للرجل.. لم تمضِ ساعة حتى تزايدت آهات الرجل، كنت أود أن أخلص ضميري وأقول له ما جرى، أسرد على مسمع منه دفاعي عن نفسي والسبب الذي جعلني أطاوع مبروكة في كتابة عقد كاذب مستغلًّا رقدته، لكنني كنت أخشاه، حتى في هذه اللحظة كنت أخشاه غير مصدق أن الآهات والأنات تخصه أو تقلل من قوته.. شهودي على العقد أخذوا نصيبهم وخرجوا.. كانت مبروكة قادرة على تدبير كل شيء، دبرت الأمور كلها ولم تترك شيئًا للصدفة.
في الليل تزايدت آهات الرجل وجاء الجد إبراهيم بالكفن.. في منتصف الليل أسلم الروح لخالقها فارتاح.. وفي الصباح جاء أبي وبكى، بكى إلى حد جعلني أفكر في مصارحته بكل ما جرى، أحسست بالعار من نفسي، إنما مبروكة كانت تلحظني وتفسد عليَّ كل محاولة لإكمال التفكير في

هذا الأمر دون أن تتدخل، تقتحم دماغي وتعشش فيه بكلماتها مسنونة الأطراف، ولم أكن أعرف إن كانت هي الشيطان الرجيم أم أنها ملاك بعثه الله لينقذني من ضياع العمر الآتي.

* * *

ينطفئ شعاعنا الأصيل وتزداد من حولنا العتمة، نصبح غير ما كنا، يجيء الزمن الخسيس فينشر على دربنا عباءة الأحزان، حتى الفانوس الذي كنا نضيء به مدخل الدرب وفرناه وتركنا الدرب بلا علامة تميزه عن كل الدروب المحكومة بالعتمة، نجاهد للنفاذ إلى البراح، للتشعب في حيز أكثر اتساعًا، فلا نملك.. في الزمن الفائت كان الزمام براحًا يرتعون فيه، لكنهم لم يورثونا إلا القليل، وحتى ما جاهدت لامتلاكه أصبح بلا قيمة، الأرض التي فتحت عيوني وحسبتها قادرة بطرحها على ستر الدار ناءت بحملها البشري.. في صباي حسبتها تكفي وأنهم لم تُفرض عليهم حدود، وإنما اختاروها عند المدى الممكن لنا أن نرعاه، واكتشفت الحماقة عندما وجدتها أضيق من جهدنا، وأعجز من أن تفي بالمطالب.. كبر الأولاد وآن لنا أن نفكر في نصيب الولد ونصيب البنت، أن نسأل أنفسنا إن كان يكفي لفتح بيت الولد منهم فدان يتيم.. مصطفى علمناه صحيح ووظفناه صحيح إنما بعشرة جنيهات، دبلوم التجارة الذي يحمله آخر ما كنا نتمناه في مشوار الصرف عليه.. ومحمد ظل في الدار، أصبح في مثل طولي وأعرض مني وجرؤ لسانه على المعارضة والعناد، عينه على الأرض وحساباته تدور حولها.. ومحروس أصغر الصبيان علمناه أو كدنا أن نعلمه، إعدادية عامة، ومدارس الجيش كانت ملجأه المختار.. أما البنات فما كن يطلبن إلا الستر والجهاز.. وهل يجوز أن يرثن في الأرض ويتركن الإخوة في عسر وضيق؟

فجأة يفيق الواحد من نومه الطويل رغم أنه كان يحسب روحه صاحيًا وواعيًا لكل شيء، يفيق لنفسه فيجد روحه محشورًا في زمرة المساكين بحق، يكتشف أن مستقبل الأولاد هزيل: الفدان الوحيد الذي سوف ينوب الواحد منهم ربما يساعد واحدًا مثل مصطفى لكنه يعجز بالطبع عن فتح دار لولد مثل محمد، محمد يطلب منا بعناد أن نزوجه، تمامًا مثلما كنت أفعل أيام برهوم وجدي عبد القادر، عينه على الأرض، على أنصبة البنات، يقول بثقة إن أرض البنات له بالرضا أو بالعراك، أقول لروحي إن فرعنا خاب وإن دربنا كله لم يفلح في شيء، سوف تتكرر الحدوتة القديمة، يطمع الولد في نصيب الولد، والولد في نصيب البنت، وكل واحد يجاهد أن يزرع الحد بعيدًا عن حده الشرعي ليعيش، ولمَّا يكتشف الواحد منهم ضيق الحيز الموروث يسخط، ربما يجحمني في تربتي ولا يطلب أيهم لنا الرحمة.

نحكي عن الستر وعدم الفضيحة، سترنا أكذوبة تكلفنا شراء ثوب الكشمير لزوم حسن الهندام، نتمسح في سعر المتر وأجرة التفصيل، ليقال عنا لخلق الله إننا ما زلنا مستورين.. أما الفضائح فهي آخر ما يمكن أن تلحق بنا، على الأقل لن تصل إلى أسماعنا، فنحن أولاد الأصول، فما زال لنسل الحسين حق في حسن السيرة وسلامة الأصل يا كَفْر عسكر، فمن فيكم يا رجال الكَفْر من نسل الحسين ليدخل معنا مباراة الأصول، أصلنا بشهادة الكل ثابت وفرعنا في السماء، أن يقال عنا ما يقال دون أن يصل إلى آذاننا فهو مباح، أن يقتل على مشارف كَفْرنا واحد منا بيد مجهول، فليس في الأمر عار أو مهانة، ألم يستشهد جدنا الحسين ويصبح سيد شباب أهل الجنة؟ أن يتوه ثأرنا ويخفى على جهد وكيل نيابة المركز، فيسر إليَّ بأنه حفظ التحقيق في مقتل سيد حسن عوف لأن القاتل مجهول.. شيء بسيط وليس فريدًا في نوعه أن يتعلق أبي حتى هذه الساعة على وهم قدرتي على الثأر له أو حتى معرفة الفاعل وأعجز عن الفعل، شيء لا يعيب، المهم أننا ما زلنا

ندب على أرض ورثناها ولم نفرط في شبر منها، امتزجنا بها وراعيناها قدر المستطاع، عشنا على ثمارها وطرحها المبروك، لم نعرف الغش ولا سرقنا ولا قتلنا الضعفاء، ولا حتى دخلنا المركز في تهمة، ومهما ثرثرتم يا هياكل كَفْر عسكر حول ما أصابنا به الزمان من بلوى فلن تنالوا منا، مهما تراجعنا أو انزحنا غصبًا عن مركز الصدارة في الكَفْر فنحن أيضًا أولاد عوف.
قال جدع أفندي ممن يتسكعون على البوابة:
- هوَّ ده صالح عوف؟
لما سمعت الاسم وقفت، فسكتوا، ظللت واقفًا في انتظار أن ينطق، لكنهم ظلوا صامتين، كنت أنظر إليه متوقعًا أن يبدأ بالحديث مرَّة أخرى، همس أحدهم في أذنه فضحك، وقال:
- واحنا مالنا، إللي على راسه بطحة يحسس عليها.
كانت المسافة بيني وبينهم خطوات، وكانت العصا في يدي، عندما لوحت بها رمحوا ما عدا هذا الأفندي، قلت لنفسي: أبطحه هو ليتحسس بطح رأسه بدلًا من أن يعرض بنا على البوابة.. كان طرف العصا قد فتح جبهته وسال الدم وتجمع الخلق وسألوني عن السبب فلم أرد، سألوه فكان صادقًا لما كرر ما قاله بالحرف، قلت له:
- حسس على راسك بقى.
وضحك البعض بينما اهتم الآخرون بربط الجرح بشاش من دكان شاكر الذي خرج وجاء إليَّ وجاهد أن يفهمني أن الأفندي لم يخطئ في حقي، وأنه لم يكن يعنيني في شيء، وأنني تسرعت، وربما كنت أصبته إصابة خطرة وهو ابن عمه ولولا القرابة ما كان يسكت، أشحت له بيدي قائلًا:
- خبر إيه يا شاكر، إنتوا حتعلقوا المشانق ع البوابة؟ لامم شوية صياع حواليك وفاضيين للتريقة ع الرايح والجاي.
ابتعد شاكر، قلت إنه من غير العنف ما عشنا في كَفْر عسكر، لولا قدرتنا على الدفاع لداسونا وضحكوا علينا.. في الطريق إلى الدار كنت أسأل نفسي عن البطح الذي قال عنه الأفندي، ربما حالة أبي؟ ربما موت سيد؟ لكن سيد ليس غريبًا على شاكر، هو أخوه من شوق فكيف يعايرني به قريبه؟ أليس له في العار نصيب إن كان موته يستحق المعايرة؟
أيام الصبوة كنا نسوق أولاد شلبي أمامنا، هذه أيام خسيسة، يتصدرون لنا في وسط البوابة، العنف أيامها كان عنوانًا للجسارة والقدرة واليوم وسيلة للدفاع وإسكات الألسنة المحطوطة، فليأت أولاد شلبي كلهم، فليأت رجال كَفْر عسكر بمن فيهم أولاد عوف أيضًا، فلأكن وحيدًا في مواجهة الكل.. الناس لا تتركنا في حالنا، أما كفاهم ما صرنا إليه، أي بطح على رأسي لابن الزانية، أي بطح هذا الذي يتكلم عنه، صالح عوف يلعب معهم؟ مالهم بصالح عوف؟ الزمن دوخ الخلق وهم يتسكعون، زمن أغبر حير الناس، والأفندية ذوو الرؤوس العارية يتمسخرون على أسياد أسيادهم، يتنطعون متجاهلين عارهم المبين.. كل رجال الكَفْر يعرفون حكايات جماعة شلبي وفضائح نسوان جماعة شلبي، ربما كان لكل رجل من رجال جماعة عوف فضيحة تخصه، قد يقولون عن غانم المرابي الكثير تمامًا مثلما نقول نحن عنه، نحاس دارنا في حوزته رهنًا لسلفة، هو أعرف على كل حال بسقطاتهم، في دماغه سجل كامل عن كل العورات التي انكشف لحريم جماعة شلبي، ربما كانت حميدة من أقاربك يا شاكر، إنما هي من نفس السلالة، اسمها حميدة مصطفى شلبي، وحكايتي معها معروفة، لولا سيد ما كنت توقفت عن معاشرتها، كنت أعاشرها عيني عينك وعلى رؤوس الأشهاد، في أرضها كنت أمارس معها اللعبة ولم يجرؤ رجل من أولاد عمومتها على فتح فمه

بكلمة، عشيقة مجانية من نسلكم يا أسياد الكَفْر ركبها صالح عوف، أي بطح فوق رأسي، سلاحي غير المرخص كان يزغرد في الأفراح وفي ليالي الري والحصاد، أسكتكم يا من تحملون البنادق المرخصة، ولكنكم في الداخل من أنفسكم جبناء، تعرفون أن أيامكم في الدرب لن تطول، أنه سوف يجيء الزمن الآخر ونستعيد بالغصب ما ضاع، ولو حتى ظللتم على حالكم فلن يطولنا موكب الأنذال والمتنطعين، ربما أجرتم على سيد من يقتله، ربما لم يضع دمه هدرًا وتنكشف الأسرار، يومها ينسى الواحد كل شيء ويحمل سلاحه في وضح النهار ويقضي على الفاعل أو مَن أجره مع من يتعرضون له، وينتهي كل شيء.

كنت قد أمرتهم بعمل راكية نار وتدثرت باللحاف، وكانت الرطوبة تنفذ في العظم، غفلت عيناي بعد ما أحسست بالدفء يطرد الرطوبة من المندرة، في النوم رأيت جدي عبد القادر، كان يعاركني في المنام، لكنني حاولت الفرار منه، يلاحقني، ينظر إليَّ بغل ويطاردني فأرمح، في يده طفل، وليس للطفل ملامح مميزة، لكنني كنت أرغب في أخذه وأعجز، كلما أقترب منه يستخدمه في ضربي بدل العصا، يتحول الطفل في يده إلى عصا، أسرع الخطو فيلاحقني به، أتعثر وأقع وأوشك أن أستسلم، فأجد الطفل يهوي فوقي وكأنه حجر طاحون كبير فأفز من رقدتي، أهرب، أرغب في أخذه فأراه معلقًا في الفراغ لا يسقط ولا يختفي، في متناول اليد وبعيد عنها، أحس الخوف من احتمال سقوطه وتفتته وكأنه ولد من أبنائي، أجد جدي يعود، يلتقط الحجر الطفل ويغيب بينما أناديه بعزم صوتي ولا يجيب، يغيب عن الأبصار وأناديه وأحس اختناقًا في صدري وأئن صارخًا بلا صوت، أجدني مقيدًا وعاجزًا عن الحركة الطليقة، عن إخراج صوتي المحبوس، أجمع كل قواي في صرخة: اوعى، اوعى يقع.. وعيتها وسمعتها واضحة، صوتي الخارج من داخلي سمعته ففزعت، كان اللحاف ملفوفًا على ساقي اليمنى بحيث يشل حركتها، نظرت حولي فوجدت الدخان المتجمع في أركان المندرة جعلها تعوم في سحاباته المتكاثفة، نظرت فوجدت الراكية ما زالت تدخن، قمت وأخرجتها من المندرة لاعنًا الأولاد الذين سكتوا ولم أسمع لهم صوتًا، تناوموا جميعًا بعد أن أوشكوا على خنقي بالدخان، خفت من المنام، قلت اللهم اجعله خيرًا، تذكرت كابوسًا شبيهًا ليلة مقتل سيد، أحلامي تفسرها الأحداث التالية، خفت على مصطفى، واستعذت بالله من الشيطان الرجيم، لم يكن النوم راغبًا في معاودة المجيء فجلست وحدي، سمعت صوت الكلب يعوي، نفس العواء الجريح ونفس الكلب الغريب، خفت وتجسد في دخان المندرة وجه سيد وغصبًا عني بدأت أسترجع ما جرى ليلته وحلم الليلة يشغلني على مصطفى ابني.

كان الكلب يعوي، وكلاب الكَفْر تنبح وتتجاوب النباح والكلب يعوي، ليلتها نظرت من شباك المندرة فوجدته يقعي تحتها ويرسل عواءه، قلت للكلب: امشِ.. لكنه ظل يعوي، كررتها فكرر هو العواء، أخذت العصا وفتحت الباب واتجهت ناحيته فابتعد خطوتين وراح يزوم ويعوي، اقتربت فابتعد محتفظًا بالمسافة بيني وبينه بحيث يصعب أن تطوله العصا.. تكررت خطواتي ناحيته وخطواته بعيدًا عني، تناولت حجرًا فابتعد أكثر، كان كلبًا أسود الشعر فحلًا، تبرق عيناه في الظلمة وعواؤه الجريح المهان يتردد على مسمع مني ولا يود أن يكف، كدت أطارده إنما قلت لنفسي: أنت مجنون يا صالح لتطارد كلبًا في منتصف الليل، كل كلاب الدنيا تنبح ويستحيل إسكات الكلاب.. سمعت عيارًا ناريًّا ينطلق ورجعت متخوفًا أن أصاب بنزلة برد، ظللت أتقلب في السرير والنوم سلطان عزيز لا يجيء، ليلتها تذكرت سيد، هف على دماغي هكذا بلا مقدمات وجعلني أفكر فيه.

في الصباح فات محمد عطا بالمواشي، كان براد الشاي يغلي والفطور على الطبلية، ألقى تحية الصباح وعزمت عليه بالفطور، قال وهو يعبر باب الدار تتبعه المواشي:
- بيقولوا فيه نفر مضروب عند أول البلد.
سألته من باب العلم بالشيء:
- مضروب بإيه؟
قال مكملًا ما قاله دون أن يبدو عليه أنه سمع السؤال:
- دا الدنيا مقلوبة هناك والعمدة بلغ المركز.
لم أهتم، كَفْر ملعون، كل يوم عركة ووجع دماغ.. بدأت في الفطور، بينما كنت أشرب الشاي وجدت الولد محروس يدخل الباب رمحًا، وقف مكانه ينهج، كان الوجه مخطوفًا وكأنه هارب من أحد، قمت بسرعة أنظر من الباب فلم أجد أحدًا، سألته:
- مالك يا وله، حد كان بيرمح وراك؟
سكت الولد فعدت أسأله:
- جرى إيه؟ كنت بترمح ليه؟
- رحت عند الكوبري أتفرج، الناس بتقول عمك سيد... سألته:
- ماله عمك سيد؟ اتكلم.
- بيقولوا هوَّ اللي مضروب عند الكوبري.
لم أسمع ما تبقى، تناولت العصا ورمحت حافيًا في اتجاه الكوبري، حسبته يتعارك مع أحد ويمكن أجده ما زال يتعارك وربما أصل قبل أن يفلت من عاركه، سمعت النسوة يتهامسن:
- أخوه، إيه يا اختي؟
- دا صالح ابن عوف، أخوه.
عندما وصلت لم أرَ سيد، وجدت العمدة واقفًا وجنبه ابن بهية وضابط المركز وبعض الرجال وجمعًا من النسوة في ركن من أركان الطريق الزراعي.
أحسست أنني جريت مشوارًا بلا فائدة، احترت فلم أعرف كيف أرجع، شعرت بشيء من الحرج من نفسي، وقفت مكاني فاقترب مني نفر لا أعرفه وهمس:
- دا مضروب ظرف ف قورته من ليلة إمبارح.
- ابن مين؟
نظر إليَّ واستنكر عدم معرفتي، قال...
أنكرت أنني أعرف، جاء آخر وآخر، قال أحدهم:
- إنت ما تعرفش؟
- دا سيد أفندي.
ذهلت، كان يشير إلى كومة من الحشيش الأخضر.
- واقتربت ناحيتها لأرى، منعوني، لم أمتنع، قال العمدة:
- دا أخوه يا حضرة الضابط.. إللي بعتنا له يتعرف عليه.
خلصت نفسي من قبضة العسكري، وامتدت يدي إلى أعواد الحشيش الأخضر، لما رفعتها ورأيت الحذاء والبنطلون الأسود، أسرعت إلى الناحية الأخرى ورفعت الحشيش وفوجئت بوجه سيد، كان الدم يغطي الوجه ويداري الملامح، وعلى الجبهة وفي الجانب الأيسر ثقب غويط يمتزج فيه الدم

بسائل أبيض لعله المخ، العينان مفتوحتان في ذعر مستسلم والفم ملوي ربما عن آهة أو صرخة أو نداء، تمنيت لو كان ما أراه كابوسًا يمكن أن ينزاح لو أفيق وأصحو، إنما كان ما أراه حقيقة، الضابط يجرني بمساعدة العسكري والخفراء وكنت أناديه بينما يقوم أحد العساكر بمعاودة تغطيته.. كانوا في انتظار النيابة، وعندما جاء وكيل النيابة سألني وأنا ذاهل إن كنت أعرف له أعداء فلم أعرف بماذا أجيب، لم يكن له في الكَفْر أعداء، إن كنت أتهم أحدًا بعينه فلم أستطع، قلت لهم لا أعرف، ربما يعرف شاكر لأنه كان أكثر معاشرة له مني إنما لم أقل أي شيء، كنت مذهولًا.. في طريق العودة جاءني أحدهم بالعصا التي نسيتها جنب الجثة، نظرت إليها ولم أمد إليها يدي، ما قيمة العصا، كنت قد أتيت لأحميه بها لكن الموت غلبني وأنهى كل شيء.

وجاء الطبيب الشرعي وقيدوا الحادث ضد مجهول، وقالوا سوف يعرفون الفاعل فالحكومة لا تخفى عليها خافية، ولما صرحوا بالدفن واشترى فتحي كفنه غسلناه وظللنا ننتظر الرجل حتى عصر اليوم التالي فلم يجيء، ولما دفناه جاء، وصل إلينا ونحن في المدافن، كان باب المقبرة ما زال طريًّا لم يجف طينه، كاد أن يفتحه ويدخل لكنهم منعوه، كان يتحسس بأصابعه باب المقبرة ويسألني عمن قتله، كنت عاجزًا عن الجواب لأن السؤال كان مطروحًا في دماغي ويحتاج إلى جواب: كنت أتماسك خوفاً من مشاركته البكاء أمام الخلق في المدافن، هم علموني أنه من العيب أن يبكي الرجال، مَن علمهم أنه على الرجل أن ينضح غلًّا وقهرًا ويمتنع عن البكاء؟ مَن فرض عليهم التماسك في لحظات المهانة والتهالك؟ ولماذا انهار عبد القادر عوف بنفسه وبكى وهو معلمي وكان سيد رجال الكَفْر كله؟ وهل من الواجب عليَّ أن أصمد في مواجهة الدموع أكثر مما صمد؟ لكنني كنت أرغب في البكاء، في أن أنفرد بنفسي وأبكي على كل حالنا، وربما كانت دموعي يومها في طريق العودة هي البطح فوق رأسي، هي العار الذي أستحق عليه المعايرة، إنما مَن في الكَفْر يحتمل كل هذه الأحزان ولا تدمع عيناه؟

كأن حياتي كلها مجرد استرجاع يتلوه استرجاع يشدني لذكريات الموتى، أجترها وأمتص لحظاتها المُرَّة، كأنما الموت هو لحن عمري الحزين غطى على كل الأفراح التي صادفتها في خلال عنف ضرباته الرتيبة الصاخبة والتي لا تكف، مشدود للموت والأموات بحبال قوية تمنعني من لحظة أعايش فيها الفرح اليسير وأذكره، الذكريات السود انسدلت ستارًا إثر ستار يحجب عني أشواق العمر بأسره، فتحت عيوني فلم أرَ الشعاع وإنما وجدت العتمة، كأنما الموت هو قدري وعالمي.. لربما كان صدفة أنني جئت في وقت لأشهد سقوط فرعنا من شجرة جماعة عوف، شاهد مطعون في جده وخاله وعمه وأبيه وحتى الأخ الوحيد، وربما تدور العجلة وتطوي في حياتي واحدًا من الأولاد، أشهد الفرق بين أمسيات الزمن الغائب والتهاوي المُهان لكل الرجال، وأبقى وحدي هكذا لأروي على من يجيئون من خلفتي سيرة الرجال، وربما تنتهي المناحة وتشرق شمس الأيام البيض، ينزاح الغم وتولد الأشواق، تأتي خلفة جديدة قادرة على زرع الأحلام وطرح الأمنيات، على شد الزمن الأصيل من حيث غاب والاحتماء به من مطاردات الموت أو استرجاع لحظاته.

أيام نعيشها مستورين أو واهمين في الستر، تجبرنا قلة الخير على السعي بحثًا عن شريك يدفع لنا ثمن البهيمة ونسرح بها نسمنها، ثم يجيء الوقت الذي يفرض علينا فيه أن نبيع ونقتسم المكسب، يأخذ الثمن المدفوع ويقتسم الفارق من أجل مجرد الاستمرار.. نرضى يا رجال كَفْر عسكر بكل شيء، نرضى بتسليم خير الدار لتاجرة البيض والسمن، نرضى بأن يديننا شاكر بثمن السكر والشاي والدخان، لتظل الدار مفتوحة، ليبقى من رائحة عبد القادر عوف نفس أو أنفاس تتردد

تحت سقف داره، ليقال إنه لم يعجز عن مواجهة الأيام السيرة، ولعل الخير يأتي، لعل ضروع البهائم الجافة تمتلئ بالحليب والدسم، ولعل الأرض تزود غلتها وتمتلئ الأجران في مواسم الحصاد التالية، لعل الخلفة تفلح وتعوضنا عمن راحوا.. كلما رأيت مصطفى تذكرت سيد، وكلما برطم محمد تذكرت صبوتي وعنادي، ولعل من راحوا خلفوا لنا بركتهم، لعلهم يحومون حولنا يطلبون أن نبقى، لنذكرهم بالخير، ونترحم عليهم كلما جاءت سيرتهم، وإلا فمن لهم في هذا الكَفْر يطلب الرحمة ويعيش حاملًا من بعدهم أمانة الاسم الأصيل في هذا الزمن العويل؟

مختارات الكرمة

١. مليم الأكبر - عادل كامل
٢. الناس في كفر عسكر: أولاد عوف - أحمد الشيخ
٣. النزول إلى البحر - جميل عطية إبراهيم
٤. دنقلا - إدريس علي
٥. مذكرات جندي مصري في جبهة قناة السويس - أحمد حجي
٦. الشبكة - شريف حتاتة
٧. ملك من شعاع - عادل كامل
٨. إجازة تفرغ - بدر الديب
٩. رابعة ثالث - علي الشوباشي
١٠. أيام الطفولة - إبراهيم عبد الحليم
١١. شخصيات حية من الأغاني - محمد المنسي قنديل
١٢. حديث شخصي: أربع تنويعات - بدر الديب
١٣. الرحلة - فكري الخولي